مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

د. نبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

Looloo
www.dvd4arab.com

45

جريمة رقمية

- مـع القـــرن الحـادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب .
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مـع كل هذا جـاءت كوكتيل 2000 ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- *إلى الحضارة ..*
- *إنـها ثقافة الغد .. لشباب اليوم ..*

Looloo
www.dvd4arab.com

فلسفة الخيال

مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى ، غرقت الإمبراطورية الصـينية فى حروب طاحنة ، للحفـاظ على أمنهـا ، وضمان وحدتها ، والدفاع عن أرضها ، ضـد غزاة جذبتهم حضارتها ، من كل أركان الأرض ..

وفى عام 1232م ، بلغـت تلك الحروب ذروتهـا ، وحاصر الأعداء الإمبراطورية الصفراء ، وهموا باقتحامها ، واحتلالها ، و ....

ولكن التاريخ يحمل لنا مفاجأة مدهشة ، فى ذلك العام بالتحديد ..

فلأول مرة ، استخدم الصينيون ما وصفته كتب التاريخ بأسهم النار الطائرة ..

ولكن بعض العلماء يؤكدون ، أن تلك الأسهم ، لم تكن سوى أول صواريخ عرفها البشر ..

فأكثر ما امتاز به الصينيون ، فى تلك الفترة ، بعد براعتهم الكيميائية ، كانت قدرتهم على الخيال والابتكار ..

وخيالهم ، مع كيميائهم ، صنعا أول الصواريخ ..

وفى عام 1812م ، وأثناء حرب البريطانيين مع الأمريكيين ، طوّر البريطانى (ويليام كونجرين) صواريخ تحمل مواد متفجرة ..

وكانت مفاجأة للأمريكيين ..

ونقطة تفوق للبريطانيين ..

ولكن صواريخ (كونجرين) لم تكن بالقوة الكافية ، لتربح (بريطانيا) الحـرب ، لـذا فقـد طواهـا الزمن ، ونساها الأمريكيون ، مع فرحتهم بالاستقلال ، فاختفت فى خيال العلماء ، حتى عـام 1903م ، عنـدما خرج مدرس الثانوى الروسى (كونستانتين تسيبو لكوفيسكى) بأول نظرية علمية صحيحة ، لإطلاق الصواريخ ..

وكانت هذه هى البداية العلمية الحقيقية ..

ولكن القاعدة الأساسية ، فى التاريخ كله ، تؤكّد أن الخيال يسبق العلم دومًا ..

ويلهمه ..

ويدعمه ..

ففى عام 1870م ، وقبل نظرية (تسيبو لكوفيسكى) بربع قرن تقريبًا ، نشر أبو الخيال العلمى (جول فيرن) (1828 – 1905م) روايته الخالدة ، (حول القمر) ..

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى روايته ، وقبل أن ينشأ علم الفضاء ، تخيّل (فيرن) الصواريخ ، وإطلاقها ، ومناطق انعدام الوزن ، والمسارات الكونية ..

كل هذا توصّل إليه خياله ، وصاغه قلمه المبدع فى روائع ، ما زالت متداولة ، حتى يومنا هذا ..

وروائعه هذه ، هى التى ألهمت قرينه البريطانى (هربرت جورج ويلز) ، (1866 ــ 1946م) ، ليضع بدوره رائعتيه ، (حرب الكواكب) ، و(أوصل من وصل القمر) (1898م) .. .

الاثنان سبق خيالهما عصرهما بعدة سنوات ..

وبعدة مراحل ..

فبخيالهما صعدا إلى القمر ، قبل أن يأتى الأمريكى (روبرت جودارد) ، ليصنع أول صاروخ بطاقة دفع ، فى عام 1926م ، ويصبح بهذا أبا الصواريخ ..

ولكن التطوير الفعلى والحقيقى للصواريخ ، التى نعرفها الآن ، وُلِدَ على يد الألمانى (فون براون) ، فى الحرب العالمية الثانية ، ليمنح النازية صاروخيها المدمرين (ف ــ 1) ، و(ف ــ 2) ، اللذين دمرا نصف (لندن) ، وكاد يمنحها تحفته (ف ــ 3) ،

القادرة على عبور المحيط ، وضرب الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، لولا أن سقط الرايخ الثالث ، وخسرت النازية الحرب ، فانتقل (فون براون) ، مع ألفى رجل من علماء الصواريخ إلى (أمريكا) ؛ ليبدأ هناك عصر الفضاء ..

الأمر كله بدأ بخيال إذن ..

وهنا تكمن الفلسفة ..

فلسفة الخيال ..

فالحضارات العظيمة ، والمخترعات الرائعة والمذهلة ، لم تكن فى بدايتها سوى فكرة ..

إلهام ..

خيال ..

ومن الخيال ، تنبت دومًا بذرة واقع ..

وتنمو ..

وتكبر ..

وتمتد فروعها فى كل مكان ..

والعلم يتأثر دومًا بالخيال ، ويسعى خلفه ، ويؤمن بأنه ما من

Looloo
www.looloo.com

لمحة وثبت إلى عقل ما ، إلا وهناك وسيلة لتحويلها إلى حقيقة ..

حقيقة علمية ..

ومادية ..

وموجودة ..

الغوّاصة أيضًا بدأت بكرة معدنيـــة مصـــمتة ، ابتكرها عقل الهولندى (كورينليوس فان دربيل) ، عام 1775م ، ثم حولّها الأمريكى (روبرت فولتن) إلى حقيقة بسيطة ، عام 1800م ، ألهمت عقل (فيرن) ، وجعلته يسعى لتطويرها ، ويصنع منها سلاحاً رهيباً ، يقوده قبطان نصف مجنون ، مهووس بالسلطة والعلم ، وهو الكابتن (نيمو) ..

وفى رائعته ، (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) ، التى نشرها فيرن عام 1870م ، منح غوّاصة سمات بدت خيالية ، مغرقة فى الخيال فى حينها ، ومنحها اسم (نوتتليوس) ..

وجاءت الحروب العالمية ، وأصبحت الغوّاصة سلاحًا خطيرًا وفعالاً ، إلا أنها لم تبلغ قط ما تخيله (فيرن) فى روايته ..

لم تبلغه ، إلا عندما أصبحت غوّاصة نووية ، عام 1954م ..

والمدهش أن الغوّاصـــة النووية وحدهـــا ، أمكنهـــا أن تحقق ما تخيله فيرن فى غوّاصته ، قبل ثمانية عقود من الزمان ..

المدهش أكثر أن الأمريكيين منحوها أيضًا نفس الاسم ..

(نوتيليوس) ...

حتى الصاروخ ، عندما بنوه ، استلهموا هيئته من الرسم على غلاف رواية (فيرن) ..

وكل هذا مجرد أمثلة بسيطة ، لما بدأه الخيال ..

ولما أنجزه العلم ..

ولما ألفناه فى عالمنا ..

ولكن فلسفة الخيال لا تنتهى أبدًا ..

فالعلماء تساءلوا : ما داموا قد حولّوا الغوّاصة والصاروخ إلى حقائق ، وما دامت مبتكرات ليوناردو دافنشى (1452 ـ 1519م) ، قـد سبقت عصرها بمئـات السنين ، عنـدما تخيّل الطائرة ، والهليوكوبتر ، والمدفع الرشاش ، وزى الغوص ، وغيرها ..

فلماذا لا يسعون خلف صور الخيال الأخرى أيضًا ؟!..

وهكذا ، اتخذ العلماء من الخيال ركيزة ، انطلقوا منها إلى محيط هائل من الابتكارات والاختراعات ..

ودون تردُّد ، يمحو وجوههم شطر آلة الزمن ..

Loolou www.dvd4arab.com

والرجل الخفى ..

والرجل الذئب ..

وكل خيال جامح آخر ..

ومع مُضى الزمن ، أدرك العلماء قاعدة مدهشة جديدة ..

كل خيال ، يمكن أن يتحوّل إلى واقع ..

كل خيال ..

بلا استثناء ..

وخلال العقد الأخير من القرن العشرين ، أثبتت منجزات العلم أن هذا لم يكن خيالاً مبالغًا منهم ..

بل كان مجرد طموح ..

طموح قادهم إلى ما يفوق حتى قدرتنا على الخيال ..

أما الغد ، والذى أعلن عن بدايته ، مع مطلع القرن الحادى والعشرين ، فقد بشرهم بالمزيد ..

والمزيد ..

والمزيد ..

فخيالات الأمس واليوم ، أصبحت حقائق ..

أو توشك أن تصبح كذلك ..

وكل ما بهر عقولنا يومًا ، سيصبح بين أصابعنا ..

وفى بيوتنا ..

وملك أبنائنا ..

عندما يأتى الغد .

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

لأدب الخيال العلمى للشباب

أصدقائى ...

أصدقاء الورق ....

ترددت كثيرًا ، وأنا أضع اللمسات الأولى لهذه المسابقة ، التى أردت بها رد الجميل لعالم النشر ، الذى اختارنى ذات يوم ، وكنت كاتبًا مجهولاً ، بمثل أعمالكم أو أكبر قليلاً ، لكى يمنحنى فرصة العمر ، فى تقديم خلاصة فكرى وقلمى ، لمن ينشدون هذا النوع من الأدب ....

فعندما بدأت فى نشر روايات الخيال العلمى كمحترف ، عام 1984م ، لم تكن هناك أرضية شعبية واضحة ، لهذا النوع من الأدب ، الذى يعتمد على مزج الحقائق العلمية بالخيال ، وبمحاولات التنبؤ المستقبلية ، بما يمكن أن يحمله لنا العلم ، إذا ما أوليناه اهتمامًا حقيقيًا .....

لم تكن هنا أرضية لهذا المزيج الممتع ، سوى كتابات منفردة ، لبعض كبار الكتّاب ، مثل (د. مصطفى محمود) ، و(صبرى موسى) وحتى (توفيق الحكيم) ، و(يوسف السباعى) ، حتى ظهر عبقرى وأب الخيال العلمى فى مصر ، الأستاذ المبدع (نهاد

شريف) ، الذى منحنى الأمل ، فى أن يستوعب السوق المصرى هذا النوع من الأدب .....

وإن كان من الصعب أيامها مزج العلم بالخيال ، فما بالك وأنا أمزج بهما الإثارة والتشويق والمغامرة أيضًا !!....

ولأننى وجدت أيامها عقلية متفتحة منطلقة ، مثل الأستاذ (حمدى مصطفى) ، ومؤسسة ذات انطلاقة جديدة فى عالم الرواية ، مثل المؤسسة العربية الحديثة ، فقد حصلت ، بتوفيق من الله عزّ وجلّ وبإرادته ، على فرصة النشر ، التى كان من نتائجها حصولى على جائزة الدولة التشجيعية فى أدب الخيال العلمى عام 2008م ، عن أعمالى فى عام 2007م ، وعن سلسلة ملف المستقبل بالتحديد .....

سبب ترددى لم يكن كل هذا ، ولكنه كان وضع اسمى على المسابقة ، وهذا ما اقترحه وأصرّ عليه بعض الرفاق ، وبعض تلامذتى أيضًا ...

ولقد مرّ الموسم الأوّل للمسابقة بنجاح والحمد لله ــ سبحانه وتعالى ــ ، ونحن بصدد إعلان جوائز الموسم الثانى بإذن الله ....

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى نهاية هذا العمل ، وفى (مجلتنا) ، ستقرءون الأعمال الثلاثة الفائزة بالمسابقة ، فى موسمها الأوّل ....

شكرى الجزيل لكل من شارك فى المسابقة ، وتمنياتى بأن تحقق الهدف المرجو منها ، فى كشف مواهب شابة جديدة ، فى ذلك المضمار ، الذى طالما عشقته ....

مضمار الخيال .....

الخيال العلمى .

د.نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

وللتخابر أيضًا ... تاريخ (دراســة)

انتهت الحرب العالمية الثانية عام 1945م ، بذلك الحادث المروّع ، الذى أفنت فيه القنابل الذرية ، لأوّل مرة ، مدينتين سكنيتين كبيرتين عامرتين بالسكان ، من رجال ونساء وأطفال وشيوخ وعجزة ، فيما يعد أكبر مذبحة عرفها التاريخ المكتوب ، وتصوّر العالم أنه ، وبعد هذه المأساة ، سيشهد ويحيا أخيرًا ، فى سلام ووئام ، وراحة من الحروب والقتال ، إلا أنه لم يتصوّر قط ، أنه فى نفس اللحظة ، التى وضعت فيها الحرب أوزارها ، أو ربما قبلها بفترة طويلة ، كـــان العالم يستعد لحرب أخرى طاحنة غير معلنة ..... حرب الجواسيس ..

فالحـــرب العالميـــة الثانية ، حـــوت من عمليات التخابر والجاسوسية ما أثار الدهشة ، والانبهار ، وأثبت قـــوة هذا السلاح السرى الرهيب ، فى تحقيق ما تعجز عنه جيوش هائلة ، مزوّدة بأحدث السلاح ، وأقوى العتاد ... فخلال الحرب ، نجح جاسوس بريطانى فى الوصول إلى هتلر شخصيًا ؛ وأقنعه بكسر معاهدة عدم الاعتداء ، التى وقّعها مع روســيا ، وشن الحرب عليها ، بحجة أنها تستعد بدورها لضـــرب ألمانيا ، فانطلقت جيوش هتلر فيما عرف بعملية باربـاروســا ؛ لاحتلال روسيا ؛

وذلك لكى يخف الضغط عن الجبهة البريطانية ، وكانت عملية مخابراتية ناجحـــة ، أعقبتهـــا المخابرات البريطانية بعـــدد من العمليات المدهشة ، فاستولت على خزائن المخابرات النازية ، ودسّت رسائل لاساكية للأسطول اليابانى ، أقنعته من خلالها بأن أمريكا تنوى توجيه ضربة إليه ، مما جعله يسارع بتوجيه ضربة وقائيـــة للأســـطول الأمريكى فى بيرل هاربور ، فجـــن جنون الأمريكيين ، وأعلنوا الحرب على اليابان وألمانيا ، وهذا بالضبط ما كانت تسعى إليه المخابرات البريطانية ؛ حتى تحظى بحليف قوى ، كان يتردّد كثيرًا فى خوض الحرب ...

وحتى فى النهايات ، نجح جاسوس سوفيتى ، وهو ريتشارد سورج ، الذى يلقّب فى عالم الجاسوسية بالأستاذ ، فى الوقوع على سر عسكرى يابانى شديد الخطورة ، يؤكّد أن اليابان لن تشن الحرب على روسيا ، مما شجع روسيا على تركيز حربها كلها على الجبهة الألمانية ، مما كان بداية النهاية للجيوش النازية فى آسيا ، فى نفس الوقت الذى استخدم فيه البريطانيون جاسوسًا ميتًا ، فى واحدة من أشهر وأقوى عمليات المخابرات عبر التاريخ ؛ لإقناع الألمان بأن غزو أوروبا سيأتى من كاليه ، ثم انقضوا من نورماندى ، فكانت بداية النهاية للنازيين فى أوروبا ....

Looloo
www.dvd4arab.com

المخـــابرات البريطانية ، والروســـية ، والنازية ، واليابانية تألّقت فى الحرب ، وأسالت لعاب الجميع للعبة بعد الحرب ، وعلى رأسهم القوى العظمى الجديدة أمريكا ، التى خرجت من الحرب كأقوى دولة فى العالم ، باعتبار أنها كانت الوحيدة ، التى تمتلك القنبلة الذرية ، ولكنها ، وعلى الرغم من هذا ، أدركت قوة المخابرات وأجهزة المخابرات ؛ لأنه ليست كل الحروب يمكن حسمها بالقنابل الذرية ، أو حتى بالقوة .... هناك حروب تحتاج إلى العقل والصبر والمعرفة والحيلة والذكاء والابتكار وغزارة المعلومات ، وكل هذه الصفات يمكن دمجها فى كلمة واحدة .... المخابرات ..

وفى ذلك الحين ، لم يكن لدى أمريكا جهاز مخابرات ، على غرار البريطانيين والسوفيت ، ولكن كان لديها مكتب معلومات استراتيجى ، بالإضافة إلى عشرات الخبراء الألمان السابقين ، فى هذا المضمار ، لذا فقـــد اتخذت قرارهـــا ، وأنشأت نواة مخابراتها ، فى أواخر الأربعينيات ، لتتبعها إسرائيل فى بداية الخمسينيات ، بإنشاء الموساد ، الذى تلقى رجاله تدريباتهم ، فى المخابرات الأمريكية حديثة العهد ، ثم جاءت حركة يوليو 1952م ، لتنتبه للأمر ، وتبدأ بنظام تخابر محدود ، يتبع الداخلية ، ثم تطوّره بقرار إنشاء المخابرات العامة ، عام 1955م ، لتبدأ مصر واحدًا من أزهى عصورها المخابراتية ...

وربما كانت أشهر عمليات المخابرات المصرية ، المعروفة للكافة ، هى عملية زرع رفعت الجمّال فى قلب إسرائيل ، والتى لا تعد من أنجح عمليات المخابرات المصرية فحسب ، ولكنها من أنجح عمليات المخابرات عبر التاريخ ؛ نظرًا لأن رفعت قد أدى مهمته ، واعتزل ، وواصل حياته ، ومات على فراشه ، دون أن ينكشف أمره لحظة واحدة ، على عكس ما يدعيه الإسرائيليون ، وما يحاولون به سحب بساط النصر ، من تحت أقدام المخابرات المصرية ...

ولقد ولد (رفعت على سليمان الجمال) فى (دمياط) ، فى الأول من يوليو عام 1927م ، وكان الأخ الأصغر لاثنين من الذكور ، وهما (سامى) و(لبيب) ، وشقيقة واحدة (نزيهة) ، ولقد توفى أبوه عام 1936م ، عندما كان هو فى التاسعة من العمر ، اصطحب (سامى) الأسرة كلها لتقيم فى (مصر الجديدة) ، فى شارع (يعقوب أرتين) ، المتفرع من ميدان (الإسماعيلية) وأصبح هو المسئول عن الجميع رسميًّا وعمليًّا ، وبدأ (رفعت) حياته الجديدة فى (القاهرة) ، مبهورًا بمدنيتها وأضوائها ، ومقهورًا بأحـــكام عسكرية ، أصدرها شقيقه الأكبر ، الذى ناءت كتفاه بحمـــل الأسرة ، ولم يجـــد أمامه مـــن سبيل للقيام بمسئولياته ، سوى الصرامة والحزم .

Looloo
www.dvd4arab.com

وذات يوم ، تسلل (رفعت) إلى حجرة الممثل (بشارة واكيم) فى المسرح ، وراح يقلده ، حتى وجده أمامه ، فانكمش رعبًا ، وبحث عن مخرج للفرار ، إلا أن (واكيم) طمأنه ، وأخبره أنه سيصبح له مستقبل مشرق فى عالم السينما ، عندما ينتهى من دراسته .

وبالفعل ، حصل (رفعت) على فرصة للتمثيل فى ثلاثة أفلام ، ارتبط خلالها بالراقصة الشابة (تيتى) التى كان لها شأن كبير فى حياته ، حتى ينس من تحقيق النجاح فى السينما ، فالتحق بالعمل فى شركة بترول أجنبية ، ثم لم يلبث أن تركها ليلتحق بشركة كيماويات فى الإسكندرية ، إلا أن مدير أحد الفروع نجح فى خداعه ، بحيث اتهمه بسرقة ألف جنيه من رصيد الشركة ، وتم فصله منها .

ومرة أخرى ، حصل (رفعت) على عمل مساعد ضابط حسابات ، على متن سفينة الشحن (حورس) ، ليغادر (مصر) معها ، تاركًا كل متاعبه ومشكلاته خلفه ، وينتقل بين موانى البحر الأبيض المتوسط ، إلا أن الظروف لم تلبث أن أعادته إلى (مصر) فى مارس 1950م ، ليعانى مرة أخرى من الوحدة والفشل والمرارة ، مما دفعه إلى التحايل للسفر إلى (إنجلترا) ، فى محاولة للبحث عن النجاح ، الذى يفر منه فرار الصحيح من الأبرص والأجرب .

وفى (إنجلترا) لاحت له بوادر النجاح ، فى وكالة سفريات تحمل اسم (سلتيك تورز) ، حيث نجح فى تحقيق صفقات ، بلغت عمولته منها أكثر من خمسة آلاف جنيه إسترلينى ، مما يساوى ثروة طائلة فى ذلك الزمان ، حتى إن صاحب الشركة شعر أنه يلتهم الكثير من الأرباح ، فانتهز فرصة سفره إلى (أمريكا) ، واتهمه بالغش والتدليس ، مما تسبب فى ترحيله مرة ثانية إلى (القاهرة) ، بعد أن فقد جواز سفره ، وحول نقوده إلى شيكات سياحية .

وفى (مصر) ، بذل (رفعت) جهدًا خرافيًا لاستخراج جواز سفر آخر ، إلا أنه فشل فشلاً ذريعًا ، بسبب شروط غاية فى التعقيد ، بالنسبة لاستخراج جوازات السفر فى ذلك الحين .

وعندما تعقدت الأمور ، وضاقت به سبل العيش ، وجد أن أفضل ما يمكن الحصول عليه ، هو عمل فى شركة (قناة السويس) ، نظرًا لإجادته التامة لعدة لغات ، إلا أن هذا كان يحتاج إلى وثائق رسمية ، مما جعله يتصل بأحد المزورين ، الذى أعد له جواز سفر باسم (على مصطفى) ، نجح بوساطته فى الحصول على عمل بالفعل فى شركة القناة .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن الرياح لم تسر بما تشتهى السفن ، ففى أكتوبر 1951م بدأ البريطانيون فى فحص الهويات الشخصية بدقة بالغة ، مما جعله يعود إلى (القاهرة) ، خشية انكشاف أمره .

وفى (القاهرة) ، حصل (رفعت) على جواز سفر زائف جديد ، باسم صحفى فى (جنيف) (تشارلز دينون) ، أقام به فى أحد الفنادق ، باعتباره أجنبيًا ، دون أن يشك أحد فى أمره لحظة واحدة .

ومع الاضطرابات السياسية ، وقيام ثورة يوليو ، وعمليات التحقيق المستمرة من رجال الشرطة ، قرر (رفعت) مغادرة البلاد فى مارس 1953م ، لذا فقد حصل على جواز سفر زائف جديد باسم البريطانى (دانيال كالدويل) ، وسافر بنظام (أوتوستوب) إلى (ليبيا) .

وبعد أن عبر الحدود الليبية بالفعل ، وقطع خمسة وعشرين ميلاً فى (ليبيا) استوقفته دورية بريطانية ، وطلبت منه إبراز هويته .. وعندما قدم للضابط البريطانى أوراقه ، نسى أنها تضم تلك الشيكات السياحية ، التى تحمل اسم (رفعت الجمال) .. وكانت هذه هى النقطة التى دفعت الضابط البريطانى للشك فى أمره .. والخطأ الذى أوقع به فى قبضة الشرطة المصرية ، بعد أن سلمته لهم الدورية البريطانية ..

وعندما استقر به الأمر فى أحد أقسام الشرطة فى الإسكندرية ، حار الجميع فى أمره ، وعجزوا عن تحديد هويته ، خاصة وهو يتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة ، ثم يلقى بعض التعليقات باللهجة المصرية العامية ، مما أوقع فى قلوب الجميع أنه أحد اليهود المصريين ، الذين يسعون للسفر إلى (إسرائيل) من تحت أنف الحكومة المصرية الجديدة ، لذا فقد تم ترحيله إلى (القاهرة) ، نظرًا لأن الاسم المدون فى الشيكات السياحية كان مطلوبًا هنـــاك ، ومسجلاً فى بعض الجنـــح الصغيرة ، وفى (القاهرة) بدأت المرحلة الأكثر خطورة فى حياته .. مرحلة التحول من (رفعت الجمال) إلى (جاك بيتون) ..

ففى (القاهرة) وبعد أن بقى فى الحجـــز عـــدة أيام ، تم اصطحابه إلى أحد المكاتب ، حيث التقى به رجل يرتدى الملابس المدنية ، متين البنيان ، جاد الملامح ، حاد النظرات ، وكانت هذه هى البداية.. ففى الأيام التالية ، راح الرجل ، الذى لم يفصح عن اسمه الحقيقى أبدًا ، يعمل على تدريب (رفعت) على بعض المهارات المختلفة ، وينمى قدراته على انتحـــال شخصية وهوية اليهودى المصرى ، وعلى الاختلاط باليهود ، والتواجد فى مجتمعاتهم ، وعندما سأله (رفعت) عن الغرض من كل هذا ، أخبره أن اليهود يقومون بتهريب ثروات ضخمة خارج

Looloo
www.dvd4arab.com

البلاد ، وبالتحديد إلى (إسرائيل) ، وأنه يرغب فى زرع شخص ما بينهم ، ليكتسب ثقتهم ويكشف حيلهم ، وما داموا تصوروا أنه يهودى فهذا يعنى أنه الشخص المثالى للقيام بهذا الدور ، وأنه مقابل هذا سيمحو سجله القضائى كله ، وسيتم إسقاط كل التهم الموجهة إليه ، كما سيستعيد شيكاته السياحية كلها ..

ولم يتردد (رفعت) طويلاً فى قبول العرض ، فقد كانت هذه أحسن الفرص المتاحة له ، فى هذا الوقت .. وبدأت مرحلة التدريبات المكثفة ، حيث تعلم (رفعت) علم الاقتصاد ، وكيفية التعامل مع الضرائب ، ووسائل تهريب الأموال ، وعادات اليهود وسلوكياتهم ، وكيفية التمييز بينهم ، وتاريخهم ، وديانتهم ، وشعائرهم ، واللغة العبرية ، ثم تدرب على أساليب الشرطة السرية ، وكيفية البقاء على قيد الحياة ، معتمدًا على الظروف الطبيعية المحيطة به ، فى حالة اضطراره للاختفاء لبعض الوقت .

وأخيرًا ، تقمص (رفعت) شخصيته الجديدة (جاك بيتون) ، المولود فى 23 أغسطس ، عام 1919 ، فى مدينة (المنصورة) من أب فرنسى وأم إيطالية ، وتسلم وثائق تحمل اسمه الجديد ، وشهاداته الرسمية المعتمدة .. وسافر (جاك بيتون) الجديد إلى (الإسكندرية) ، وحصل على عمل فى شركة تأمين واستأجر شقة صغيرة ، فى حى يكتظ باليهود ، إلا أنه لم يتعمد الاختلاط

بهم ، وإنما ترك هذا يحدث تدريجيًا وتلقائيًا ، على نحو يوحى بأنه لا يبالى بهذا ، وإنما يجامل كل من يتقرب منه فحسب ..

ولأنه لعب دوره بإتقان شديد ، لم يلبث (جاك بيتون) أن وجد نفسه منغمسًا فى قلب المجتمع اليهودى ، بل وصار عضوًا فى تنظيم سرى يهودى ، يحمل اسم (الوحدة 131) ، مع (مارسيل نينو) و(إيلى كوهين) ، و(ماكس بينيت) ، وغيرهم من رجال عملية تفجير المراكز الأمريكية فى الخمسينيات ..

وهكذا تحول (رفعت الجمال) ، الشهير باليهودى (جاك بيتون) إلى بطل مناضل ، فى نظر الطائفة اليهودية ، التى بدأت تنصحه بالهجرة إلى (إسرائيل) ، ليجد هناك الأمن والأمان ، ولكنه ألقى حديثهم هذا خلف ظهره ، متصورًا أن مهمته تقتصر على التجسس على اليهود داخل (مصر) فحسب .. ولكن رجل المخابرات فاجأه بأن هذه ليست مهمته الأصلية ، وإنما كانت مجرد فترة تدريب وإعداد للهدف الرئيسى .. السفر إلى قلب (إسرائيل) ..

ولا أحد يمكن أن يدعى أن (رفعت الجمال) لم يشعر بالخوف المذعور ، إلا أنه فى النهاية قبل المهمة بكل إرادته .. وكان هذا يعنى مرحلة جديدة فى التدريبات المكثفة .. مرحلة درس

www.dvd4arab.com

فيها تاريخ اليهود الأوروبيين ، والصهيونية العالمية ، ونظم وأساليب الهجرة إلى (إسرائيل) ، والأحزاب السياسية هناك ، واتحاد العمال ، وأهم الشخصيات السياسية والاقتصادية والعسكرية ، والتركيـــب الجغـرافى والاقتصـــادى والطوبوجــرافى ، وحتى الاجتمــاعى فى الأرض المحتلة ، بالإضــافة إلى التصوير بآلات خاصة ، وتحميض الأفلام ، وحل الشفرة والكتابة بالحبر السرى ، وتشغيل أجهزة الاستقبال اللاسلكية ، وتعرف الرتب العسكرية الإسرائيلية ، ونظم أجهزة المخابرات ، وأصبح يستمع يوميًّا إلى الإذاعة الإسرائيلية لعدة ساعات ، لتحسين لغته العبرية ، مع الحفاظ على لكنته المصرية ، ثم تدرب على القتال ، فى حالة ما إذا اضطره الأمر للاشتباك المباشر ، أو التلاحم مع العدو ..

ثم درس أخيرًا كيفية العمل كوكيل سفريات ، نظرًا لخبرته السابقة فى هذا المجال ، ولأن هذه المهنة تتيح له السفر من وإلى (إسرائيل) طـــوال الوقت ، مما يمنحه حرية الحركة المطلوبة ، فى مجال التجسس .

وفى يونيو 1956م ، استقل (رفعت) سفينة متجهة إلى (نابولى) ، وفى جيبه ثلاثمائة جنيه مصرى ، مع هدف واضح محدد.. أن يصل إلى (إسرائيل) ويستقر فيها ، كأى يهودى متحمس للعالم الجديد .. ونظراً لتاريخه الحافل ، واسمه المدون

فى قائمة (الوحدة 131) ، استقبلته الوكالة اليهودية بالترحاب فى (نابولى) ، ومنحته كل التسهيلات للسفر إلى (إسرائيل) ، التى وصل إليها فى أوائل يوليو 1956م ، ودخلا باسم (جاك بيتون) ، المواطن ليهودى المخلص ..

ولم يكن الاستقرار فى وطن جديد بالأمر السهل أو الهين ، بالنسبة لمهاجر جديد .. فما بالك بشخص ينتحل هوية عدو ، ويعلم أن أى خطأ بسيط قد يعنى انكشاف أمره ، وإلقاءه خلف القضبان ، ما لم يتم إعدامه بلا رحمة ؟!.. ولكن (رفعت) بتاريخه الحقيقى ، وكفاح حياته كلها ، استطاع أن يصمد ، وأن يثبت جذوره فى المجتمع الإسرائيلى ، وعمل بهمة ونشاط حقيقيين ، حتى أصبح واحــدًا من رجــال الأعمال المعروفين هناك ، واستطاع أن ينغمس فى المجتمع الراقى ، وأن يصنع لنفسه دائرة من المعارف والأصدقاء ، حوت بعض الأسماء اللامعة فى المجتمع الإسرائيلى ، بمختلف طوائفه .. العسكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ..

ولو حاولنا شرح كل ما قدمه (رفعت الجمال) لوطنه ، من خلال تواجده فى ذلك المجتمع ، وصداقته لكبار مسئوليه ، لاحتاج الأمر لمقالات ومقالات ، ولكن يكفى أن نقول إن حماسه

Loolou
www.dvd4arab.com

وإيمانه بعمله ، قد ساعداه على أن يقدم للوطن معلومات بالغة الأهمية والخطورة ، كان لها كبير الأثر ، عندما اندلعت حرب أكتوبر 1973م ..

وأخيرًا ، وبعد نضال عناء ، قرر (جاك بيتون) الاستقرار ، فتزوج من (فالتراود) ، الألمانية المطلقة ، وتبنى ابنتها (أندريا) رسميًا ، ثم أنجب منها ابنه الوحيد (دانيال) ، وعاش معها حياة هادئة فى (ألمانيا) ، حتى تم عقد معاهدة السلام ، التى سمحت له بإقامة مشروع بترولى ضخم فى (مصر) ، أطلق عليه اسم (إجيبتكو) ، قبل أن يصاب بذلك المرض العضال ، الذى أودى بحياته فى النهاية ..

والقول بأن عملية رفعت الجمال ، الذى اشتهر بين العامة باسم رأفت الهجان ؛ لظروف درامية ، هى من أنجح العمليات المخابراتية فى العالم ليس اعتباطيًا ، إذا ما قارناها بعملية إسرائيلية ، تمت فى توقيت مقارب ، ولم يحظ صاحبها بالموت فى فراش المرض ، كما حدث فى عملية رفعت ، وأقصد بهذا عملية إيلى كوهين ، التى ، وعلى الرغم من نهايتها ، ما زال الإسرائيليون يعتبرونها واحدة ، من أقوى عملياتهم ..

(إيلى أمين شاءول كوهين) .. اسم يستحيل أن يجهله أى

رجل مخابرات عربى أو إسرائيلى ، فى هذه الأيام ، وخاصة بعد أن صدرت عنه عشرات الكتب والروايات ، معظمها إسرائيلى ، تحيطه بإطار من القوة والبطولة ، وتنسج حوله عشرات القصص الأسطورية ، التى تجعله بمثابة نجم ، فى هذا العالم السرى ، أو هكذا حاول الإسرائيليون أن يظهروه ، دون أن يشيروا إلى ما أصاب هذا النجم .. إلى سقوطه المروّع ..

وبدايات (إيلى) بسيطة وعادية للغاية ، فقد كان والده (حوفى كوهين) تاجرًا سوريًا متواضعًا ، هاجر مع أسرته إلى (مصر) ، واستقر بهم المقام فى (الإسكندرية). وهناك ولد (إيلى) فى 16 ديسمبر 1924م ، وهناك أيضًا التحق بمدرسة (الليسية) الفرنسية .. وهناك أيضًا التقى بـ (بولندى جابى) ، التى كانت بداية الخيط ..

و(بولندى) هذه كانت إحدى سيدات الأسر اليهودية الثرية ، وعضوًا نشيطًا فى الوقت ذاته ، فى جهاز (هاموساد اليابيت) .. أو (الموساد) ، الذى قرر إنشاء فرع له فى (مصر) ، عن طريق حركة الشباب اليهودية المصرية ، المعروفة باسم (هاشيروت) ، فأرسل أحد رجاله (ليفى إفراهام) ، التى رشحت له عددًا من الشباب اليهودى ، وعلى رأسهم (إيلى) ..

www.dvd4arab.com

وعمل (إيلى كوهين) لحساب (الموساد) ، قبل أن يحصل على شهادة (البكالوريا) ، أو الثانوية العامة فى ذلك الوقت ، وأبدى نشاطًا ملحوظًا فى تسهيل خروج اليهود المصريين إلى (فلسطين) ، وفى الاتصـــال بالسفارات والقنصليات ، وأجاد الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، والتحق بكلية الهندسة بجامعة (فؤاد الأول) ــ (القاهرة) حاليًا ــ وحصل على شهادته ، على الرغم من هجرة أسرته كلها إلى (إسرائيل) .. عام 1950م ..

وفى عام 1953م ، أرسلت المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان) ، أحد رجالها إلى (مصر) ، وهو (إبراهام دار) ، الذى وصل بجواز سفر بريطانى ، يحمل اسم (جون دارلنج) ، سعيًا وراء تكوين خليتين صهيونيتين ، فى (القاهرة) و(الإسكندرية) ، وأرسل خمسة من أعضاء الخليتين إلى (تل أبيب) ، عن طريق (باريس) ، لتلقى تدريبات حول تفجير القنابل الزمنية ، ثم أعيد هؤلاء الخمسة إلى (مصر) ، حاملين مخططًا تخريبيًا خاصًا ... ومن بين هؤلاء الخمسة كان (إيلى كوهين) ..

وفى خلال عملية عرفـت باســم (عملية سوزانا) ، أصدر (جون دارلنج) أوامره للخليتين ، بنسف وتخريب عدد من المنشآت البريطانية والأمريكية ، بهدف إفساد اتفاقية الجلاء ، التى تم توقيعها بين الجانبين المصــرى والبريطــانى فى هذا

الوقت.. ولكن أحد أفراد الخليتين ارتكب خطأً قاتلاً ، أدى إلى اشتعال النيران فى جيبه ، قبل تفجير هدفه ، مما دفع أحد رجال الشرطة إلى إلقاء القبض عليه ، واصطحابه إلى قسم شرطة محطة الرمل ، حيـث تم استجوابه ، واعترف بالأمر كله ، و... وسقطت الخليتان .. وفى مساء الليلة نفسها ، جرت حملة اعتقالات واسعة ، فى (القاهرة) و(الإسكندرية) ، لكل أفراد الخليتين والعناصر المشتبه فيها ، ومن بين هؤلاء أيضًا كان (إيلى) ..

وعلى الرغم من أن اعترافات أعضاء الخليتين شملت عدداً كبيرًا من شباب اليهود ، إلا أنها لم تتضمن اسم (إيلى كوهين) ، مما أدى إلى الإفراج عنه وإخلاء سبيله ، وإن لم يمنع هذا من فتح ملف خاص له ، فى جهاز المخابرات العامة المصرية الذى كان يخطو خطواته الأولى ، فى هذا العالم السرى الغامض.. وحمل الملف اسم (إيلى حوفى كوهين) ، وكان هـذا يحتم توقف (إيلى) عن النشاط .. ثم حدث العدوانى الثلاث على (مصر) .. وكإجراء وقائى ، تم اعتقال كل أصحاب هذه الملفات ، دون أدلة اتهام ، حتى ديسمبر 1956م .. عندما تقرر إطلاق سراحهم ، وطردهم خارج (مصر) ، لدواعى الأمن .. وفى العشرين من ديسمبر 1956م غادر (إيلى) (مصر) ، على باخرة تابعة للصليب الأحمر ، نقلته إلى (إيطاليا) ، مع عدد كبير من اليهود المصريين ،

Looloo
www.dvd4arab.com

حيث قضى عدة أسابيع فى (جنوة) .. وفى (بات يام) ، جنوب (تل أبيب) ، قضى (إيلى) أيامه الأولى فى (إسرائيل) ، مع والدته وأسرته ، وراح يدرس اللغة العبرية ، ثم لم يلبث أن التحق فى أواخر العام نفسه بعمل فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ، يعتمد على ترجمة كل ما ينشر فى الصحف العربية إلى العبرية ، وإعداد تقارير وتحليلات عنه ، لصالح جهاز المخابرات العسكرية (أمان) .. ولم يلبث أن مل هذا العمل أيضًا ، فتقدم بطلب للنقل إلى جهاز (الموساد) ، إلا أن طلبه هذا قوبل بالرفض ، مما دفعه إلى تقـديم استقالته ، والعمـل فى شركة لتسويق المواد الغذائية ، وأثناء هذا العمل التقى بـ (ناديا) ، الممرضة بمستشفى (هداسا) بالقدس ، وتزوجها بعد فترة تعارف قصيرة ..

ولم يشعر (إيلى) بالارتياح فى عمله الجديد ، ولكنه لم يشك منه هذه المرة ، أو يحاول تركه .

صحيح أنه لم يسـع للاستقالة ، ولكن الأمر جـاء بوسيلة مختلفة هذه المرة ، إذ التقى بصديق قديم ، كان يعمل معه فى (أمان) ، ودار بينهما حديث حول استقالته ، وبعدها انصرف زميله ، بعد أن اتفقا على اللقاء مرة ثانية ..

وفى هذه المرة الثانية ، دعاه صديقه للسير على الشاطئ ،

وهناك سأله فجأة إذا ماكان يرغب فى العمل فى الموساد ثم صارحه بأنه أحد ضباط (الموساد) ، وطلب منه كتمان ما سيسمعه تمامًا ، حتى بالنسبة لأسرته وزوجته ، ثم أبلغه موافقة (الموساد) على عمله فى صفوفهم .. وفى ربيع وصيف 1960م ، اجتاز (إيلى) برنامجه التدريبى ، واستعد لتسلم عمله الجديد ، ومهمته البالغة الأهمية ، فى (سوريا) .. وعلى الرغم من أن المهمة كانت تستهدف (سوريا) ، إلا أنها بدأت فى (بيونس أيرس) ، عاصمة (الأرجنتين) ، التى وصل إليها (إيلى) فى 21 مارس 1961م ، قادماً من (زيورخ) ، وحاملاً اسم (كامل أمين ثابت) ، الذى يشير جواز سفره إلى جنسيته السورية ..

وفور وصوله ، نشط (إيلى) فى التعرف على مجتمع المغتربين فى (بيونس أيرس) ، وراح يوطد صداقاتهم معهم ، حاملاً قصة تم إعدادها بدقة ، تقول : إنه سورى من أصل لبنانى ، هاجر مع عائلته إلى (الإسكندرية) ، ثم سافر عمه إلى (الأرجنتين) عام 1946م ، ولحق هو به مع عائلته عام 1947م ، ثم توفى والده هناك بسكتة قلبية ، عام 1952م ، وبعده بستة أشهر رحلت والدته ، وبقى هو وحده هناك ، يعمل بتجارة الأقمشة ، ثم سافر إلى (أوروبا) عدة سنوات ، وعاد الآن ثريًا ..

www.dvd4arab.com

ولم تمض عدة أسابيع ، حتى أصبح (كامل أمين ثابت) رجلاً معروفًا ، فى أوساط المهاجرين ، الذين بلغ عددهم فى تلك الفترة نصف المليون مهاجر عربى ، وتوطدت صلاته برئيس تحرير مجلة (العالم العربى) التى تصدر هناك (عبد اللطيف الخشان) ، الذى قدمه بسلامة نية إلى أصدقائه ومعارفه ، من رجال السفارات العربية فى (الأرجنتين) ، وبسرعة أصبح (إيلى) ضيفًا دائمًا فى معظم حفلات السفارات ..

والعجيب أن أحد ضباط المخابرات السورية قد شك فى الرجل ، وأرسل إلى (المكتب الثانى) فى (سوريا) ، يطلب التحرى عنه ، ولكن الإسرائيليين كانوا قد اختاروا قصة حقيقية ، لأسرة مهاجرة ، تحمل اسم (ثابت) ، مما جعل المخابرات السورية تؤيد قصة (إيلى) ، دون أن تهتم بتمحيصها وبحثها جيدًا ، نظراً لأن الشكوك حوله لم تكن بالقدر الذى يكفى لهذا.. وبعد عدة أشهر ، وبالتحديد فى أغسطس 1961م ، أعلن (كامل أمين ثابت) عن رغبته فى العودة إلى الوطن (سوريا) ، وتقدم بطلب للحصول على تأشيرة الدخول ..

وفى (دمشق) ، قضى (إيلى) شهرًا كاملاً ، دون أن يزاول نشاطه ، حتى لا يثير الشبهات من حوله فى 28 سبتمبر 1961م ، ثم بدأ فى تأسيس شركة للاستيراد والتصدير ، تخصصت فى تصدير

الأثاث العربى والمشغولات الخشبية إلى (أوروبا) ، وراح يستفيد من شركته استفادة مزدوجة ، إذ كانت الأحاديث التى يتبادلها مع الآخرين ، بحكم العمل ، تنقل إليه قدرًا وافرًا من المعلومات ، عن أحوال السوق الاقتصادية ، والتى كان يرسلها فور عودته إلى منزله ، إلى (الموساد) مباشرة ، عن طريق جهاز إرسال صغير جدًا ، أما ما يلتقطه من صور ووثائق فكان يرسلها داخل تجاويف خاصة ، فى قطع الأثاث والمشغولات اليدوية ، التى يتم تصديرها إلى (أوروبا) ، حيث يلتقطها واحد من ضباط (الموساد) فى (سويسرا) .. أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان التطور أكثر سرعة ، وأكثر خطورة ..

لقد نجح (إيلى) فى عقد صداقات عديدة ، مع العسكريين والإعلاميين السوريين ، واستأجر منزلاً فى مواجهة مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة السورية ، حيث راح يراقب ما يحدث من تطورات هناك ، مما ساعده على إرسال معلومات بالغة الأهمية والفائدة إلى الإسرائيليين ، الذين اعتبروه عميلاً ممتازًا .. ثم وقع (كامل ثابت) على أهم صيد منذ بدء عمله.. لقد أقام صداقة مع ضابط شاب ، هو فى الوقت ذاته ابن شقيق رئيس هيئة الأركان للقوات المسلحة ، ونجح فى استدراجه للحصول على معلومات بالغة الخطورة ، بحجة الاطمئنان على سلامة الوطن وأمنه ، بل

www.dvd4arab.com

واصطحبه الضابط إلى الخطوط الأمامية ، حيث شاهد بنفسه تسليح وتحصينات الوحـدات السورية ، وتمـادى فى المرة التالية ، فحمل معه آلة تصوير ، والتقط عدة صور للمستعمرات الإسرائيلية ، الواقعة عند سفوح المرتفعات السورية ، وأرسلها إلى (تل أبيب) ، التى حددت منها مواقع المرتفعات السورية ..

وكعضو فى حـزب البعـث ، وطـد (إيلى) علاقاته بقيادات الحزب ، ووزير الإعلام (سامى الجندى) ، وصار واحدًا من الكوادر الحزبية التى يشار إليها بالبنان ، وضيفاً شبه دائم ، فى حفلات الاستقبال ، التى تقيمها رئاسة الجمهورية السورية ، وخاصة بعد اقتراحه بعمل زيارة حزبية إلى (الأرجنتين) ، جمع خلالها تسـعة آلاف دولار ، كتبرعـات لحـزب البعث ، من المهاجرين السوريين هناك ، أضاف إليها ألف دولار من حسابه .

ولمع اسم (كامل أمين ثابت) ، وساعده هذا على تكوين صادقات أكثر قوة وخطـورة ، ومنحه حرية حركة أكثر ، خاصة بعد ترشيحه أو ترديد اسمه مرشح لمنصب نائب وزير الإعلام ، أو نائب وزير الدفاع ، حتى إنه استطاع التقاط عدة صور عن قرب ، للمقاتلة الاعتراضية (ميج ـــ 21) ، التى كانت أقوى مقاتلة اعتراضية فى ذلك الحين .

ومع ارتفاع أسهمه ، أصبح (إيلى) أحد أعضاء الوفد السورى المرافق للفريق الأول (على عامر) ، القائد العام للقيادة العربية الموحدة ، عندما زار الجمهورية العربية السورية ، على رأس وفد عسكرى كبير ، فى ديسمبر 1964م ، لإجراء مباحثات مع القادة العسكريين هناك .. وكان (كامل أمين ثابت) هو تقريبًا المدني الوحيـد ، الذى يرافـق العسكريين رسميًا ، فى تلك الجولة ، باستثناء المصورين والصحفيين .. وكان هذا هو الخطأ ، الذى بدأ مرحلة النهاية ..

فى أوائل يناير عام 1965م ، كان أحـد ضـباط المخابرات المصرية يطالع بعض الصحف العربية ، عندما لفتت انتباهه صورة اللواء (على عامر) ، أثناء زيارته لسوريا ، وحوله أعضاء الوفد السورى ، المرافق له ، وتركز بصره على شخص وسطهم بالتحديد وعقد حاجبيه فى شدة ، وهو يعتصر ذهنه ، فى محاولة لمعرفة متى رأى صاحب هذا الوجه بالتحديد ..

وعندما تذكّره أصابه الهلع ، فاختطف الصحيفة ، واندفع نحو مكتب (صلاح نصر) ، مدير المخابرات العامة المصرية فى ذلك الحين ، ووضع الصحيفة أمامه ، ليخبره أن هذا الرجل ، الذى يرافق الوفد العسكرى ليس سوريًا .. إنه يهودى يدعى (إيلى حوفى كوهين) ، ولقد انزعج صلاح نصر فى شدة ، خاصة أن

ذلك الضابط كان زميلاً للجاسوس ، فى مدرسة (الليسية) الفرنسية ، وحصلا معًا على البكالوريا عام 1946م .. وأن له ملفًا كاملاً فى المخابرات ، منذ عملية التفجيرات ، وهنا طلب (صلاح نصر) الملف ، وطالعه ثم حمله على الفور ، إلى الرئيس (جمال عبد الناصر) ..

ظل الرئيس (جمال) يقرأ الملف لأكثر من خمس وأربعين دقيقة ، ثم رفع سمّاعة هاتفه ، وطلب من سكرتاريته الاتصال بالرئيس السورى اللواء (أمين حافظ) على الفور ، وما أن تم الاتصال حتى تبادل الرئيس (جمال) مع الرئيس السورى بعض عبارات المجاملة ، ثم أخبره بأنه سيرسل إليه مبعوثًا خاصًا فى اليوم التالى ، يحمل رسالة بالغة الأهمية والخطورة ..

وكان هذا المبعوث هو (صلاح نصر) نفسه ، الذى سافر فى الصباح التالى إلى (دمشق) ، والتقى بالرئيس السورى ، وقدم إليه الملف.. وكما جدث للرئيس (جمال عبد الناصر) ، أصيب الرئيس السورى بدهشة عارمة ، وهو يتصفح الملف ، ثم لم يلبث أن طلب حضور رئيس المخابرات السورية (المكتب الثانى) ، الذى وصل بعد قليل ، وطالع الملف بدوره ، وأصابه الذهول نفسه ..

ففى تلك الفترة ، كان موظفو اللاسلكى فى السفارة الهندية يشكون من حدوث شوشرة على بعض رسائلهم ، المرسلة إلى (نيودلهى) ، وكان رجال الأمن السوريون يشكون فى وجود جاسوس يرسل إشارات لاسلكية فى المنطقة ، ولكنهم يعجزون عن تحديد موقعه ، نظرًا لاتساع دائرة البحث ، وصعوبة تتبع الإشارات اللاسلكية فى ذلك الحين .. ومع المعلومات التى أحضرها (صلاح نصر) ، أصبح الأمر واضحًا ، ومحسومًا ..

وبعد ساعات من هذا اللقاء ، كان (إيلى) يستعد لإرسال واحدة من رسائله اللاسلكية إلى (تل أبيب) ، فى ليلة من ليالى يناير الباردة ، عندما فوجئ بعدد من الرجال يقتحمون منزله ، ويصوبون إليه مسدساتهم ، ويأمرونه بعدم الحركة ، وعندما ثار عليهم ، رأى أمامه المقدم (أحمد سويدانى) ، رئيس قسم مكافحة التجسس بالمخابرات السورية ، وهو يخاطبه باسمه الحقيقى ..

وعندئذ أدرك (إيلى كوهين) أنه قد سقط .. وجن جنون الإسرائيليين ، عندما علموا بسقوط (إيلى) ، وحاولوا المستحيل لإنقاذه ، وعرضوا مبادلته بدستة من المتهمين بالتجسس لصالح (سوريا) ، ودفع مليون دولار لإطلاق سراحه ، ولكن (سوريا) رفضت هذا بإصرار .

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى الثامن عشر مــن مايــو ، 1965م ، اقتيد (إيلى حوفى كوهين) إلى حبل المشنقة ، الذى أحاط بعنقه ، ثم دفع الجلاد ذراعًا معدنية ، وسقط جسده فى الفراغ ، معلنًا سقوط جاسوس ، وخسارة المخابرات الإسرائيلية للجولة ..

وحتى عنــدما خسرنا حرب 1967م ، كانت المخابرات تلعب دورها كمــا ينبغى ، وأمكنهــا جلب كل المعلومات المطلوبة ، وبناءً عليهــا ، اجتمع عبد الناصر بالقادة ، وحذّرهم من هجوم إسرائيلى ، ولسبب ما ، لم يتحرك أحد ، كما جاء فى مذكرات الفريق الجمسى ... وخسرنا الحرب ..

وفى فترة إعادة تكوين الجيش ، والاستعداد لمعركة استعادة الأرض المحتلة ، لم تتوقّف عمليات المخابرات ولم تتوقّف حربها ، ولعل أحد أشهر ما فعلتــه حماية الجبهــة الداخلية ، وتطهيرها من عدد من أخطر الجواسيس ، مثل بهجت حمدان ، الذى خرج من مصر بحثًا عن الرزق ، وعاد إليها بحثًا عن الخيانة ... وعلى الرغم من الحرص والحذر الشديدين ، اللذين تميز بهما ذلك الجاسوس ، وعلى الرغم من أنه ظل حريصًا أشد الحرص على ألا يلفت إليه الانتباه أو يحيط نفسه بالشكوك إلا أن رجال المخابرات المصرية كشفوا أمره بسرعة كبيرة ..

ففى تلك الفترة ، فى بداية الستينيات كان الإسرائيليون يتبعون تكنيكًا جديدًا فى تعاملهم مع فئــة خاصــة مــن الجواسيس فلا يستخدمون أية وسيلة من وسائل نقل المعلومات لا أجهزة لاسلكية ، أو كتب شفرة أو رسائل .. أو حتى أحبار سرية .. كان على العميل أن يكتفى باختزان المعلومات وحفظها عن ظهر قلب ثم يسافر بها إلى الخارج ويفرغها دفعة واحدة على شرائط تسجيل أو أوراق ومستندات مكتوبة .. وكان على المخابرات العامة أن تتصدى لهذه الوسيلة بأسلوب مبتكر أو جديد .. وبعد دراسة متأنية ، اتفــق رأى الرجــال على استخدام وسيلة أكثر تعقيدًا وأكثر تكلفة ولكنها ذات نتائج مضمونة إلى حد كبير فقرروا القيام بمراقبة كل الأوكار ، التى تستخدمها المخابرات الإسرائيلية والمنتشرة فى أقطار الأرض فى شقة ذات غرفتين فى (أمستردام) إلى غرفة عادية الأثاث فوق بار صغير فى ميدان (رودلف) فى (ألمانيا الغربية) إلى منزل سرى ذى بوابة حديدية فى (دسلدورف) إلى قاعة الاستقبال فى فندق (ستار) فى (باريس) .. وكانت هــذه العملية شاقة للغاية ، ولكن النتائج التى أسفرت عنها وأثمرتها كانت رائعة ومدهشة إلى حد جعلها تساوى الجهد والمشقة والتكلفة ومن ضمن هذه الثمرات كانت قضية (بهجت حمدان)

Looloo
www.dvd4arab.com

و(بهجت حمدان) ابن لأسرة بسـيطة ، اعتصرت حياتها لترسله إلى (ألمانيا الغربية) عام 1955م ، على أمل أن تظفر فى النهاية بابن ناجح مرموق ولكن (بهجت) خذل هذه الأسرة وانساق لتيار الفتنة والفساد فى (ألمانيا) وتصادق مع عدد من الشباب المنحرف ، غرق معهم فى الملذات المحرمة ، وأهمل دراسته تمامًا ، حتى إنه فشل فى الحصول على مؤهله طوال سنوات الدراسة وحتى عام 1958م .. ولكن (بهجت) لم يستسلم لهذا .. لقد تزوج فى تلك الأثناء ــ فتاة تدعى (أنجريد شوالم) عاونته على الحصول على شهادة غير حقيقية ، تثبت حصوله على نوع من الدبلومات الفنية الهندسية هناك ، فاصطحب زوجته وشهادته ، وعاد بهما إلى (القاهرة) والتحق بعمل جيد فى الهيئة العامة لمشروع الخمس سنوات وكانت تلك وظيفة مرموقة فى تلك الفترة ..

لقد ظل طوال فترة عمله مثالاً للموظف الفاسـد المرتشى المستهتر ، حتى بلغ به الفساد حد بيع بعض أسرار المشروع لعدد من الشركات الألمانية نظير مبلغ ليس بالكبير وانكشف أمر هذه الصفقة القذرة ، ففصل من عمله على الفور ..

وفى عام 1962م ، رحل (بهجت) وزوجته عن البلاد واتجها إلى (لبنان) ومنها إلى (باريس) حيث أقاما فى فندق ستار

أحد أوكار المخابرات الإسرائيلية فى (أوروبا) وهناك استشف موظف الاستقبال أنه صيد سهل فألقى شباكه حوله وراح يتقرب إليه ، ويشمله برعايته ، ويصطحبه معه إلى الحفلات الماجنة وأماكن اللهو ، حتى توطدت أواصر الصداقة بينهما ، وبدأ الموظف يستعد لتجنيده ..

وفى تلك الأثناء ، كان رجال المخابرات المصرية ينفذون خطة أطلقوا عليها اسم عين الصقر ويراقبون كل أوكار المخابرات الإسرائيلية ، وما إن لاحظوا تلك الرابطة التى جمعت بين (بهجت) وموظف الاستقبال الذى يعمل لحساب الإسرائيليين ، والمولود فى (بورسـعيد) حتى وضـعوا الأول تحت المراقبة فورًا وبدءوا فى دراسة كل حركاته وسكناته بمنتهى الدقة ..

وذات ليلة ، وبعد سهرة ملتهبة ، صارح (بهجت) صديقه بأنه ، عنـد مغـادرته (القاهرة) حصل على بعض الوثائق والمستندات الخاصة بمشروع السنوات الخمس ، وأنه يدرك فائدتها الاقتصادية ، ويرغب فى بيعها لمن يدفع ثمنًا أكبر .. وكان هذا أفضل ما يمكن أن يتوقعه موظف الاستقبال الذى قدم (بهجت) لرجل آخر ، يدعى (جورج سيمون) وأخبره أن هذا الأخير رجل أعمال وأنه يهتم كثيرًا بالوثائق التى فى حوزته .. وفى لقائهما الأول ، وافق (سيمون) على شراء الوثائق بعشرة آلاف فرنك دفعها عـدًا ونقدًا ، فسلم (بهجت) الوثائق وتأكد

www.dvd4arab.com

(سيمون) من أهميتها قبل أن يبدأ فى اختبار بهجت نفسه ، حتى أدرك أنه مستعد للتعامل مع الشيطان نفسه لو أن هذا يفيده ، فصارحه أنه سيعمل مع المخابرات الإسرائيلية .. كان الحوار يبدو مباشرًا وصريحًا ، على نحو يتنافى مع الأساليب التقليدية ، المتبعة فى عالم المخابرات ولكن الواقع أنه لم يكن عشوائيًا ، فقد درس الإسرائيليون (بهجت) جيدًا لفترة طويلة ، وتأكدوا من أنه مستعد لعمل أى شىء فى الدنيا مقابل المال قبل أن يواجهوه على هذا النحو المباشر ..

ولقد بدءوا فى التعامل معه على الفور ، فنقلوه من (باريس) إلى (فرانكفورت) فى (ألمانيا الغربية) وقدموه إلى أحد عملائهم ويدعى (بوتا) وهو من أكبر تجار البورصة فى مدينة (بريمن) لتدريبه على العمل فى مجال الاقتصاد ودراسة الأسواق .. واستمرت عملية التدريب هذه عامين كاملين تأكد (بوتا) بعدهما من نجاح تلميذه فعاونه على الحصول على الجنسية الألمانية التى أسقطت عنه الجنسية المصرية طبقًا لقوانين تلك الفترة فى أوائل عام 1967م ..

وبدأ (بهجت) فى إجراء اتصالاته مع مؤسسة البترول فى (مصر) لشراء بعض المنتجات البترولية ، وحضر إلى (القاهرة) بالفعل مع عدد من رجال صناعة البترول الألمان

وحاولوا عقد عدة صفقات ولكن محاولاتهم فشلت تمامًا لأن الأسعار التى قدموها كانت تقل كثيرًا عن الأسعار العالمية فعادوا إلى (ألمانيا) بخيبة أمل .. ولكن (بوتا) كان يعد للرجل فكرة جديدة .. لماذا لا يقتحم عالم تجارة السلاح ويحاول توريد بعض صفقات الأسلحة إلى الدول العربية و(القاهرة) ؟...

وراقت الفكرة لـ (بهجت) ، فسافر مرة أخرى إلى (القاهرة) وحاول أن يعرض خدماته على بعض المسئولين والمختصين لتوريد المعدات العسكرية والمهمات .. كل هذا دون أن يدرك أو يشك هو وجهاز المخابرات الإسرائيلى كله فى أن المخابرات المصرية تتابع كل هذا خطوة بخطوة وأنها تفرش أمامه طريق السقوط حتى يمكنها اقتناصه فى اللحظة المناسبة ..

وبناءً على توجيهات جهاز المخابرات العامة تظاهر المسئولون والمختصون بموافقتهم على إتمام مثل هذه الصفقات العسكرية مما رفع معنويات (بهجت) ومنحه شعورًا بالثقة جعله يعود إلى (بوتا) فى (ألمانيا) ويلقى على مسامعه كل ما لديه فعرفه (بوتا) على اثنين آخرين ، وكوّن الثلاثة معًا شركة للتعامل مع الشرق الأوسط فى مجال الأعمال الإنشائية تحت اسم (شركة نورد) وراحوا يحلمون بالفوز والربح والثروة ..

www.dvd4arab.com

وفى أواخر عام 1968م سافر (بهجت) مرة أخرى إلى (القاهرة) بصحبة شريكيه (ألبرت فايزر) و(وولف درابو) لدراسة العروض مع المختصين والمسئولين الذين واصلوا مجاراتهم للموقف وأبدوا استعدادهم للمضى فى العملية وطلبوا من (بهجت) وشريكيه إيداع مبلغ من المال كتأمين وضمان لجدية الصفقة.. وعاد الثلاثة إلى (ألمانيا) وقلوبهم تكاد تطير من صدورهم من فرط شعورهم بالظفر والزهو والنجاح وفى منزل (بهجت) فى (بريمن) جاء رجل المخابرات الإسرائيلى (سيمون) خصـيصًا من (تل أبيب) ؛ ليخبـره أنه سيحصل على مكافأة مجزية ، وهذا بالإضافة إلى الأرباح الباهظة التى ستحققهـا العمليـة وستقدم له المخـابرات الإسرائيلية كافة المساعدات والإمكانيات لإنجاح هذه الصفقات ولكنها تريده أن تبذل قصارى جهـده فى (مصر) لجمع أكبر قدر من المعلومات عن القوات المسلحة والاستحكامات العسكرية كما تريده أن يدرس كـل المحيطين به مـن معارف وأصدقاء من المدنيين والعسكريين ويرسل إليهم أسماء من يرى أنه يصلح للتجنيد منهم للعمل لحسابهم .. ولم يدخر (بهجت) وسعًا فى سبيل تنفيذ ما طلبته منه المخابرات الإسرائيلية فسافر مع شريكيه مرة أخرى إلى (مصر) وهناك سدد مبلغ ربع مليون مارك ألمانى

كتأمين ثم اتصل بزوج شقيقته وهـو أحـد العاملين بشركة (المقاولون العرب) فى منطقة القناة وأبلغه أنه فى سبيل القيام بمشروع هندسى ضخم لحساب الحكومة المصرية بالتعاون مع شركة ألمانية غربية وعرض عليه الالتحاق بالعمل معهم فور بدء المشروع ولوّح له بمرتب يسيل له اللعاب ويتجاوز ثلاثة أضعاف راتبه الحالى .

وسقط الرجل فى الفخ ، وقدمه (بهجت) لشريكيه (فايزر) و(درابو) اللذين كررا العرض وأسقطا الرجل فى الفخ أكثر وأكثر .. وتكررت لقاءات زوج الشقيقة بـ(بهجت) وشريكيه وفى كل مرة كان الحوار يتجه إلى الاستعدادات العسكرية التى تقوم بها مصر بعد نكسة يونيو 1967م والإنشاءات التى تقوم بها لهذا الغرض .. ودائماً كان زوج الشقيقة يتحدَّث أكثر ويشعر بالزهو وهو يستعرض ما لديه من معلومات حول الإنشاءات العسكرية ومواقعها وأنماطها..

كل هذا دون أن تتدخل المخابرات المصرية مرة واحدة .. ولكن عيون الصقور لم تنم قط .

لقد ظلَّت تراقب وترصد كل التحرُّكات والحوارات والمناقشات حتى كان اليوم الذى شعرت فيـه أن العملية تطورت كثيرًا حان

Looloo
www.dvd4arab.com

الوقت لإنهائها ؛ لأن (بهجت حمدان) طلب من زوج شقيقته بعض الرسومات الهندسـية الخاصـة بالإنشـاءات العسكرية والاستعدادات السرية وهى تعتبر من أدق الأسرار العسكرية ولقد سلم الرجل الرسومات المطلوبة وسيسافر بها مع شريكين إلى (ألمانيا) غداً فى الثامنة والنصف مساءً ..

وفى الساعة الثامنة من مساء يوم الاثنين 1969/6/2م ، كانت لحظة السقوط ..

وفى مبنى استجوابات المخابرات بدا (بهجت) ذاهلاً شاحبًا وهو يسأل بحروف مرتجفة كيف كشفوا أمره ، ففاجأه رجال المخابرات المصرية بملف ضخم يحمل اسمه على غلافه مع عدد هائل من الصور والتسجيلات التى تحمل وجهه وصوته منذ لقاءاته وسهراته مع موظف استقبال فندق ستار فى (باريس) وحتى تلك اللحظة التى تسلم فيها الرسومات الهندسية للمنشآت العسكرية من زوج شقيقته .. وأمام هذا السيل الجارف من الأدلة والبراهين انهـار (بهجت حمـدان) تمامًا وراح يبكى ويتوسل ويطلب العطف والعفو وكانت أعصابه متوترة تمامًا حتى إنه كرر كتـابة اعترافه ثلاث مرات ووقعه مرتين لأن أصابعه ترتجف فى كل مرة ..

وأثناء محاكمته لم يجد محاميًا ما يدافع عنه سوى أنه يحمل الجنسية الألمانية وأن ما فعله يعتبر تجسسًا وليس خيانة .. ولكن هذا لم يفد (بهجت) كثيرًا .. ففى الثامن والعشرين من فبراير عام 1971م التف حبل المشنقة حول عنق (بهجت حمـدان) ، وانتهى أمره وأمر خيانته ..

و(بهجت حمدان) لم يكن أشهر جاسوس سقط فى قبضة المخابرات المصرية ، فهناك الأشهر ، وربما دراميًّا أيضًا ، وهى (هبة سليم) ، التى عرفها العامة باسم (عبلة كامل) ...

ولا أحد مـن خريجى كلية الآداب ، فى تلك الفترة من أواخر الستينيات ، يمكنه أن ينسى (هبة سليم) ، تلك الفاتنة ، ذات الشخصية القوية ، والطبيعة الصريحة المهاجمة .. كانت دائمًا من المتفوقات فى دراستها ، وبالذات فى دروس اللغة الفرنسية ، حتى إنها صارت صديقة شخصية للبروفيسير (جـان بـول) ، أستاذ الفرنسية الشاب الوسيم ، الذى يتقن العربية ، ويتعامل مع طلاب الكلية بروح تختلف عما يتعامل بها معهم أساتذتهم الآخرون .. وكانت (هبة) تحتاج بالفعل إلى صديق ، فهى تحيا وسط أسرة عجيبة ، تزخر بالمتناقضات ، فأبوها لا يبارح سجادة الصلاة إلا نادرًا ، وهو يسجد لله ـ سبحانه وتعـالى ـ أو يقرأ القرآن فى خشوع ، فى حين لا تفارق أوراق اللعب يد أمها قط . فهى إما أن تمارس اللعب مع صديقاتها ، أو تفتح الأوراق لرصد

Looloo www.dyd4arab.com

الحظ ، ومحاولة كشف المستقبل ، الذى لا يعلمه إلا الخالق عز وجل .. وبسبب هذا التناقض العجيب ، لم يكن البيت يخلو قط من الصراعات والمشاحنات والشجار ، الذى قد يصل فى بعض الأحيان إلى التشابك بالأيدى ، بين الأم والأب و(هبة) تتجاهل كل هذا ، وتسرح مع أحلامها الخاصة .. أحلام الثراء والشهرة والطمــوح ، والتى عبرت عنها لصديقاتها ، بأن النقود هى كل شىء فى الحياة.. هى القوة ، والجاه.. وعلى نحو أكثر صراحة .. هى الوطن الوحيد ، الذى تنتمى إليه .. ولم تكن مبالغة فى قولها هذا ، فهى لم تنتم أو تعبد شيئًا سوى المال ، فى حياتها كلها.. ربما لأن والدها كان مدرسًا بسيطًا ، لا يزيد دخله عن حفنة من الجنيهات ، فى زمن لم تكن الدروس الخاصة قد عرفت فيه بعد ، وكان دخله المنخفض هذا هو السبب الأعظم للخلافات المستمرة بين أمها وأبيها ، والمشاحنات التى لا تنتهى فى المنزل ..

وذات يوم ، تلقت (هبة) دعوة لحفل زفاف إحدى زميلاتها ، فأعربت فى سخرية ، وهى تتحدث مع (جان بول) الشخص الوحيد ، الذى اعتادت مصارحته بهمومهـــا ، عن أنها لا تملك ثوبًا يصلح للحفل ، فأهداها (جان) ثوبًا للحفل .. ومن منتجات (بيير كاردان) ، واعترضت (هبة) على قبول الهدية وشكرته بالفرنسية ، التى أصبحت تجيدهـــا تمامًا ، ولكنها لم تكد ترى الثوب ، حتى انهارت مقاومتها تمامًا ، وقبلت الهدية بلا نقاش .. وكانت هــذه هى البداية ، فالبروفيسير (جـــان بول) الشاب

الفرنسى الوسيم ، صاحب الابتسامة الساحرة ، جلس إلى مكتبه فى تلك الليلة بالذات ، وراح يكتب تقريرًا مفصلاً عن (هبة سليم) ، أعلن فى نهايته ترشيحه لها ، للعمل فى نفس الجهاز الذى يعمل هو لحسابه .. (الموساد) .

وفى الوقت الذى اجتمع فيه فريق من رجال (الموساد) لدراسة التقرير الذى أرسله عميلهم (جان بول) ، كانت (هبة سليم) تخطو داخل الحفل فى (القاهرة) فتتسع لمرآها العيون ، وتخفق لفتنتها القلوب.. وأحد هذه القلوب ، كان قلب (فاروق الفقى) .. كان أحد أقارب العروس ، وهوى قلبه مع ظهور (هبة) ، وراح يخفق فى قوة ويرفرف ، فطلب من قريبته ، أن تقدّمه إلى تلك الفتاة ، التى وصفها بأنها ساحرة .. وتم التعارف بين (هبة) و(فاروق) ، واشتعل الحب فى تلك الليلة ، ولكن.. من جانب واحد .. هو غرق فى حبها حتى النخاع ، فى حين لم تمنحه هى سوى نظرة مدروسة ، وضحكة عابثة ووعود غير منطوقة ، وعندما غادرت الحفل ، كانت موقنة من أن قلب (فاروق) قد أصبح خاتمًا فى أصبعها بالفعل ، وأنه مستعد لأن يفعل أى شىء من أجلها ..

وعلى الرغم من أنها لم تحمل له شيئًا من الحب ، إلا أنها ظلت تلاعبه كالقط والفأر ، طوال أسبوع كامل ، فلا هى تمنحه شيئًا ، ولا هى تقطع علاقتها به ، بل تقترب وتتباعد ، وتمنح

وتمنع ، على نحو زاد حبه اشتعالاً ، فى حين لم يمثل لها سوى لعبة شيطانية طريفة ، ترضى طموحها وغرورها وأنوثتها .

وفى نهاية الأسبوع ، ألقى (جان بول) قنبلته ، وأخبرها أنها حصلت لك على تذكرة سفر إلى (باريس) ، وإقامة مجانية لمدة أسبوعين ، لدراسة الفرنسية فى (السوربون) .. وكادت (هبة) تجن من الفرحة ، فها هى ذى ستسافر إلى (أوروبا) ، التى تحلم برؤيتها منذ زمن طويل ، وتتمنى لو قضت عمرها كله فيها .. وسافرت (هبة) وانبهرت بكل ما تراه فى (أوروبا) ، من نظافة ونظام وحسن معاملة ، ورقص قلبها طربًا ، عندما حصلت هناك على منحة مقدارها عامان كاملان ، لدراسة اللغة الفرنسية فى (السوربون) ..

وكان هذا أكبر مما تحلم به (هبة) حتى إنها فقدت توازنها تمامًا ، وكادت ترقص فى شوارع (باريس) ، التى راحت تسير فيها بخطوات سريعة ، وتنتقل من الشارع إلى مترو الأنفاق ، لتقطع به المدينة كلها مرات ومرات .. وفى المترو ، كان اللقاء مع (إيزاك) ، الذى قدم نفسه إليها باسمه الحقيقى ، وقال : إنه صحفى ، يعمـــل فى منظمـــة خاصـــة لحفظ السلام العالمى ، واستغرق طويلاً فى حديث حماسى حول متعة العمل بالصحافة وصعوبته. والعائد المرتفع الذى يدره ، وهى تستمع إليه فى انبهار ، وعقلها يخزن كل ما تسمعه منه ، ويستوعبه جيدًا..

وتوطدت أواصر الصـــداقة بين (هبـــة) و(إيزاك) فى قلب (باريس) ، حتى سافرت فى نهاية الأسبوعين ، وعادت إلى (مصر) لتتم إجـــراءات المنحـــة ، التى ستعود بهـــا إلى (باريس) ، مدينة الأمن والنور والجمال ..

وفى (مصر) استقبلها (فاروق) بلهفة شديدة ، وقضت معه أسبوعًا ، عاش فيه أجمل وأسعد أيامه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد عادت فجأة إلى (باريس) ، دون حتى أن تودعه ، أو تبلغه بموعد الرحيل .. وكانت صدمة عنيفة للرجل ، الذى راح يبكى حبه فى مرارة ، وشوقه ولهفته إليها يتزايدان ، فى حين كانت هى تتنزه مع (إيزاك) فى (باريس) وهذا الأخير يبحث عن وسيلة لمصارحتها بالأمر ، فإذا بها تواجهه مباشرة بأنها تعلم أنه يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ، وأنه ليس لديها أى مانع من العمل معهم ، لو أنهم سيدفعون الثمن المناسب ..

كانت صدمة هائلة لرجل المخابرات الإسرائيلى ، فقد أثبتت (هبة) أن المال بالفعل هو وطنها الوحيد ، الذى تنتمى إليه .. ولكن الإسرائيليين شعروا بالقلق ، فلم يكن من السهل عليهم أبدًا استيعاب تلك الصراحة المطلقة ؛ لذا فقد طلبوا من (إيزاك) إحضار (هبة) إلى (تل أبيب) ، ولم تعارض هى قط ، وإنما ذهبت إليهم بنفس ابتسامتها ، تركتهم يخضعونها لكل الاختبارات والفحوص النفسية ، التى أثبتت لهم ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنها ستعمل لحسابهم بكل إخلاص ، طالما يدفعون جيدًا ..

Looloo

وفى أول زيارة لهـا إلى (مصر) بعـد عملهـا لحساب (الموساد) ، استقبلها (فاروق) أيضًا بلهفة شديدة ، ودعاها للسهر معــه فى ملهى* ليلى أنيق ، وبينما كان يتطلّع إليها فى انبهار ، فوجئ بها تعرض عليه العمل لحساب منظمة السلام الوهمية ، وتطالبه بمعلومات عن المطارات السرية ، التى يعرفها بحكم طبيعة عمله ، فأصابه الفزع ، ولكنها استخدمت معه أقوى أسلحتها .. أنوثتها .. وفى تلك الليلة ، عاش (فاروق) أسعد لحظات حياته ، وأغرقته (هبة) من عطرها وفتنتها ودفئها ، حتى إنه نسى كل شىء عن عمله وأسراره ، ولم يعد يفكر فى شىء سوى (هبة) ، التى قرر الحصول عليها بأى ثمن ..

وسافرت (هبة) هذه المرة ، وهى تحمل ضمير (فاروق) فى حقيبة يدها ، وكلها ثقة فى أنه سيمنحها أكثر مما تطلبه ، ما دام يسعى لأن تمنحه هى نفسها .. وانغمس (فاروق) فى المستنقع خطوة بخطوة ، فلم يكد يرسل أول قائمة معلومات سرية ، حتى أصبح متورطًا ، وعليه أن يمضى فى خيانته حتى النهاية ..

وعلى الرغم من ثورة الإسرائيليين ؛ لأن (هبة) تسرعت كثيرًا فى عملية تجنيد (فاروق) ، إلا أن أهمية عمله جعلتهم يبلعون غضــبهم ، ويهضمونه بذلك الســيل من الأسرار الذى يرسله إليهم فى انتظام ، من موقع عمله ..

وفى آخر زيارة لها ، دربت (هبة) (فاروق) على أسلوب المراسلة ، واستخدام الكربون السرى ، والشفرة ، وتركته يغرق طويلاً فى حبها ، ثم رحلت إلى (باريس) ، وفى نيتها ألا تعود إلى (مصر) ثانية أبدًا .. ولكن لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن.. لقــد كشفت المخــابرات المصرية أمــر (فاروق) ، ووضعته تحت المراقبة ، وراحت تتابع عمله ، وتمنحه فقط ما يمكنها التنازل عنه من أسرار ، فى حين أصبحت (هبة سليم) هى الشغل الشاغل لرجل المخابرات ، الذى كشف أنها صارت أخطر جواسيس (الموساد) على الإطلاق ، فهى قد استقرت فى (باريس) ، وافتتحت متجرًا فخمًا للأزياء وأدوات الزينة ، جذب إليه معظم زوجات سفراء الدول العربية هناك ، حتى إنها صارت ضيفًا دائمًا فى حفلات السفارات والقنصليات ، وأصبحت صديقة لعشرات من الرجال الذين يحملون أدق أسرار الوطن العربى كله ..

ومع خطورتها البالغة ، قررت المخابرات المصرية إنهاء العملية كلها ، قبل حرب أكتوبر 1973م .. وكانت الخطوة الأولى هى الإيقاع بشريكها (فاروق الفقى) ، والتحفظ عليه فى مكان تحت السيطرة ، حتى لا يدرك (الموساد) ، ولا تدرك (هبة) نفسها أنه قد هوى ... أما الخطوة التالية ، فكانت (هبة) نفسها .. كان والدها قد حصل على إعارة للعمل فى (تونس) ، وكانت دائمة الاتصال به ، وذات مرة ، عندما أجرت اتصالها

www.liilas.com

المعتاد ، فوجئت بصديق لوالدها يجيبها ، ويخبرها أن والدها قد تم نقله إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوص الطبية ، بعد إصابته بوعكة خفيفة .

وشعرت (هبة) بالقلق الشديد على والدها ، ولم ينتبها أدنى شك فى الأمر ، فقد تم إعداد الخطة بمهارة مدهشة ، من المخابرات المصرية ، بالتعاون مع المخابرات التونسية ، بحيث تصوَّر الأستاذ (سليم) نفسه ، أنه يعانى من وعكة صحية حقيقية ، مما جعل الأمر يبدو طبيعيًا ، عندما تحرت المخابرات الإسرائيلية الخبر فى (تونس) ، واطمأنت إلى أنه بالمستشفى بالفعل.. ولأن الأمر كان متقنًا للغاية ، فقد تركت المخابرات الإسرائيلية (هبة) تسافر إلى (تونس) ، ولم يقلقوا بشأنها.. ووصلت (هبة) بالفعل إلى (تونس) ، ولكنها لم تقض فيها سوى دقائق معدودة ، فقد اصطحبها رجل المخابرات المصرى مباشرة ، من الطائرة القادمة من (باريس) ، إلى أخرى فى طريقها مباشرة إلى (القاهرة) ..

وكانت صدمة هائلة لجهاز (الموساد) كله ، ولعميلته (هبة سليم) ، التى فوجئت بأن كل نجاحها هذا ، لم يكن سوى فقاعة هواء ، تحركها المخابرات المصرية فى براعة ، منذ زمن طويل .. ولقد أدلت (هبة) باعتراف تفصيلى ، فى مبنى المخابرات العامة بالقاهرة ، بعد أن أطلعوها على اعتراف (فاروق) ،

الذى لم يشف من انهياره بعد .. والعجيب أنها كانت أكثر تماسكًا منه ، أو أنها كانت شاردة تسترجع أحلام عمرها كله ، التى انهارت دفعة واحدة .. وعندما التف حبل المشنقة حول عنقهما ، أدرك (فاروق) و(هبة) أن ما ملأ حياتهما لم يكن حلمًا كثيرًا ما تصوراه دائمًا .. بل كان كابوسًا ..

وهذا الكابوس ليس الكابوس الوحيد ، الذى عاشه من واجهوا المخابرات المصرية ، فالإسرائيليون عاشوا كابوسًا رهيبًا معها ، حتى عندما حاولوا اللعب عليها خارج أرضها ، كما حدث فى عملية جاسوسهم (باروخ) ...

و(باروخ زكى مزراحى) هذا هو يهودى مصرى ، ولد بـ (القاهرة) عام 1926م ، وكان والده (زكى مزراحى) واحدًا من تجار الدخان ، فى شارع (كلوت بك) ، وكان ثريًا إلى الحد الذى سمح له بإلحاق ابنه (باروخ) بمدرسة (الفرير) ، قبل أن يتوفى عام 1933م ، إثر إرهاق شديد فى العمل .. وعلى الرغم من وفاة الوالد ، راحت أم (باروخ) تعمل بجد وبلا كلل ، لتوفر لأبنائها حياة قريبة من تلك التى وفرها لهم والدهم ، واشتهرت بين جيرانها بأنها خياطة بارعة تتقاضى أجرًا يتناسب مع مهارتها وذوقها الرفيع ، بحيث نجحت فى إلحاق (باروخ) فى سبتمبر 1940م بمدرسة (الفرير) الثانوية ، المعروفة باسم مدرسة القديس (يوسف) ، وحصل منها على شهادة (التوجيهية) ،

www.dvd4arab.com

من القسم الأدبى عام 1944م ، والتحق فى العام نفسه بكلية التجارة جامعة (القاهرة) ، وتخرج فيهـا عـام 1948م ، مع تخصص فى شعبة المحاسبة .. وفى نفس عام تخرجه ، عمل (باروخ) فى شركة (كونزلز) لاستيراد المعلبات والمحركات ، ثم انتقل فى عـام 1950م للعمـل فى شركة (بخكو) للأدوية والأدوات الجراحية ، وظل يعمل فيها لمدة عشرة أشهر ، انتقل بعدها للعمـل كمدرس ، فى مدرسة الأقباط الكبرى الثانوية ، لتدريس اللغة الفرنسية ، وكـان عمله ينتهى فيها فى الرابعة عصرًا ، حيث يعمل حتى المساء فى شركة سمسرة ، تحمل اسم (دانيال نبياه وشركاه) ..

وأصبح (باروخ) موظفًا ثريًا ، بالمعنى المعروف فى تلك الأيام ، يقطن شقة أنيقة ، تحوى كل متطلبات العصر ، ويرتدى أفخر الثياب ، ويتعطر بأغلى العطور ، ويكفل أمه وشقيقته (إيفيت) وشقيقه (ماير) ، وكل شىء يسير معهم على ما يرام . ز حتى ظهرت (فورتينيه) .. كان هذا فى عام 1955م ، عندما التحقت (فورتينيه) الفاتنة الشقراء بنفس المدرسة ، التى يعمل بها (باروخ) ، وأصبحت زميلته فى العمل .. ومنذ اللحظة الأولى ، التى وقع فيها بصره على شعرها الذهبى وابتسامتها الساحرة ، غرق (باروخ) فى غرامها حتى النخاع ، وراح يتقرب منها فى لهفة

واضحة ، وهى تسمح له بالاقتراب إلى حدود مدروسة ، ثم تصده وتمنعه عن الاستطراد فى حنكة وصرامة ، تمتزجان برقة وإغراء يفتناته ، ويخلباته لبه وصوابه ، حتى إنه عرض عليها الزواج .. كان يتوقع منهـا الشـعور بالمفاجأة ، أو الخجـل ، أو حتى إشاحة رقيقة بوجهها ، ولكن ما فعلته كان مدهشًا للغاية .. لقد تطلّعت إليه لحظة بابتسامة ظافرة ، وتألق الزهـو فى عينيها واضحاً ، ثم لم تلبث أن حوّلت كل هذا إلى ضحكة مجلجلة ، تموج بالانتصار والخيلاء ، وعلى الرغم من هذا ، فقد رفضت عرضه ؛ لأن عائلتها كلها قررت الهجرة إلى (إسرائيل) .. حاول إقناعها بالبقاء فى (مصر) مشيرًا إلى أن كليهما يتمتع بوظيفة ممتازة ، ووضع مالى جيد ولكنها تشبثت برأيها ، وحسمت الأمر بأن الوسيلة الوحيدة هى أن يهاجر هو أيضًا إلى (إسرائيل) .. أو يفترقان تمامًا ..

وتحت ضغط الهوى والحب ، أقنع (باروخ) أمه بالهجرة إلى (إسرائيل) ، وحملها رغماً عن إرادتها إلى السفينة ، التى حملتهما إلى ميناء (بيريه) وهما يذرفان الدمع مع غيار أضواء مدينة (الإسكندرية) خلف الأمواج ، فى السادس من فبراير ، عام 1957م ، وبصحبتهما الفاتنة (فورتينيه) وعلى

www.dvd4arab.com

شفتيها ابتسامة ظافرة ، لم يدرك (باروخ) معناها ، حتى عندما التقى بمندوبى الوكـالة اليهـودية فى (بيريه) ، ولاحظ استقبالهما الحار لصديقته (فورتينيه) ومعرفتهما الواضحة بها ، قبل أن ينتقل الجميع إلى باخرة أخرى حملتهم إلى ميناء (حيفا) ، حيث أرض الميعاد ، التى حلموا بها طويلاً ..

وهناك ، فى قلب (إسرائيل) ، راحت الصدمات تتوالى .. كانت الصـدمة الأولى هى أنه سينتقل مع أمه ، للعيش فى مستعمرة (معجان ميخائيل) حيث تعمل أمه فى حياكة الملابس ، ويعمل هو كفلاح أجير.. والصدمة الثانية هى أن حياته فى (أرض الميعاد) ، لن تساوى ذرة من حياته فى (مصر) ، إذ يكفيه أجره بالكاد ، ليعانى شظف العيش ، ويجد مأوى متواضعًا ، ويتناول ثلاث وجبات أشد تواضعًا .. أما الصدمة الكبرى ، التى زلزلت كيـانه ، وحطمـت كل أحلامه ، فهى أن زواجه من (فورتينيه) مسـتحيل ، لأن القوانين الإسرائيلية تحظر زواج اليهودى من فتاة ليست من أم يهودية ..

ولم تكن هذه نهاية الصدمات ، بل تواصل الأمر بانتقاله إلى (حيفا) ، وعمله هناك كرجـل شرطة ، بأجـر تافه ضئيل ، واضطراره للعيش فى مسكن مشترك ، مع يهودى شرقى آخر ، ومعاناته من سوء معاملته ، باعتباره أحد يهود (الإشكنزيم) ،

من الطبقة الثانية ، وفى النهاية زواج (فورتينيه) من يهودى ثرى ، وانقطاع آخر أمل له فى الزواج منها .

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يبق (باروخ) بلا زواج .. لقد التقى ، أثناء عمله فى شرطة الآداب ، بزميلته (مرجريت) ، فوقع فى حبها من أول نظرة ، وغرق فى بحر الهدوء المطل من عينيها الحانيتين ، وسرعان ما تزوجها ، وبـدأ حياة أسرية جديدة ، ينفق عليها من الإتاوات والرشاوى ، التى يتقاضاها من قطط الليل ، لغض البصر عن نشاطهن .

وذات يوم ، استدعاه رئيسه ، وقال له فى لهجة آمرة حازمة أنه قد رشحه لعمل مهـم ، وطلب منه أن يذهب غدًا إلى مكتب المخابرات ، ويقابل رئيسـه (حايم أيدولوفيتش) .. ومن هنا كانت البداية .. لقـد التقى فى الصـباح التالى بمدير مكتب المخابرات المحلى ، البولندى الأصل الذى تفحصه بنظرات سريعة ، ثم أبلغه أنه تم تعيينه فى جهاز المخابرات الإسرائيلى ، وأسند إليه مهمة مراقبة نشاط بعض الشيوعيين ، فى قلب (إسرائيل).. وانغمس (باروخ) فجأة فى هذا العالم.. كان يغمر رئيسه بتقاريره بالغة الخطورة عن نشاط الشيوعيين فى (إسرائيل) ويتقاضى مكافآت سخية مقابل هذا ، وبرع فى عمله كثيرًا ، حتى استدعاه (حايم) ذات يوم ، وابتسم ابتسامة

Looloo
www.dvd4arab.com

كبيرة ، وهو يطلب من أن يذهب لمقابلة شخص مهم ، فى قهوة (فيرد) شمال شارع (ديزنجوف) فى (تل أبيب) ، فى تمام السادسة مساءً .. وذهب (باروخ) فى الموعد تمامًا .. وبدأ خطوته الثانية فى عالم المخابرات.. فى البداية أسندوا إليه بعض أعمال الترجمة ، لتقارير واردة من العمـــلاء الأجانب ، ثم استدعاه المدير ذات مرة ، وأخبره أنهم سيرسلونه ..

فى مهمة إلى (هولندا) حيث افتتحوا مكتبًا تجاريًا هناك ، كغطاء لأعمال التجسس ...

وفهم (باروخ) ما يعنيه الأمر ، وسافر إلى (هولندا) ، وهناك أقام علاقات جيدة مع المصريين المقيمين فى العاصمة الهولندية ، ونشطت علاقته بهم ، وجمع قدرًا كبيرًا من المعلومات ، جعله يؤكد أن مستوى الوعى الأمنى عند العرب منخفض للغاية ، فما أن يبدأ الحديث مع أحدهم ، حول موضوع ما ، حتى ينطلق مثرثرًا ، ويروى كل ما لديه عنه ، مهما بلغت سرية الأمر !!!!..

وبعد النجاح الساحق لمهمته فى (هولندا) عاد (باروخ) إلى (تل أبيب) ، ولم تمض فترة قصيرة حتى استدعاه مديره مرة أخرى ، وقال فى لهجة تشف عن أهمية الأمر وخطورته :

إن المصريين قد ضربوا إحدى السفن الإسرائيلية ، أمام باب المندب ، وهذا ما دفعهـم إلى أن يسندوا إليه مهمة بالغة الخطورة ، يعلقون آمالاً كبيرة على نجاحه فيها ، وأن رئيسة الوزراء شخصيًا ، شديدة الاهتمام بما سيحققه فيها ؛ إذ سيسافر أولاً إلى (عدن) ثم اليمن الشمالية وبعدها إلى دولة الإمارات.. ويريدونه أن يجمع أكبر قدر من المعلومات عن هذه البلاد ، ويتابع نشاط منظمـــة التحرير الفلسطينية فيها ، ويريدون أن يعرفوا بالتحديد ، هل يتدرب الفدائيون هنـــاك على ضرب ناقلات البترول الإسرائيلية فى البحر الأحمر ؟

وشعر (باروخ) بأهميـــة المهمـــة وخطورتها ، وهو يبدأ رحلته ، بجواز سفر مغربى ، يحمل اسم (أحمد الصباغ) وعلى كتفه ، كأى سائح عادى ، آلة تصوير جيدة ، تساعده على التقاط صور الأهداف الحيوية ، وقبل أن يستقل طائرته بأقل من ساعة ، جـــال بخاطره أمر مقلق .. ومـــاذا لو انكشف الأمر ؟ وعندما صارح رئيسه (موردخاى) بهذا ،

انفجرت عاصفة من الضحك فى مقر المخابرات ، وأخبروه فى ثقة ، أن الخطة التى يضعها عباقرة الموساد ، يستحيل أن يكشفها عرب متخلفون ...

Looloo
www.dvd4arab.com

وهكذا غادرهم (باروخ) ، وهو يشعر بالزهو والغرور ، لأنه يعمل فى جهاز خطير ودقيق ، مثل المخابرات الإسرائيلية ، وسافر إلى (عدن) ، وأنهى مهمته فيها بنجاح ، ثم إلى اليمن ، حيث أقام فى فندق الأخوة فى (الحديدة) ، وبدأ هناك عمله فى ثقة وبساطة ، فراح يتجوّل فى الأسواق ، وبالقرب من الميناء ، حاملاً آلة التصوير المعلقة بكتفه ، والتى يلتقط بها عشرات الصور للميناء ، والسفن الراسية فيه ، وإجراءات الأمن من حوله ، ثم يعود إلى حجرته فى الفندق باسم الثغر ، شديد الزهو والهدوء ... ولكن فجأة ، وفى نفس اليوم الذى استعد فيه للسفر إلى (أديس أبابا) ، فوجئ بشابين من رجال الأمن اليمنيين فى حجرته ، يســألانه فى لهجــة مهذبة تفتيش حجرته ، فحاول الاعتراض ، وثار ثورة مصــطنعة ، وهــدد بالاتصال بسفارة المغرب ، ولكن أحــدًا لم يعــره انتباهًا ، وعثر الشابان على الأفلام ، فصاح مؤكدًا أنها مجرد صور تذكارية للرحلة ، ولكن أحدهما دسّ يده فى جيب (باروخ) ، وأخرج الرسوم الكروكية للميناء والمواقع العسكرية اليمنية ، وهو يتساءل: أهذه ؟.. رسوم تذكارية أيضًا ؟! ..

وأسقط فى يد (باروخ) ، واستسلم لهما وهما يقودانه إلى مبنى التحقيقات ، ولكنه ظلّ يصر على أنه مغربى الجنسية ، إلا أن

اليمن كانت قد أبلغت المخابرات المصرية بسقوط الجاسوس ، الذى حذرتها (مصر) من أنه سيصل إليها مسبقًا ، بعد أن نقل إليها أحد عيونها المعلــومة ، من قلب إسرائيــل ، وأرسلت (مصر) ضــابط المخابرات المصرى الأسمر ، الذى واجهه ، وكشفه أمام نفسه ، ثم حمله معه إلى القاهرة ....

لم تكن رحلة الضابط المصرى مع الإسرائيلى (باروخ زكى مزراحى) ، من (اليمن) إلى (القاهرة) سهلة أو هينة ، بل كانت مغامرة عنيفة ، تستحق مجلدًا ضخمًا لسردها ، خاصة مع محاولات (الموساد) المستميتة لاستعادة ضابطهم ، ولكنهما فى النهاية وصلا إلى (القاهرة) ، وتسلمت السلطات (باروخ) وقبل أن يبدأ (إسماعيل مكى) ، نائب المدعى العسكرى العام ، تحقيقاته معه ، مال نحوه ، وأخبره بابتسامة هادئة ، إن زوجته (مرجريت) رزقت بمولودة أمس ، وهى فى حالة جيدة .. وهنا انفجر (باروخ) باكيًا ، واعترف بكل شىء ..

ولم تكلل حياة (باروخ) بالانتصارات وأكاليل الغار ، كما كان يتوقع ، بل كان سقوطه عنيفًا مدويًا ، زلزل كيان جهاز حكمًا بالسجن المؤبد ، فى زنزانة عادية فى (القاهرة) التى ولد فيها ، والتى شهدت صباه وشبابه ، و... وسقوطه ...

Looloo
www.dvd4arab.com

وقصص الســقوط فى تاريخ المخــابرات عديدة ، لن تكفيها صفحات فى صحيفة ، أو حتى صحيفة كاملة ، فمن (إبراهيم سعيد شاهين) و(انشراح على موسى) إلى (سامى نافع) إلى الدكتور (إسرائيل بيبر) ، مستشار الأمن القومى الإسرائيلى ، والذى لم يعرف ، حتى لحظة سقوطه ، أنه كان يعمل لحسابنا ، من خلال عشيقته (كــلارا) ، إلى (محمد العطار) و(محمد سيد صابر) حديثًا ، ولكن عمل أجهزة المخابرات لا يقتصر على جمع المعلومات وزرع العيون ، وإسقاط الجواسيس فحسب ، بل يمتد أيضًا إلى حماية الأمن القومى بشتى الطرق ، ولقد تبيّن هذا قديمًا ، من خلال النشاط المكثّف لجهاز المخابرات ، فى الفترة من نكسة يونيو ، وحتى نصر أكتوبر 1973م ، ففى تلك الفترة ، قرّرت المخــابرات أنه مــن صميم عملها ، توعية المواطنين بضروريات المرحلة المقبلة ، وكان هذا إيذانًا ببدء الخطة ، التى تعتمد على شن حملة ضــخمة ، على كل المستويات لتوعية الناس بضرورات الأمن ، وتعريفهم بأساليب العدو فى جمع المعلومات ، ومنعهم من الإفضاء بما لديهم فى كل مناسبة ــ وبدون مناسبة ــ وسد الثغرة التى تتسرب منها الأسرار.. وعندما بدءوا خطتهم ، كانوا يدركون جيدًا أن الخطوة الكبرى والأولى ، بل والعمود الفقرى للخطة كلها هى الدين ، فلابد أن يدرك الناس ، من خلال جهات يمنحونها كل ثقتهم ضرورة كتمان الأسرار .. ولا توجد جهات لهذا الغرض ، أفضل من دور

العبادة ، فغالبية المواطنين يترددون عليها بانتظام ، ويؤدون فيها مناسكهم وصلواتهم ، والتوعية من خلالها ستجد حتمًا الصدى المطلوب فى نفوس الجميع .. ولتحقيق هذا الغرض ، كان من الضرورى أن يفهم رجال الدين الفكرة ، ويستوعبوها ، ويقتنعوا بفائدتهــا وضرورتهــا ، حتى يمكنهم نقــل هذا إلى مستمعيهم .. وعلى الرغم من أن طبيعة العمل فى أجهزة المخابرات لا تميل قط ــ بل وربما تتنافى تمامًا ــ مع العلانية ، والاجتماعات الرسمية ، إلا أنه كان من الضرورى أن يعقد الرجال اجتماعات موسعة مع رجال الدين ، من شيوخ وقساوسة ، ليتحدثوا إليهم مباشرة ، ويشرحوا لهم فكرتهم والأسلوب الأمثل لتعاونهم معه على تحقيقها.. وكانت الفكرة ناجحة بحق.. لقد اقتنع الجميع بالفكرة بسرعة ، ولقــد أضفى قيام رجال مخابرات بشرح القضية جدية وخطورة على الموقف ، فتفاعل معهم رجال الدين فى حماسة ، واستوعبوا الموقف كله ، واتفقوا معهم فى الرأى تمامًا ..

وفى الأيام التالية بدا من الواضح أن الفكرة كانت مدهشة وناجحة إلى حد مذهل ، فقد انطلق خطباء المساجد ، والقائمون على الوعظ فى الكنائس ، ينبهون الناس إلى ضرورة التزام الصمت ، حتى لا يستفيد العدو من ألسنتنا ، وكان لحماسهم وإخلاصهم أثره البالغ فى استجابة جموع الشعب للفكرة بسرعة مدهشة ، كما اتضح بشكل قاطع فى السنوات التالية .. ولكن

Looloo

الجعبة لم تكن قد فرغت بعد .. فبعد رجال الدين ، جاء دور الطوائف الأخرى ، التى يمكنها التأثير فى الجماهير ، التى تكتسب ثقتها واهتمامها ، مثل الأدباء والصحفيين ، ومؤلفى الأغانى ، ومعد التمثيليـات ، ومخرجى المسلسلات الإذاعية والتليفزيونية ..

صحيح أن هذا يتعارض كثيرًا مع نظم العمل فى أجهزة المخابرات ، التى تحبذ السرية والصمت ، إلا أنه أروع ما فى هذه النظم هو أنها ليست جامدة أو محتجرة ، وإنما يمكنها أن تتغير وتتبدل ، طبقًا للظروف ومقتضيات الموقف ..

ومن هذا المنطلق ، شرح الرجل الفكرة للحشد الذى اجتمع لينصت إليه ، وطلب منهم أن يعملوا على شد انتباه المواطنين ، من خلال ما يقدمونه من مقالات وكتب ، وروايات ، وأعمال فنية وترفيهيـة ، إلى الخطـر الرهيب ، الكامن فى الأحاديث غير المسئولة فى الشـوارع والمصـانع ووسائل المواصلات ، وينبههوهم إلى مزايا الصمت والتكتم ، وحجب أنباء المنشآت والأسلحة والنوايا ..

ومرة أخرى آتت الفكرة ثمارها على نحو مدهش.. لقد انطلق سيل من الروايات ، والكتب ، والمقالات والمسلسلات ، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية يغمر وسائل الإعلام ويملأ أسماع ويعون وعقول الناس ، على نحو لم يسبق له مثيل .. وفى حماسة ، التف

الناس حول أجهزة الراديو ، لمتابعة مسلسل (كلاب الحراسة) الذى كتبه (كمال إسماعيل) ، ابن الراحل (محمود إسماعيل) ، وأخرجه للإذاعة الفنان (على عيسى) ، ثم لم يلبث المسلسل أن تحول إلى (التليفزيون) ، من إخراج (نور الدمرداش) ، فتضاعف نجاحه مرات ومرات .. وتواصـل السـيل ، ليكتب (محمود صبحى) فى برنامج (عيلة مرزوق أفندى) ، ويكتب (رأفت الخياط) (البعثـة 69) ويقـدم (محمـد كامل) (المصيدة) ، فى حين أخرج (محمد شرابى) عشر تمثيليات فى برنامج (صـور من الحيـاة) حول الفكرة نفسها ، وقدم (على عيسى) برنامجين ناجحين (من قصص الجاسوسية) ، و(الحرب النفسية) كما سارع (فائق إسماعيل) بمسلسلين (اللصان والجاسوس) ، و(لا أسمع.. لا أرى .. لا أتكلم) .. ومع تقديم هـذه الأعمـال تضاعف الحمـاس أكثر وأكثر ، وتصاعدت درجة الوعى ، وبدأ الناس يدركون أهمية إمساك الألسنة .. ولكن الحملة لم تتوقف .. والسيل لم ينقطع ..

لقد قدم (محمد سعيد) برنامج (جند الله) ، فى حين تبنى مذيع البرامج الدينية الأشهر (أحمد فراج) الفكرة فى برنامجه (نور على نور) ، وجذبت الإذاعة الآذان والعقول والقلوب بثلاث خماسيات ، لاقت نجاحًا كبيرًا فى حينها ، وهى (تذكرة إلى أثينا) ، و(كمين) ، و(صراع حتى النهاية) .. وفى نفس

www.dvd4arab.com

الوقت كان العشرات من أصحاب الأقلام يقدمون المقالات ، فى الصحف المختلفة ، مثل (حسين فهمى) ، و(أنيس منصور) ، و(عبد السلام داود) ، و(صلاح هلال) ، و(جميل عارف) ، و(عبده مباشر) ، وغيرهم ..

وعلى الرغم من كل هذا النجاح ، ومن أن الدعوة قد وجدت طريقها إلى مختلف قطاعات الشـــعب على نحـــو شديد الإلحاح والاستمرارية ، إلا أن المخـــابرات كانت تشـــعر أن شيئًا ما ينقص .. صحيح أن الناس تدرك خطورة التشدق بالمعلومات ، والتباهى بالأهداف ، إلا أن العديد منهم ما زالوا يتخذون موقفًا عدائيًّا من جهاز المخابرات العامة بعد المناخ الذى ساد عقب نكسة يونيو 1967م ، والذى حاول البعض خلاله تشويه صورة الجهاز ، والانتقاص مـــن قـــدره ، ونسب العديد من الأعمال المنافية للأخلاقيات إليه ، دون مبرر أو دليـــل .. وكان من الضرورى أن يتم تحسين هذه الصورة ، وتعريف الناس بحقيقة عمل المخابرات العامة ، وبأنها الدرع الواقية للبلاد ، والسبيل الأمثل لحماية الوطن من أعدائه خارج الحدود وداخلها ، وفى سبيل هذا الهدف النبيل ، فإنها تسعى للحصول على معلومات عن العدو وتأمين أفراد الشعب ومعداته ومنشآته ، بمكافحة التجسس والتخريب ، وأنه لا صلة لها قط بأعمال القمع ، التى لم تدخل فى نطاق عمل المخابرات .. وفى ســـبيل تحقيق هذا

الهدف الجديد ، استعانوا بواحد من أوائل من توغلوا أدبيًّا فى عالم المخابرات ، وهو الراحل (ماهر عبد الحميد) ، الذى بدأ يكتب مقالات أسبوعية ، فى إحدى الصحف الكبرى ، للتعريف بعمل المخابرات وأهميته (السرى) .

وكان لهذه الخطوة ، كسابقاتها ، تأثير مدهش على الناس ، الذين أدركوا وربما لأول مرة ، مقدار الجهد الذى يبذله رجال المخابرات العـــامة المصرية والمخـــاطر التى يتعرضون لها ويواجهونها ، وأهميتهم البالغة فى الحفاظ على أمن الوطن وسلامته ..

ونجحت الحملة أكثـــر وأكثـــر ، حتى إن جريدة (جيروساليم بوست) الإسرائيلية قد نشرت مقالاً ، فى عددها الصادر بتاريخ 1972/4/26م ، تحذر فيه بشدة من مغبة الحملة المكثفة ، التى تقوم بها الأجهزة المصرية والإعلام المصرى ، لتوعية الشعب وإقناعه بضرورة الصمت وكتمان الأسرار ، وتقول إن تأثير هذه الحملة لن يؤدى إلى تقليص كمية المعلومات ، التى يجمعها عملاء المخابرات الإسرائيلية فحسب ، وإنما سيمتد إلى تغيير وتبديل مواقف بعض العملاء ، الذين يعملون ضد الدول العربية الأخرى أيضًا ، ثم تؤكد ضرورة أن تعيد المخابرات الإسرائيلية تقييم موقفها ، فى ظل هذه الحملة المكثفة ..

Looloo www.dvd4arab.com

ولقد تواصل هـذا الأمر حتى حـرب أكتوبر ، التى كان للمخابرات دور شديد الفاعلية فى التمهيد لها ، ولا نعنى هنا تجنيد العملاء وزرع العيون ، وإسقاط الجواسيس أيضًا ، ولكن دورها المميّز فى خلـة الخـداع الاستراتيجى ، التى سجلها التاريخ ، كواحدة من أعظم وأنجح خطط الخداع كافة ، إذ اعتمدت فيها المخابرات على مبدأ جديد ، ألا وهو أن تترك العدو يرى ويسمع .... ولكن لا يفهم ... وهنا تكمن العبقرية ..

فعندما اقتربت ساعة الصفر ، وبدأ العد التنازلى لحرب أكتوبر ، وبلغت حرارة الرجال حـدًا مخيفًا ، على الرغم من انخفاض درجات الحرارة الفعلية ، ووصلوها إلى معدلات معتدلة ، بالنسبة لهذه الفترة من العام.. فكل شىء ينبغى دراسته بمنتهى الدقة والعناية ، حتى أدق التفاصيل بحيث تمضى الخطة فى مسارها ، دون أن ينتبه العدو ، أو تلتقط عيونه لمحة واحدة ، يمكن أن تفصح عما يدبره جيشنا ، وتعده له قيادتنا السياسية والعسكرية.. ولم يعد هناك وقت للنوم .. الجميع صاروا يعملون ليلاً ونهارًا ، بلا انقطاع تقريبًا ، وكل فريق منهم يعيد دراسة الأمور ، وتقييمها ، فى ظل ما يستجد من معلومات ، يتولى عددًا من أمهر الجواسيس والعملاء جميعها بلا هوادة ، من كل المصادر الممكنة ، فى قلب النسيج الأساسى للعدو .. وكلما برزت مشكلة ، كان على الرجال أن يفحصوا ويمحصوا ، ويجاهدوا للبحث عن أفضل الحلول لها ، وبأكثر الوسائل سلامة وأمنًا ..

وفى الوقت ذاته كانت هناك مشكلات معتادة وتقليدية ، فى كل الحروب يدركها ويعلمها العدو ، تمامًا مثلما ندركها ونعلمها ، ومن الضرورى أن يجد الخبراء لها حلولاً مبتكرة وجديدة ، بحيث لا ينتبه العدو إلى هذه الحلول التى تقوده بالطبع إلى وجود المشكلة وارتباطها الحتمى بقرب اندلاع الحرب .. ومن أكبر هذه المشكلات وأكثرها أهمية ، مشكلة توفير أماكن العلاج للمصابين الذين قدر الخبراء أنهم سيبلغون خمسين فى المائة فى موجة العبور الأولى ، ثم يتناقص العدد بعدها تدريجيًا .. وطبقًا لتقديرات الخبراء ، كان من الضرورى ، بل من المحتم أن يتم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية ؛ حتى يمكنها استقبال كل هذا العدد الذى لن تستوعبه مستشفيات القوات المسلحة وحدها حتمًا ..

ومـن أجل هـذه المشكلة ، اجتمع الرجال كثيرًا وطويلاً ، وراحوا يدرسـون ويفكرون ، ويناقشـون ويتجادلون ، حتى يمكنهم إيجاد سبب منطقى لإخلاء المستشفيات ، دون أن يثير هذا العدو ... سبب طبى بحت ..

وبعد سبع ساعات واثنتى عشرة دقيقة بالتحديد ، وصل إلى إحدى الوحدات العسكرية فى السويس قرار من إدارة شئون الضباط للقوات المسلحة ، بتسريح ضابط طبيب من الخدمة ، وعودته إلى الحيـاة المدنية.. ولما كـان ذلـك الإجراء نادر الحدوث ، فى تلـك الفترة ، فقـد أظهر الضابط الطبيب فرحته

Looloo
www.dvd4arab.com

وسعادته ، وهمس للمقربين إليه بأن جهود خاله الذى يحتلّ مكانة رفيعة فى القيادة ، هى التى منحته هذا الامتياز ، وأعادته إلى الحياة المدنية ، حتى يمكنه استكمال دراساته العليا ، التى توقّفت مؤقتًا ، بسبب التحاقه بكلية ضباط الاحتياط منذ عدة سنوات ..

وكإجراء طبيعى ، لم يكد الطبيب (ع) يعـود إلى حياته المدنية ، حتى تسلم وظيفته السابقة فى وزارة الصحة ، التى تركته على قوتها ليومين أو ثلاثة قبل أن تمنحه خطاب التعيين فى مستشفى (الدمرداش) الذى وقع عليه الاختيار ليكون على رأس قائمة المستشفيات المطلوب إخلاؤها ، قبل أن تنشب الحرب .. والتحق (ع) بالعمل بالمستشفى ، وأبدى نشاطًا ملحوظًا ومهارة وكفاءة فى عمله فى قسم الجراحة ..

وقبل أن يمضى أسبوع واحد على تسلّمه العمل ، حتى كان يتقدم بمذكرة إلى مدير المستشفى ، مؤكـدًا فيهـا أن حجرة العمليات ، ومعظم عنابر المستشفى ملوّثة بميكروب التيتانوس .

كان الأمر شديد الخطورة ، ولم يخضع المدير له فى سهولة ، وإنما قرر القيام بفحص شامل ، وإجراء عدد من التحليلات ، قبل اتخاذ أى قرار فى هذا الشأن .. وتم جمع العينات المطلوبة ، وإجراء كل الفحوص الممكنة .. ثم أتت النتائج.. والمدهش أنه وعلى الرغم من خلو المستشفى فعليًا من الميكروب ، إلا أن كل

النتائج إيجابية وكأنما تحول مستشفى (الدمرداش) إلى مزرعة نشـطة لميكروب التيتانوس بالذات .. وصـدر قرار بإخلاء المستشفى تمامًا من المرضى لتطهيره من الميكروب ، وتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لهذا ..

وبسرعة ، ووفقًا لخطة المخابرات ، التى اعتمدت على تعاون الصحافة وتأثير الكلمة المطبوعة على مشاعر الجماهير ، وبخاصة لو كانت كلمة لكاتب يحترمه الجميع ، ويثقون بما يقول ويكتب تمام الثقة ، قرّر الرجال تحويل ما حدث فى المستشفى ، إلى فضيحة صحفية ، ومن هذا المنطلق ، وفى السادسة صباحًا ، ارتفع رنين الهاتف فى منزل الكاتب الصحفى المعروف (م ص) الذى استيقظ على الفور ، والتقط سماعة الهاتف فى سرعة ، ووصله الخبر من مصـدر مجهول .... وكانت الفضيحة ... المقصودة .. والمدروسة بدقة ..

وفى الصباح التالى مباشرة ، نشرت جريدة الأهرام خبر إخلاء مستشفى (الدمرداش) من المرضى ، بسبب تلوث معظم عنابره بميكروب (التيتانوس) .. ثم جاء دور الأستاذ (م) .. وفى مقال ملتهب استنكر (م) ما حدث فى مستشفى (الدمرداش) وعزاه إلى الإهمال والاستهتار ، ثم تساءل فى النهاية عما إذا كان الأمر يقتصر على هذا المستشفى وحده ، أم إن مسلسل الإهمال قد بلغ بعض المستشفيات الأخرى ؟! وفى اليوم التالى خرج بمقال آخر ، حول الموضوع نفسه ..

Looloo
www.dvd4arab.com

ثم مقال ثالث .. ورابع .. ومع رد الفعل الجماهيرى ، وبناءً على هذه الحملة الصحفية الساخنة ، أصدرت وزارة الصحة قرارًا بإجراء تفتيش على باقى المستشفيات .. والطريف أنها أسندت هذه المهمة للطبيب (ع) نفســـه ، من قبيل المصادفة !!.. وانطلق (ع) يواصل مهمته ، ويجرى التفتيش على عدد كبير من المستشفيات ، من ضـــمنها تلك التى تحتل القائمة ، التى وضعها رجال وزارة الدفاع والمخابرات العامة ..

ولم يكد أولّ أكتـــوبر يأتى حتى كان العدد المطلوب من المستشفيات قد تم إخلاؤه نهائيًا ، ونشرت جريدة الأهرام تحقيقًا علنيًا حـــول هذا الأمـــر ، مع صور الأسرَّة الخالية ، وعمليات التطهير المستمرة .. والتقط رجال المخابرات أنفاسهم فى ارتياح لنجاح الخطة ، ثم عادوا يكتمونها فى قلق شديد ، خشيةَ أن يكشف العدو الأمر ، قبل اندلاع الحرب .. ولكن هذا لم يحدث والحمد لله ..

فبعد ستة أيام بالتحديد ، نشبت حرب أكتوبر ، واندفعت موجة العبور الأولى تشق قناة السويس ، وتعبر حاجز الهزيمة ، وتحتل أقوى خط دفاعى فى التاريخ ، وتحطِّم أسطورة الجيش الإسرائيلى ، الذى أشاع أنه لا يقهر أبدًا ..

وخفقت قلوب الرجال فى حماس وزهو لا يخلوان من الدهشة والتقدير.. لقد تحقق عامل المفاجأة إلى أقصى حد ، وبوغت العدو تمامًا لعملية العبور ، حتى إن معدلات الخسائر ، التى قدرها الخبراء بخمسين فى المائة فى موجة العبور الأولى ، انخفضت حتى لم تتجاوز العشرة فى المائة ، وهو أقل معدل خسائر عرفته الحروب الحديثة ، فى عملية عبور مانع مائى حصين كهذا .. وعندما تحركت كتائب الإسعاف ؛ لنقل المصابين إلى الخطوط الخلفية ، وتوفير أفضل عناية ورعاية لهم ، كانت كل المستشفيات المطلوبة خالية ، ومعدة لاستقبالهم ، وتوفير كل الخدمات الطبية لكل واحد منهم .. هذا لأن الخدعة قد نجحت نجاحًا منقطع النظير .. لقد شاهد العدو .. وقرأ .. وسمع .... ولم يفهم ..

هذا بالطبع ليس كل تاريخ المخابرات العامة فى مصر ، وليس حتى جزءًا منه ... إنه فقط لمحة ، من حرب اشتعلت منذ سنوات عديدة ، ولم ولن تتوقّف لحظة واحدة ، حتى نهاية العالم ، لأنه فى عالم التخابر ، لا عين تغفل ، ولا أذن تنام ، ولا حتى لثانية واحدة ؛ فعلى الرغم من انتهاء الحروب الرسمية ، فعمل أجهزة المخابرات يستمر ويستمر ، لأن عملها فى فترة السلم ، يكون دومًا أكثر خطورة وصعوبة من عملها فى زمن الحروب ، على عكس ما يتصوّر الكثيرون ؛ لأنه يعمل على

Looloo www.dvd4arab.com

حماية الجبهة الداخلية من أعداء لا يسفرون عن عدائهم ، كما يفعلون فى الحروب الصريحة ..

باختصار ، فالمخابرات أشبه بأنفاسك ، تلتقطها طوال الوقت ، ولكنك لا تشعر بهذا ، إلا لو عانيت مشكلة فى التقاطها .. كذلك المخابرات ، تعمل طوال الوقت بكفاءة ، فلا تشعر بوجودها ، إلا لو أصابها قصور ما ... السؤال إذن هو : هل تعانى مشكلة ، فى التقاط أنفاسك ؟!...

هـل ؟!.

Looloo
www.dvd4arab.com

1 ـ الزائـــر ..

بدأ ذلك الصباح عاديًا كأى صباح ...

استيقظت تعبًا مجهدًا كالمعتاد ، وكأننى كنت أعدو طوال الليل ، وبذلت جهدًا خرافيًا ، كالمعتاد أيضًا ، حتى انتزع نفسى من فراشى ، وأدس قدمى المكدودتين فى ذلك الشبشب القديم ، الذى أنوى تغييره ، منذ فترة طويلة للغاية ، ولا أضع هذا القرار أبدًا موضع التنفيذ ، ورحت أزحف معه وبه ، حتى وصلت إلى حمام شقتى الصغيرة وأنا ألهث ، على الرغم من أن مساحتها كلها لا تزيد عن مساحة صالة الانتظار ، فى شقة الأستاذ (حازم) ..

وفى تكاسل هو سمة مـــن سمات شخصيتى ، رحت أحلق لحيتى ، التى يصر الأستاذ (حازم) على أن يراها ناعمة كل صباح ، وكأننا جنود فى ثكنـــة عسكرية ، ثم وضعت جسدى بالكاد فى ملابسى ، التى يفترض أن تبدو أنيقة ، بما يتناسب مع مكانة المكتب ، ثم دفعت نفسى دفعًا إلى الخارج ، لأبدأ يومى المعتاد الممل ..

والطريق من حيث أقيم إلى المكتب ، يستغرق ساعة من السير على الأقدام ، ولكن بالنسبة لشخص نحيل مثلى ، يعانى

من حساسية صدرية ، منذ كان فى الخامسة من عمره ، هو أشبه بحكم إعدام ، مع سبق الإصرار والترصد ، فأنا أستقل ذلك الشىء المتهالك ، الذى يقوده شخص هستيرى ، نصف مختل ، وحتمًا مسجل خطر ، والمعروف باسم (الميكروباص) ، وأظل أدعو الله سبحانه وتعالى طول الوقت أن أصل بأمان ..

وأخيرًا ، وبعد حرب أعصاب ، تستغرق عشرين دقيقة ، نظرًا للزحام المرورى المعتاد ، أصل إلى المكتب ..

ويبدأ العذاب اليومى ..

الأستاذ (حازم) يصرخ ويأمر طوال الوقت ..

والآنسة (حنان) باردة كالثلج ، وطلباتها لا تنتهى أبدًا

و(حسن) عامل البوفيه لا يتوقف عن الحديث لحظة واحدة ..

و(حلمى) زميلى الوحيد بالمكتب ، يتصرف طوال الوقت وكأنه (شيرلوك هولمز) فى زمانه ..

كلهم يبدءون بحرف الحاء كما ترون ..

فيما عداى أنا ..

Looloo
www.dvd4arab.com

آه .. معذرة .. كنت أتحدث طوال الوقت مثل(حسن) ، ونسيت تقديم نفسى لكم ، كما تحتم أصول اللياقة ..

الواقع أننى أزيد عن كل من فى المكتب ..

أزيد عنهم بنقطة ..

كلهم يبدءون بحرف الحاء ، وأنا وحدى ، أبدأ بحرف الخاء ..

اسمى هو (خالد) ..

(خالد خيرى) ، أو(خ خ) .. كما أحب أن أسمى نفسى ، وكما أحب و أتمنى أن ينادينى الآخرون وكلهم ينادوننى به أحيانًا .. من باب السخرية فقط ..

(حلمى) يقولها باعتبار أنها اختصار (خالد خايب) ، وحنان تقولها (خايب خيابة) ، و(حسن) .. (حسن) عامل البوفيه ، يسألنى دومًا إذا ما كنت أرغب فى شرب (خروب خشن) ، وهو يبتسم فى خبث سخيف ..

أما الأستاذ (حازم) نفسه ، فيستخدم مصطلحًا ، أكره حتى أن أكتبه ، لما له من صلة بالفضلات الإنسانية ، و ...

إحم .... المهم أن اسمى الرسمى هو (خالد خيرى) ، وهذا يكفى ..

وأنا أعمل منذ سنوات فى مكتب الأستاذ (حازم) ، المحامى الجنائى المعروف ، والذى لم يخسر فى حياته كلها سوى ثلاث قضايا ، كنت أنا المسئول عن واحدة منها للأسف ..

وأنا فى الواقع لست محاميًا لدى الأستاذ (حازم) ، ولكننى مساعده ..

وكيل محامى لو شئنا استخدام المسميات الشعبية المعتادة ..

ولكن دعونا من كل هذا ، ولنعد إلى ذلك اليوم ، الذى بدأت فيه هذه القصة ..

كان كما أخبرتكم يومًا عاديًا ككل يوم ، ولكننى عندما وصلت إلى مكتبى ، كانت هناك مفاجأة فى انتظارى ..

فعلى سطح المكتب ، وسط الملفات العديدة ، كانت هناك علبة مكعبة ، وردية اللون ، كتب عليها بحروف كبيرة أنيقة ، ذلك اللقب الخاص بى ..

حرفى خاء منفصلين ..

وتوقفت أحدق فى العلبة ، وأنا أدرك أنها مزحة من أحد العاملين فى المكتب ..

Looloo
www.dvd4arab.com

وبالأخص لأنهم جميعًا تظاهروا بأنهم حتى لم يلحظوا وصولى إلى المكتب ..

(حنان) كانت تبدو منشغلة بجهاز الكمبيوتر أمامها ، على الرغم من أن العمل لم يبدأ بعد ...

و(حلمى) يتظاهر بالانشغال فى مراجعة بعض الملفات القديمة ..

و(حسن) فى المطبخ ، الذى تفوح منه رائحة الخروب المغلى ...

ولكن أحدهم حتمًا أحضر تلك العلبة ..

والسؤال هو من منهم ؟!..

من ؟!..

* * *

على الرغم من أننى لست ممن يتميزون بالجرأة فى المعتاد ، فقد حسمت أمرى فى سرعة لم أعتدها فى تعاملاتى ، واتجهت نحو الآنسة (حنان) ، وقلت ، محاولاً التظاهر بالثقة :

ــ أعجبتنى هديتك .

التفتت إلىَّ ، وبراءة الأطفال فى عينيها ، متسائلة :

ــ أية هدية ؟!

ملت نحوها ، قائلاً بابتسامة ، أظنها تشبه ابتسامه (أحمد عز) ، فى أفلامه :

ــ العلبة الوردية .. من سواك يختار اللون الوردى والحرفين الكبيرين لهديته ؟!.. (حلمى) سيختار حتمًا شيئًا أكثر تعقيدًا من مجرد علبة مكعبة ، و(حسن) لن يختار اللون الوردى حتمًا ، لأن هذا لا يتناسب مع ثقافته ، فمن تبقى ؟!

أجابتنى فى سرعة :

ــ الأستاذ (حازم) .

مرة أخرى ، حاولت أن أبتسم ابتسامة (أحمد عز) ، وأنا- أنظر فى عينيها مباشرة ، على الرغم من أننى لا أشبه (أحمد عز) على الإطلاق ، وعلى الرغم من أنها لن ترى منى شيئًا ، عبر عدسات نظارتى السميكة ..

ولكن المدهش أن هذا قد أفلح ..

لقد أطلقت الآنسة (حنان) ضحكة ، عجزت عن كتمانها طويلاً ، وهى تقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ هل أعجبتك حقًا ، أم ...؟ !

سألتها ، فى أسلوب لا يشبه أسلوب (عز) حتمًا :

ـ ما رأيك أنت ؟!

ضحكت مرة أخرى ، وهى تجيب :

ـ أم ..

لم ترق لى إجابتها

ولا حتى ضحكتها ..

ولكن من أنا لأفصح عن مشاعرى وضيقى ، خاصة أننى قد ورطت نفسى فى تلك الهدية الإجبارية والاستفزازية ، فبعد أن شكرت الآنسة (حنان) ، لم يكن من التهذيب أن أتخلص منها ، ولا مناص من رؤيتى لها على سطح مكتبى طوال الوقت ..

كل ما استطعت فعله هو أن أتحاشى النظر إليهم ، وأدفن وجهى فى كومة الملفات أمامى ، وألعن تلك الهدية المستفزة فى كل لحظة ، وأضع الخطط للتخلص منها بأية وسيلة ..

المشكلة أنها مصنوعة من البلاستيك اللين ، الذى يصعب كسرة ..

ولكن ماذا لو سقطت سهوًا فى سلة المهملات ، قبل أن يفرغ (حسن) محتوياتها بلحظات ؟!

لابد فى هذه الحالة أن أكتسب موهبة (خالد صالح) فى التمثيل ، وأتظاهر بالارتياع لفقدان الهدية !..

ولكن دعونا من كل هذا ، ولندخل فى صلب القصة ..

لقد باءت كل محاولاتى لتحاشى النظر إلى الزملاء بالفشل ، وخاصة عندما وصل الأستاذ (حازم) ، وبدأ عملية الصراخ والمطالب ، مما جعلنا نعدو طوال الوقت لتلبية مطالبه ، ونحن لا ندرى حتى لماذا هو غاضب ويصرخ باستمرار !!

وفجأة ، وبينما ننهمك فى العمل ، اندفع إلى المكتب رجل أنيق ..

لم يكن من زبائن المكتب المعتادين ، ولكن كل لمحة منه كانت تؤكد أنه أحد ذوى الشأن ...

كان يرتدى حلة رمادية بالغة الأناقة ، ومن الواضح أنه لم يشتريها من العتبة ، التى اشتريت منها حلتى السوداء اليتيمة ، فقماشها من النوع السميك اللافت للنظر ، وأناقتها وفخامتها واضحتان ، على الرغم من أن أحد أزرار كمها الأيسر مفقود ،

www.dvd4arab.com

وفى خنصر يده اليسرى خاتم ذهبى ، به فص أسود ، وقميصه يلمع تحت ضوء المكتب ، ومن جيب سترته يطل منديل قرمزى حريرى ، أكمل أناقة زيه ..

أما حذاؤه ، فقد جعلنى أكره ذلك الحذاء الذى أرتديه ، الذى اشتريته من العتبة أيضًا ..

المهم أننا فى نفس اللحظة ، التى ألتفتنا إليه فيها ، كان يهتف فى توتر بالغ الشدة :

ـ الأستاذ (حازم) .. أريد مقابلة الأستاذ (حازم) فورًا .. أين هو ؟!

أسرعت إليه محاولاً تهدئته ، وأنا أقول :

ـ الأستاذ (حازم) هنا ، ولكن أخبرنى لماذا تريده ، حتى أ ...

قبل أن أتم عبارتى ، صرخ فى وجهى :

ـ لا .. لن أخبر أحدًا .. أريد مقابلة الأستاذ (حازم) الآن .. أريد مقابلته شخصيًا .

التف الجميع حولنا صامتين ، وأنا أحاول تهدئته ..

(حلمى) .. و(حسن) .. والآنسة (حنان) .. ولكنه صرخ بمنتهى العصبية :

ـ لماذا لا يقابلنى الأستاذ (حازم) بنفسه ؟ سأدفع له كل ما يطلبه .. أين هو ؟!

قبل أن أجيبه هذه المرة ، فتح الأستاذ (حازم) باب مكتبه ، وأطل منه بكرشه الضخم ، الذى يجعلنى دومًا أتذكر معدتى ، التى تلتصق بعمودى الفقرى من شدة نحولى ، كما يتندرون ، وصرخ كالمعتاد .

ـ ماذا هناك ؟!.. من يصرخ ؟!

كدت أخبره أنه الوحيد الذى يصرخ طوال الوقت ، ولكن ذلك الزائر سبقنى ، وهو يندفع نحوه ، ويتشبث به ، هاتفاً :

ـ أستاذ .. أنقذنى يا أستاذ .. أنقذنى .

وهنا حدث أمر عجيب ..

عجيب جدًا .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

على الرغم من أن الأستاذ دائم الصراخ ، إلا أنه ما إن يرى زبونًا ، تفوح منه رائحة الثراء ، حتى يتحول فجأة إلى حمل وديع ، وتعلو شفتيه ابتسامة لا نراها فى غير تلك المناسبات أبدًا ، لذا فقد استقبل زائره الثرى الملهوف فى وداعة ، وهو يقول :

ــ اهدأ يا أستاذ .. اهدأ .. كل مشكلة لها حل .. كل مشكلة .

أجابه الرجل فى عصبية شديدة :

ــ أنا (منيــر) .. (منيــر صفوان) .. صاحب مصانع (صفوان) للملابس .

شهقت الآنسة (حنان) مبهورة ، ومط (حلمى) شفتيه ، وكأنه قد فهم ما يحدث فى حين مال عليه (حسن) ، يسأله عما يعنيه هذا ، أما أنا ، فقد أدركت عظمتها فقط ، لماذا بدا لى وجه الرجل مألوفًا منذ البداية ..

إنه (منير صفوان) ، صاحب مصنع الملابس الشهير ، وصاحب أكبر وأشهر فضيحة لهذا العام .

لقد لقيت سكرتيرته السابقة مصرعها فى حادث سيارة ، بعد إشاعتها وجود علاقة بينها وبينه ، واتخذته الصحف عندئذ مادة

دسمة للتوزيع ، حتى إن الشرطة نفسها قد أجرت تحقيقًا معه ، ثبت خــلاله تواجده بعيدًا عن مسرح الجريمة عند حدوثها (هذا لو أنها جريمة ، وليست حادثة) ..

المهم أنه قد تجاوز الاتهام ، وإن لم ينجح فى فضيحة علاقته بسكرتيرته ، ولكن مثله سرعان ما يتجاوزون هذا ..

وسرعان ما يتورطون أيضًا فى فضيحة جديدة ..

المهم أن الأستاذ (حازم) قد اصطحبه إلى مكتبه ، وهو يردد عبارته السابقة ، أنه لكل شىء حل ، ولكن قبل أن يدخل مكتبه ، التفت إلينا ، وقال فى صرامة متجهمة :

ــ تعال

لم نفهم ساعتها من منا المقصود بالطلب ؟!..

من ؟!..

* * *

وهل يمكنكم أن تتصوروا أن الأستاذ (حازم) كان يقصدنى أنا بندائه هذا ؟!..

كيف لم أدرك هذا فى اللحظة الأولى ؟!..

Looloo
www.dvd4arab.com

كيف ؟!..

لو أنه أراد الآنسة (حنان) ، لتحدث بلهجة أقل صرامة ، أو لما تجهم على الأقل ، ولو أنه أراد (حسن) ، لطلبها بلهجة آمرة ..

وهو بالطبع لن يدعو (حلمى هولمز) إلى المكتبة ، فى وجود زبون ..

إنه سيختار حتمًا أقل الموجودين بالمكتب شأنًا ، فقط لتدوين ما سيقوله الزبون ..

سيختارنى أنا ..

ولأننى أخشاه طوال الوقت ، فقد لبيت النداء فى سرعة ، وربما دخلت إلى المكتب قبل حتى أن يدخله هو ..

أو ربما بعده ..

لست أذكر بالضبط ..

المهم أن حجرته ، بعد أن أغلقنا بابها ، أصبحت تضم ثلاثة فحسب .. هو والزبون .. وأنا ..

وفى نفس اللحظة ، التى أغلقنا فيها المكتب ، تشبث الأستاذ (منير) بالأستاذ (حازم) هاتفاً :

- سأدفع لك كل ما تطلبه ، لو أخرجتنى من هذه الورطة .

جلس الأستاذ (حازم) بكرشه الضخم خلف مكتبه ، وقال بفخامة كعادته :

ـ لابد لى من معرفة الورطة أولاً .

التقط الأستاذ (منير) لعابه فى صعوبة ، على نحو يوحى بتلك الصحراء القاحلة فى حلقة ، قبل أن يقول : ـ

ـ إنهم يتهمونى بقتله .

انتبهت حواسى كلها للعبارة ، واعتدل الأستاذ (حازم) على مقعده ، وهو يسأله فى اهتمام ، مشوب بالتوتر :

ـ قتل من ؟!

كان الأستاذ (منير) يلهث ، كما لو أنه قد قطع نصف العالم جريًا ، وهو يقول :

ـ شقيق تلك السكرتيرة .. لقد عثروا عليه مقتولاً فى شقته ، أمام جهاز الكمبيوتر ووجدوا إلى جواره أحد أزرار سترتى ،

www.dvd4arab.com

وفى مكتبه رسالة أرسلتها إليه فى ساعة غضب ، أطلب منه فيها أن يتركنى وشأنى ، وإلا فهو الجانى على نفسه .

وبلا وعى ، وجدت نفسى أنقل بصرى ، إلى وجـه الأستاذ (منير) الشاحب ، إلى زر كم سترته الناقص ، وودت لو أقول شيئًا ، ولكن الأستاذ (حازم) سبقنى وهو يسأله فى اهتمام :

ــ هل يمكنك أن تروى لى الأمور من البداية ؟!.. من هى تلك السكرتيرة ؟!.. وما الذى لم يتركك شقيقها فيه وشأنك ؟! باختصار ، أريد أن أعرف القصة منذ بدايتها ..

التقط الأستاذ (منير) نفسًا عميقًا ، وبدأ يروى ..

وبمنتهى الاهتمام ، استمعت إليه صامتًا ..

كانت قصة نمطية ، أشبة بالأفلام العربية القديمة ، الأبيض والأسـود ، حتى إننى تخيلت الأستاذ (منير) أشـبه بالراحل (زكى رستم) وهو يرويها ..

القتيل هو شقيق تلك السكرتيرة ، التى ألقيت مصرعها قديمًا ، فى ذلك الحادث الغامض ، ومنذ حدوثه ، وهو كباقى المجتمع ، يتهم الأستاذ (منير) بقتلهـا ، وتلفيق الحادث ، ومثل باقى

المجتمع أيضًا ، لا يثق بتبرئه الشرطة له ، ويصر على أنهم عجزوا عن إثبات التهمة عليه فحسب ..

ومنذ ذلك الحين ، والشقيق (صفوت) ، يطارد الأستاذ (منير) فى كل مكان

وكل زمان

فى مكتبه ..

وبيته ..

وناديه ..

باختصار ، لقد أحال حياته إلى جحيم ، وجعله يكره استيقاظه كل صباح ..

عجبًا !!..

هناك تشابه إذن ، بين حياة الأثرياء وحياة الفقراء ، مع اختلاف الدافع ..

المهم .. لقد استمر (صفوت) فى مطاردته للأستاذ (منير) ، حتى أرسل إليه الأخير تلك الرسالة ، التى وجدوها فى درج مكتبه بعد مقتله ..

Looloo
www.dvd4arab.com

وكان من الطبيعى أن يصبح الأستاذ (منير) هو المشتبه فيه رقم واحد ، ولكن من الواضح أنهم لم يلقوا القبض عليه بعد ... لأنه يجلس هنا ..

يا للذكاء !..

« قل لى يا أستاذ (منير) .. أين كنت ساعة ارتكاب الجريمة ؟! »

ألقى الأستاذ (حازم) هذا السؤال فى اهتمام ، فبدت حيرة متوترة على وجه الرجل ، وقلب كفيه قائلاً :

ــ ومن أدرانى ما هى ساعة الجريمة ؟!.. أخبرونى فحسب أنه قتل ، وأننى المشتبه فيه رقم واحد .

« من أبلغك بالضبط » ؟!..

كنت أنا من اندفع ملقيًا السؤال هذه المرة ، فأدار الأستاذ (حازم) عينيه إلىَّ فى غضب ، وبدأ لحظة وكأنه سينفجر فى وجهى ، حتى إننى انكمشت فى مكانى ، وتراجعت ملتصقًا بالجدار ، ولكن من الواضح أن الأستاذ (منير) لم ينتبه إلى هذا ، فقد التفت إلىَّ ، قائلاً بنفس توتره :

ــ لست أدرى .. لقد كان .. كان ..

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف مرتجفًا :

ــ كان مخيفًا .

تنحنح الأستاذ (حازم) ، قبل أن يسأله فى خشونة ، كنت المقصود بها :

ــ رجل أم امرأة .

بدا الأستاذ (منير) حائرًا ، وهو يجيب :

ــ ليس رجلاً .

قال الأستاذ (حازم) ، بلهجة توحى بالاستيعاب :

ــ هى امرأة إذن .

أدار (منير) عينه إليه فى سرعة ، قائلاً :

ــ وليس امرأة .

وهنا اتسعت عينا الأستاذ فى شدة ودهشة ، وهو يقول ، مستعيدًا صراخه المعتاد :

ــ ليس رجلاً وليس امرأة ؟!.. ماذا يكون إذن ؟!

وقفز السؤال نفسه إلى ذهنى ؟!..

نعم .. ماذا يكون ؟!..

ماذا ؟!

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

2 ـ مسألة رقمية ..

على الرغم من أن كل هذا الجيل يعشق الكمبيوتر ، ويعشق إلى حد الجنون التعامل معه ، وعلى الرغم من أننى المسئول الرئيسى ، عن تحويل كتابات الاستاذ حـازم ، بذلك الخط الشهير ، الشبيه بنبش الدجاج ، إلى شاشة الكمبيوتر فإننى أعترف ، أننى وحتى هذه اللحظة ، تور الله فى برسيمه ، فى هذا الشأن ....

كل ما أعرفه عن الكمبيوتر ، هو أن أضغط زر تشغيله ، فور وصولى إلى مكتبى ..

ثم أفتح برنامج (الأوفيس) .....

وبعدها أبدأ عملية الترجمة ....

ترجمة المذكرات ، من نبش الدجاج ، إلى اللغة العربية ...

ولا يمكنكم أن تتصوّروا مدى العذاب الـذى لاقيه ، فى هذا الشأن ....

ولا مـدى الغضـب ، الذى يواجهنى به الأستاذ حازم ، إذا ما نسيت حرفًا ، أو إذا أخطأت فى ترجمة كلمة ، يستحيل حتى على خبراء الآثار قرأتها ، إلى العربية ..

المهم أنه ، وعلى الرغم من ضعفى الشديد فى الكمبيوتر ، كنت قد سمعت منذ أيام (حلمى هولمز) وهو يتحدث مع الآنسة (حنان) عن أجهزة رقمية حديثة ، يطلق عليها أسم مغيرات الأصوات ، يمكنها تشويه الصوت البشرى ، أو تحويله إلى أية طبقة مخالفة ...

إلى صوت امرأة ....

أو طفل .....

أو شيخ طاعن فى السن .....

بل لقد أكدّ (حلمى) أن باستطاعة الأجهزة الغالية منها ، أن تحاكى صوت أى إنسان تشاء .....

من الواضح أننى بعيد تمامًا عن عالم الكمبيوتر ....

أو ربما عن القرن الحادى والعشرين كله ....

أو .....

« مغير أصوات » ....

تساءلت لحظة ، من نطق هذه العبارة ، ولكننى وجدت الأستاذ حازم يلتفت إلىّ ، قائلاً :

ـ أهذا ممكن ؟!

Looloo
www.dvd4arab.com

عندئذ فقط ، أدركت من نطق العبارة ....

لقد كان أنا ....

حماسى الداخلى جعله تفلت منى ، دون أن أدرى ....

ومع سؤال الأستاذ (حازم) ، ارتبكت ، ووقفت لحظة أحدّق فيه كالأبله ، مما رسم الغضب المعتاد على وجهه ...

أما الأستاذ (منير) فقد أتى رد فعله مختلفًا تمامًا .....

لقد التفت إلىّ فى لهفة ....

لهفة غريق ، وجد قشة أكثر نحولاً منى ليتعلق بها ....

وهنا ، لم يعد هناك بد من الإجابة ....

وقبل أن ينتقل الأستاذ (حازم) إلى حالة الصراخ ، اندفعت أخبرهما بكل ما سمعته من (حلمى) ، عن مغيرات الأصوات ، التى علمت فيما بعد أن اسمها بالانجليزية هو(voice changers) ....

والحقيقة انهما استمعا إلىّ فى اهتمام شديد ....

اهتمام ، ربما يكون أكثر بكثير من فهمى للأمر ....

وعندما انتهيت ، قال الأستاذ (حازم) فى جدية :

— إذن فهناك من استخدم مغيّر صوتى رقمى ، لكى يبلغك بالجريمة

بدا الأستاذ (منير) حائرًا ، وهو يقول :

— ولكن لماذا ؟!

كان المفترض أن آلم لسانى داخل حلقى ، أو ابتلعه وأصمت تمامًا ، ولكن عقلى المريض جعلنى أندفع ، قائلاً :

— لأنه شخص يمكنك تمييز صوته .

رمقنى الأستاذ (حازم) بنظرة نارية ، كادت تشعل حلتى الوحيدة المسكينة ، التى لو أحترقت ، لاحتجت إلى عام ونصف ، ببدل الجوع ، الذى نتقاضاه من المكتب ؛ حتى يمكننى شراء حلة أقل جودة منها ....

ولكن الأستاذ (منير) بدا شديد الأهتمام ، وهو يقول :

— فكرة معقولة جدًا

اختفت نظرة الأستاذ (حازم) فجأة ، وقال فى حسم ، مع شىء من التباهى :

— كل موظف فى مكتبى يجد أفكارًا معقولة .

Loolar
www.dvd4arab.com

ثم لوّح بيده ، فى حركة مسرحية ، مكملاً :

ــ إننى ألهمهم .

نطقها بنرجسيته المعتادة ، ولكن الأستاذ (منير) لم ينتبه إليها ، وربما لم يسمعه من الأساس ، وهو يقول :

ــ ولكن لماذا ؟!

بدا لى أنه يكرّر سؤاله السابق ، فقلت :

ــ أخبرتك أنه حتمًا شخص ...

قاطعنى فى توتر :

ــ لماذا أخبرنى بوقوع الجريمة أصلاً ؟!

بدا لى سؤاله منطقيًا للغاية ....

وبدا لى أنه لا جواب منطقى له ...

وقبل أن أندفع لألقى سؤالاً جديدًا ، بنفس أسلوبى الغشيم ، قال الأستاذ (حازم) فى صرامة ، ليس لها فى المعتاد ما يبرّرها أبدًا :

ــ ماذا فعلت بعد أن وصلك الخبر يا أستاذ (منير) ؟

شحب وجه الأستاذ (منير) ، وارتبك ، وهو يقول :

ــ شككت فى الامر .

كررّ الأستاذ (حازم) ، فى لهجة أكثر صرامة :

ــ وماذا فعلت ؟!

ازداد ارتباك الأستاذ (منير) ، وهو يقول فى خفوت ، وكأنه يخشى ما سينطق به :

ــ كان لابد آن أتأكّد !

قال الأستاذ (حازم) :

ــ وذهبت إلى مسرح الجريمة ..

أعجبنى المصطلح ، وربما لأننى من هواة التمثيل والمسرح والسينما ، وتخيّلت الأستاذ (حازم) على خشبة مسرح ، يؤدى دور (عبد الفتاح القصرى) وأمامه (محمود المليجى) فى دور الأستاذ (منير) ، الذى بدا كأنه سينكمش فى مقعده ، وهو يغمغم فى اضطراب :

ــ كان لابد أن أتأكّد .

مطّ الأستاذ (حازم) شفتيه ، فبدا أشبه بـ (علاء ولى الدين) رحمه الله ، فى فيلم (الناظر) ، وهو يقول :

ــ خطأ .

Looloo
www.dvd4arab.com

اندفع الأستاذ (منير) ، وهو يقول فى توتر شديد :

ــ ولكنه كان قتيلاً ، عندما ذهبت إلى هناك .

مطّ الأستاذ (حازم) شفتيه مرة أخرى ، وقال فى صرامة ، وكأنه يؤنب طفلاً فى العاشرة ، ارتكب شقاوة كبيرة :

ــ ولكنك تركت آثارك فى مسرح الجريمة .

هتف الأستاذ (منير) ، كتلميذ يدافع عن نفسه :

ــ لم ألمس شيئًا ... لقد وجدته صريعاً ، فهربت من المكان فورًا .

سألته أنا بنفس الاندفاع الطائش ،الذى سيكون وثيقة فصلى من المكتب ذات يوم :

ــ وماذا عن زر سترتك ؟!

هتف ، فى لهجة أقرب إلى البكاء :

ــ لم أره هناك ... ولم أفقده هناك أيضًا ... هناك من دسّه فى مسرح الجريمة حتمًا ...

غمغم الأستاذ (حازم) ، وكأنه يفكّر فى عمق :

ــ نفس الشخص ، الــذى استخدم مغيّر الصــوت الرقمى ، ليخبرك بالجريمة .

ثم ضرب سطح مكتبه بقبضته ، هاتفاً :

ــ القاتل الحقيقى .

بدا لى هذا أشبه بمشهد من فيلم بوليسى قديم ، والفنان الراحل (سراج منير) يلعب دور المحامى ، وابتسمت دون أن أدرى ، ثم أفقت من ابتسامتى على نظرة قاتلة من الأستاذ (حازم) ، فتنحنحت فى ارتباك ، وقلت أيضًا بذلك الاندفاع العبيط :

ــ وهل رآك أحدهم ، وأنت تفر من مسرح الجريمة .

شحب وجه الأستاذ (منير) فى شدة ، وانكمش أكثر وأكثر فى مقعده ، وهو يجيب بهمهمة غير مفهومة ، فمال الأستاذ (حازم) نحوه متسائلاً :

ــ عفوًا ؟!

ارتفع صوت الأستاذ (منير) قليلاً ، وهو يغمغم فى توتر :

ــ البوّاب .

وتراجع الأستاذ (حازم) فى حركة حادة ، فى حين اتسعت عيناى أنا حتمًا ....

Looloo
www.dvd4arab.com

فبالنسبة لما سمعته ، يبدو أن هذه ستكون القضية الرابعة ، التى سيخسرها المكتب ...

حتمًا .

* * *

لم يكن من السهل علىّ أبدًا ، فى أية مرحلة من عمرى ، أن أعرف ما يفكر فيه الآخرون وبالذات الأستاذ (حازم) ، الذى كلما تحدث أحدهم عن عقلى ، وصفنى ساخرًا بأننى أمتلك مخ البازلاء .....

وهذا المصطلح يدهشنى دومًا ، لأننى كنت أقرأه من لسان عم (دهب) ، وهو يصف به ..

(بطوط) ، على صفحات مجلة (ميكى) ، التى أداوم على قرأتها بانتظام ، وتستنزف جزءًا من دخلى المحدود ....

واستخدام الأستاذ (حازم) لهذا المصطلح ، يعنى أنه يداوم على قرأتها مثلى ، ولعله يدسّها بين صفحات المراجع القانونية الضخمة ، التى نراه يطالعها طوال الوقت ....

آه ..... لئيم هو (حازم) بك هذا .....

لئيم كمحام عقر .....

المهم أنه ، عندما أكّد الأستاذ (منير) أن بوّاب عمارة (صفوت) قد رآه ، انكمش هو فى مقعده ، أمام الأستاذ (حازم) ، الذى كاد يحترق جسده بنظرة كأشعة الليزر ، وأنا فى الواقع أجهل ما يمكن أن تفعله أشعة الليزر هذه ، سوى أنها تصلح عيوب الإبصار ، كما سمعت فى التليفزيون ، ثم لم يلبث أن هدأ ، وتراجع فى مقعده ، وضم راحتيه أمامه ؛ ليمنح نفسه ذلك المشهد الوقور ، قبل أن يقول :

ــ إنها قضية صعبة يا أستاذ (منير) .

ولأن الأستاذ (منير) لا يعرف من هو الأستاذ (حازم) ، ولا يدرى شيئًا عن أساليبه ، فقد ازداد انكماشه فى مقعده ، وهو يغمغم ، فى صوت أشبه بالضياع :

ــ أعلم هذا .

وهنا تنحنح الأستاذ (حازم) ....

وما أدراك ما هى تنحنحة الأستاذ (حازم)

أنها ليست نحنحة عادية ....

بل نحنحة سوبر ....

أنها تنفخ فيه كل شىء ...

Looloo
www.dvd4arab.com

وجنتاه تنتفخان ، ليصبح وجهه كبالون من بالونات الأعياد ...

وينتفخ كرشه ، ليفسح مكانًا لما سيطالب به ....

وينتفخ لسانه حتمًا ، لمنحه ذلك الصوت الفخم الغليظ ، والذى سمعته يقول به :

ــ سيكلفك دفاعى عنك ثروة .

بدا الأستاذ (منير) أشبه بفأر فى مصيدة ، وهو يقول :

ــ أعلم هذا أيضًا .

انطلقت الكلمات من بين شفتى الأستاذ (حازم) كالرصاصة :

ــ مليون جنيه .

بدا كأنه قد أفرغ فى الكلمة كل انتفاخه ، حتى خُيِّل إلىَّ أنه قد أطلق عاصفة هوائية ، فى وجـــه الأستاذ (منير) ، وأن كرشه الضخم قد انخفض بعدها ....

أما الأستاذ (منير) ، فقد غمغم فى انكسار :

ــ أنا مستعد .

تألّقت عينا الأستاذ (حازم) ، وهو يضيف فى ظفر :

ــ ومثلها بعد البراءة بإذن الله .

اعتدل الأستاذ (منير) ، وكأنما أعاد إليه لفظ البراءة الأمل ، وقال فى حماس :

ــ اتفقنا .

وهنا انتفخ الأستاذ (حازم) مرة أخرى ، وقال :

ــ بقى إجراء واحد .

كنت أعلم ما يقصده ، قبل أن يسأله الأستاذ (منير) :

ــ وما هو ؟!

أجابه فى حزم :

ــ أن تسلّم نفسك للقانون

وعاد الأستاذ (منير) ينكمش ....

وبشدة....

* * *

نفّذ الأستاذ (منير) تعليمات الأستاذ (حازم) بمنتهى الدقة . فبعد ساعة واحدة من المقابلة ، سلّم نفسه للشرطة ، التى اتهمته رسميًا بقتل صفوت ، وألقت القبض عليه ، وعملت على تسليمه للنيابة ....

Looloo
www.dvd4arab.com

وطبعاً لا يوجد فى المكتب كله من يدور فى كل الدوائر ، ويدوخ السبع دوخات فى هذا الامر ، سواى أنا ...

فالآنسة (حنان) سكرتيرة ....

و(حسن) ساعٍ ....

و(حلمى هولمز) هو الذى يراجع كل ملفات القضايا ، ويكتب كل المذكرات القانونية ....

والأستاذ (حازم) هو البك صاحب المكتب ....

وأنا .... أنا طبعاً مرمطون المكتب ....

وهكذا سرت وراء الأستاذ (منير) ، من القسم ، إلى الترحيلات ، إلى النيابة ....

وهناك فقط ، ظهر الأستاذ (حازم) بكرشه الضخم ، الذى يبدو أنه يمنحه شيئًا من الأهمية والوقار ، يجبر رجال النيابة والقضاء على معاملته باحترام كبير ....

ولقد جلس أمام وكيل النيابة فى وقار وفخامة ، وطالبه بالإفراج عن موكله ، بضمان محل إقامته ، وكيانه كعضو بارز فى المجتمع ....

وعلى الرغم من رصانته ، ابتسم وكيل النيابة فى سخرية ، وهو يقول :

ــ أنه اتهام شبه كامل يا أستاذ .... عشرات سمعوا الشجار بين القتيل والأستاذ (منير) ، وتهديدات كل منهما للآخر ، والمعمل الجنائى أكّد وجود بصمات حديثة له ، على باب شقة القتيل ، ووجود زر منتزع من كم سترته فى مسرح الجريمة ، أضف إلى هذا شهادة البوّاب ، الذى رآه يعدو خارجًا ، عقب الحادث مباشرة ، وأمكنه تعرّفه بمنتهى الدقة .

فنفخ الأستاذ (حازم) أوداجه مرة أخرى ، وقال فى فخامة :

ــ الناس تتشاجر كل يوم ، وانفلات الأعصاب يجعل كلاً منهم يوجّه إلى الآخر ألف تهديد وسباب ووعيد ، ولكن كل هذا ليس مبررًا للقتل .

اعتدل وكيل النيابة يقول :

ــ وماذا عن ملاحقة القتيل المستمرة له .... أليست مبررًا كافيًا ، لتخلص الأستاذ (منير) منه .

ابتسم الأستاذ (حازم) ، وأشار بيده فى حركة مسرحية ، قائلاً :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ حتى لو كانت مبررًا ، هل سيعجز مليونير ، مثل (منير صفوان) ، عن .. استئجار من يقوم بالمهمة بدلاً منه ؟!

قال وكيل النيابة ، فى لهجة بدت لى أقرب إلى التحدّى :

ـ وربما دفعته ثقته بنفسه ، إلى تنفيذ جريمته ذاتيًا ، حتى لا يشاركه أحد .. سره .

مال نحوه الأستاذ (حازم) قائلاً :

ـ وهل سيخطّط لهذا ، ولتنفيذه بنفسه ، ثم لا يرتدى قفازين ببضعة جنيهات ؛ ليخفى بصمات أصابعه ؟!

تراجع وكيل النيابة ، وبدا كأن منطق الأستاذ (حازم) قد أثار داخله موجة من التفكير ، وغمغم مرتبكًا :

ـ لم يحدث أبدًا ، أن تم الإفراج عن متهم ، فى جناية قتل بضمان محل إقامته ، أو حتى شخصيته فى المجتمع .

قال الأستاذ (حازم) فى سرعة :

ـ ربما بكفالة مالية .

هزّ وكيل النيابة رأسه ، وهو يقول فى خفوت :

ـ ومع كل هذه الأدلة ؟!.... مستحيل !

دون أن أدرى ، وجدت نفسى أندفع ، قائلاً :

ـ أستاذ (منير) ، ألا يوجد شاهد واحد ، على وجودك بعيدًا عن مسرح الجريمة ، وقت حدوثها ؟!

استدار إلى الأستاذ (حازم) بنظرة غاضبة صارمة ، والتفت إلىّ وكيل النيابة فى دهشة ، فى حين هزّ الأستاذ (منير) رأسه ، قائلاً فى أسى :

ـ لست أدرى حتى متى حدثت الجريمة :

مال وكيل النيابة نحوه ، يقول :

ـ ما بين الثالثة والخامسة ظهرًا .

هز الأستاذ (منير) رأسه مرة اخرى ، ثم فجأة ، تألقت عيناه ، وهتف :

ـ ما بين الثالثة والخامسة ؟!... بالطبع .... بالطبع ....

ـ ليس شاهدًا واحدًا .... بل شهودًا .

وهنا تألّقت عينا الأستاذ (حازم) بدوره ، واعتدل فى مقعده ، وأشار إلىّ قائلاً :

Looloo
www.dvd4arab.com

– (خالد) .... سأعطيك عشرين جنيهًا مكافأة .

وهنا أيقنت من أنه يتابع مجلة (ميكى) ، ويتأثر بشخصياتها أيضًا ، لأنه فى هذه اللحظة ، كان يلعب دور أحد شخصياتها ... عم (دهب) .

* * *

3 ـ الشـهود ..

منـذ بدأت عملى مع الأسـتاذ (حازم) ، بمرتب أخجل أن أذكره ، أو حتى أتذكّره ، تعلّمت حقيقة مهمة جـدًا ، خالفت كل ما كنت اتصوّره ، عن المحاكم والقضايا ...

وعن السينما أيضًا ...

ففى الأفـلام القديمـة ، كنـت أشـاهد (حسـين ريـاض) أو (عماد حمدى) ، وهو يترافع فى قضية ما ، مرافعة بليغة ، ثم يأتى بشاهد إثبات فى اللحظة الأخيرة ، فيقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ، ويدفع حكم البراءة إلى فم القاضى دفعًا ، وتلتهب عيوننا بالبكاء ، وأكفنا بالتصفيق ، و ...

وينجح الفيلم ...

وفى آخر فيلم شاهدته ، كـان أحمـد عز يحـل اللغز فى المحكمة ، ويبرئ (غادة عادل) ، ويضع نور فى السجن ، ونحن محتارون ، هل نفرح لأنه برّأ (غادة) الرقيقة ، أم نبكى لأنه أدخل نور الجميلة السجن ؟!..

ولكن فى المحاكم الحقيقية ، تعلمنا أن الصورة تختلف تمامًا ...

Looloo
www.dvd4arab.com

وبالذات فى الجنايات ...

فرجال القـانون يؤكدون دومًا ، أن القضاء المدنى قضاء مستندات ، فى حين أن القضاء الجنائى قضاء وجدان ...

وبالطبع لم أفهم هذا فى البداية ...

لم أفهم بالضبط ما يعنيه ...

وخصوصًا أن لى جارة اسمها (وجدان) ، تنتظر عودتى كل ليلة ، وأنا منهك مهدود ومكدود ؛ من العمل المضنى فى مكتب عم (دهب) ، الشهير بالأستاذ (حازم) ، فقط لتلقى علىّ تحية المساء ، وهى تبتسم ابتسامة واسعة ، كما أخبرنى أهل الخير؛ لأنه لا نظرى ، ولا الحالة التى أعود عليها ، يسمحان لى برؤية أى شىء ، عندما يأتى المساء ...

ولقد أدهشنى فى البداية أن يكون لـ (وجدان) صلة بالقضاء ، ولكن (حلمى هولمز) أفهمنى فى صبر ، ما تعنيه العبارة ...

ففى القضاء الجنائى ، قد يأتى المتهم بعشرات الشهود ، الذين يحلفون ألف يمين ، على أنهم يشهدون بالحقيقة ، ولكن وجدان المحكمة ، المتمثلة فى القاضى ، لا يطمئن لشهادتهم ، فلا يأخذ بها ، وكأنك يا أبا زيد ما غزيت .....

لهذا ، فأى محام قديم ، مثل الأستاذ (حازم) ، لا يمكن أن يلقى ثقله أبدًا على أقوال الشهود فقط ...

ولكن فى حالة الأستاذ (منير) ، لم يكن هناك سبيل آخر ...

وجاء الشهود إلى النيابة ...

والشهود كانوا فى الواقع سكرتيرته الجديدة (ماسى) ، وبعض عملاء مكتبه ، الذين كانوا موجودين فى حجرة السكرتيرة ، فى نفس الموعد ، الذى حدّده الطبيب الشرعى ، لوقوع الجريمة ...

ما بين الثالثة والخامسة ظهرًا ...

ولقد استمعنا جميعًا لأقولهم ... بمنتهى الدقة ...

السكرتيرة (ماسى) أكّدت بشدة أن الأستاذ منيـر لم يغادر مكتبه فى ذلك اليـوم ، من منتصف النهـار حتى الخامسة والنصف ، على الرغم من أنه كان شديد العصبية طوال الوقت ، ورفض أن يقابل مخلوقًا واحدًا ...

« هذا يعنى أن أحدًا غيرك لم يره ، فى ذلك اليوم .. » ..

ألقى عليها وكيل النيابة السؤال على نحـو مفاجئ ، فقالت مصدومة :

ـ كـلا بالطبـع .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثم استدركت ، فى سرعة وعصبية :

ــ ولكنهم جميعًا سيشهدون بأنه كان هناك .

لم أفهم سر تأكيدها ، ومن الواضح أن الأستاذ حازم ووكيل النيابة أيضًا لم يفهماه ، فقد سألها الأخير فى صرامة :

ــ وكيف هذا ؟!..

أشارت بيدها فى حماس سينمائى ، قائلة :

ــ لقد اتخذ قرارات حاسمة ، فى كل ما يخصّهم ، وبعضهم سمعه بنفسه ، وهو يصرخ فىّ؛ لإغلاق الباب خلفى ، و ....

استفاضت فى الدفاع عن موكلها ، الذى ظل صامتًا منكسرًا طوال الوقت ، حتى اكتفى منها وكيل النيابة ، واستدعى باقى الشهود ، الذين أكّدوا كلهم ما قالته ، وأضاف إليه بعضهم أنهم يعرفون صوت الأستاذ (منير جيّدًا ، وأنه من المستحيل ألا يكون هو من سمعوه ، حتى مابعد الخامسة بقليل ...

وبناءً عليه ، صار الأمر متأرجحًا ، بين جهات أمنية ، تصرّ على اتهام الأستاذ (منير) ، وشهود يؤكدون براءته ، ولم يعد أمام وكيل النيابة عندئذ ، سوى أن يصدر قراره بالإفراج عنه بكفالة مالية كبيرة ، وتحويل الأمر برمته للقضاء ..

« لست أدرى ماذا أقول !!.. هذا أفضل ما كنت أتمناه » ...

هتف بها الأستاذ (منير) ، فور خروجنا من النيابة ، بعد أن دفعت (ماسى) كفالته ، فرسم الأستاذ (حازم) على وجهه ملامح الصرامة والرصانة ، وهو يقول :

ــ الأمر لم ينته بعد ياأستاذ (منير)؛ فمازالت هناك قضية ، ومازالت الجهات الأمنية تصرّ على اتهامك .

اندفعت (ماسى) قائلة فى حماس حار :

ــ أنا واثقة من براءة الأستاذ (منير) .

بدا لى حماسها زائدًا عن الحد ، ولكننى أعزيته لحظتها للظروف ، ولأنه مخدومها ، فى وظيفة جديدة ، ولكننى ، وكالمعتاد ، اندفعت أقول :

ــ هذا لا يهم .

توقّف الأستاذ حازم ، والتفت إلىّ بتلك النظرة النارية ، التى تبدو لى دومًا ، كأنها تقول : « كيف لتافه مثلك أن يتدخّل ، فى عمل أساتذة ؟؟!!.. » ، مما جعلنى أبحث ببصرى عن أقرب بالوعة ، يمكننى أن أختبئ فيها؛ لأن ما سأجده داخلها ، سيكون حتمًا أفضل مما سأجده ، فى المكتب ، عند عودتى ...

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن العجيب أن الأستاذ (منير) سألنى فى اهتمام بالغ ، ودون أدنى ضيق :

ــ لماذا تقول هذا ؟!..

اختلست نظرة إلى الأستاذ (حازم) ، الذى أشاح بوجهه عنى فى ازدراء ، وهو يركب سيارته ، التى فتح الأستاذ (منير) بابها الآخر ، وهو مازال ينظر إلىّ فى اهتمام ؛ منتظرًا الجواب ، مما جعلنى أجيب فى خفوت :

ــ لأنه ليس المهم أن تثق سكرتيرتك فى برائتك ... المهم أن يثق فيها القضاة ..

ركب السيارة ، فى المقعد الخلفى ، وهو يهز رأسه مفكرًا ومتفهمًا ، وركبت إلى جواره (ماسى) ، فى حين تردّدت أنا لحظات ، حتى قال الأستاذ (حازم) ، فى لهجة صارمة ، أعرفها ، وأدرك تبعاتها جيدًا :

ــ اركب .

وركبت ...

وبعد أن رحل الأستاذ (منير) وسكرتيرته ، وصعدنا إلى المكتب ، استقبلنا الجميع بنظرات فضول وتساؤل ، حوّلتهما الآنسة (حنان) وحدها إلى لغة مسموعة ، وهى تقول :

ــ إذا تمّ فى النيابة ؟!..

أجابها الأستاذ (حازم) فى صرامة ، وهو يتجه مباشرة إلى مكتبه :

ــ كيف يمكنك أن تقلقى ؟ ..

ثم استدار إلينا ، قبل أن يغلق باب المكتب خلفه مباشرة ، وأكمل :

ــ لقد كان الأستاذ (خالد) معى هناك .

قالها ، وصفق الباب بكل قوته ...

وران على المكان كله صمت رهيب ....

صمت نطقت خلاله العيون بألف ألف اتهام ....

ثم فجأة تحوّلت كل هذه الاتهامات الصامتة ، إلى صوت مسموع ...

بل متفجّر ...

Looloo
www.dvd4arab.com

« ماذا فعلت أيها التعس ؟!.. » ..

هتف بهـا (حلمى) فى استنكار ، فى نفس اللحظـة التى صاحت فيها الآنسة (حنان) ، فى لهجة مدرسة ، تؤنب تلميذًا خائبًا :

ـ كنت أعلم أنك ستفسد الأمر !.. غمغم (حسن) : إعدام ؟!

ـ قلت فى سخافة متعمّدة :

ـ إفراج بكفالة ..

ـ هزّ (حلمى هولمز) رأسه فى رصانة ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أن هناك قضية .

ـ أجبته فى شىء من الإحباط ، أردته معبرًا :

ـ وهل كنتم تتصوّرون غير هذا ؟!.. مالت الآنسة حنان نحوى ، قائلة :

ـ المهم ماذا فعلت بالأستاذ ؟..!

قبل أن أفتح فمى لأجيب ، فتح الأستاذ باب مكتبه ، وقال فى هدوء شديد :

ـ تعـال .

وامتقع وجهى ، وأنا أنهض إليه؛ فمن طبيعة الأستاذ ، أنه إذا ما تحدث بهدوء شديد ، إلى شخص يغضب منه ، فهى دلالة على أنه أعد له انتقامًا رهيبًا ...

ـ وبقدميـن مرتجفتين ، دخلـت مكتبـه ، ولم أنطق بحرف واحـد ....

ـ ونطق هو ....

ـ وعندئذ أدركت أننى كنت على حق فيما توقّعته ...

ـ الأستاذ (حازم) لم يعد يلعب دور عم (دهب) ...

ـ إنه يلعب الآن دور (عادل أدهم) ...

ـ فى فيلم (المنتقم) .

* * *

من باب التأديب والتهذيب والإصلاح ، أعطانى الأستاذ (حازم) ملف قضية

(منير صفوان) كله ، وهو يقـول بنظرة ساخنة ، وابتسامة كبيرة متشفية :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ أريدك أن تراجع كل شيء بنفسك .... ادرس الملف حرفًا بحرف ، وليس كلمة بكلمـــة ، وراجع شهادات الشهود ، وشهادة السكرتيرة (ماسى) ، واذهب إلى مسرح الجريمة ، واستجوب كل من تجده هناك ... أريد أية معلومات ، يمكن أن تقودنا إلى دليل براءة ... هل تفهم ؟!... أية معلومات .

خرجت من مكتب الأستاذ ، وأنا أحمل الملف كله ، ونظرة يأس مريرة تطلُّ من عينيَّ بوضوح حتمًا ، لأننى وجدت الجميع يحدقون فيَّ ، وسمعت الآنسة (حنان) تغمغم فى أسى :

ـ يا للمسكين !

وسألنى (حلمى) فى توتر :

ـ ماذا ستفعل بهذا الملف ؟!..

أجبته فى يأس :

ـ كل شيء .

بدا عصبيًا وهو يسألنى :

ـ هل أسنده إليك الأستاذ كله ؟!..

قلت ، وأنا أجلس خلف مكتبى فى إحباط :

ـ للأسف .

هتف فى غضب :

ـ وماذا عنى أنا ؟!... هل سأكتفى بكتابة مذكرات الدفاع فحسب .

غمغمت الآنسة (حنان) فى خبث :

ـ هذا ما تجيده .

صاح بها محتدًا :

ـ هل نسيت من أنا ؟!.. أنا (حلمى) ... (حلمى هولمز) ... أنا العقل النشط فى هذا المكتب .

أجابته بنفس الخبث :

ـ حسنًا أيها العقل النشط ، لا ترهق عقولنا معك بهذا الصراخ ... أكمل مذكراتك فى صمت.

قالتها ، والتفتت إلىَّ بنظرة مشجعة ، ربما لأشاركها هذا العبث ، ولكننى أشحت بوجهى ، مع ما أشعر به من إحباط ، ونفور شديد من فكرة المزاح ، فى نفس الوقت الذى انحنى فيه (حسن) على أذنى ، وسألنى :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ أترغب فى كوب خروب خشن ؟

التفتُ إليه بحركة حادة ، وأنا أنوى الانفجار فى وجهه ، ولكن نظرى ارتطم بوجـــه الأستاذ (حازم) وكرشه الضخم ، وهو يزمجر كغوريلا غاضبة ، هاتفًا :

ـ أما زلت تجلس هنا ؟!..

قفزت من خلف مكتبى ، واختطفت الملف ، وأنا أعدو نحو الباب ، هاتفًا :

ـ كنت فى سبيلى للانصراف فورًا.

خرجت من المكتب مهرولاً ، وكأن الأستاذ (حازم) سيعدو خلفى ، على الرغم من ثقتى فى أنه لن يستطيع هذا ، مهما كانت لديه الرغبة فيه ، فمع كرش كمنطاد صغير ، سيعد المشى فى ذاته مغامرة ، غير مأمونة العواقب ...

كل ما فعلته هو أننى تشبثت بالملف ، حتى لا أفقده ، أو أفقد ورقة واحدة منه ، حتى وصلت إلى الشارع ، فوقفت أمام المبنى ألهث لبضع لحظات ، قبل أن أسترد أنفاس ، وأغمغم فى حنق شديد :

ـ ألا يوجد سواى فى هذا المكتب ؟!..

لم يجبنى أحد بالطبع ، ولا حتى نفسى ، فالتقطت أنفاسى مرة أخرى ، وبدأت أحسبها ..

مسرح الجريمة فى (مصر الجديدة) ، ومكتبنا فى المهندسين ، وهذا يعنى أننى أحتاج إلى مواصلة خاصة ....

وهذه مشكلة ....

فعم (دهب) .... أقصد الأستاذ (حازم) ، يمكن أن يكلف السفر إلى المريخ ، والعودة فى اليوم نفسه ، ولكن من رابع المستحيلات أن يدفع ولو حتى ثمن تذكرة أتوبيس ...

المفترض إذن أن أحصل على أقل القليل ، وأنفق نصفه على الانتقالات فى الوقت ذاته ..

وبحسبة بسيطة ، قرَّرت أن أستقل الميكروباص ، من المهندسين إلى محطة رمسيس ، ثم أنتقل إلى مترو (مصر الجديدة) من هناك ...

كان هـــذا كفيـــل بتوفير نصف جنيـــه ، يكفى لشراء باكو بسكويت ، إذا ما قرصنى الجوع ..

هذا لأننا لا نحصل على بدل تغذية أيضًا

Looloo
www.dvd4arab.com

المهم أننى ، تحت الشمس الحارقة ، قطعت هذه الرحلة ، التى جعلتنى أشبه بالرحالة (إنديانا جونز) ، وهو يبحث عن الكنوز الأثرية المفقودة ، وإن كنت أتمنى طبعًا ألا أواجه تلك الأهوال ، التى يواجهها فى أفلامه ....

فمن ناحية النشاط والحركة ، ولقطات الأكشن ، أنا أقرب إلى (إسماعيل ياسين) ، فى فيلم (ابن حميدو) ، على أقصى تقدير ...

المهم أننى فى النهاية ، سواء كنت (ابن بطوطة) أو (بطوط) نفسه ، وصلت إلى مسرح الجريمة ...

كان المكان مغلقًا ، والبواب يتابعنى بنظرة شك ، وكأنه يدرسنى جيدًا ، وأنا أتجه إلى شقة (صفوت) القتيل ، ومن الواضح أنه قد استشف من مظهرى أننى ضئيل الشأن ، إلى حد يستحيل معه أن أكون أحد ضباط الشرطة ، أو حتى أحد خبراء المعمل الجنائى ، فقد هتف بى فى خشونة :

ـ ماذا تريد يا أستاذ ؟!...

أجبته ، محاولاً وضع أكبر قدر ممكن من الغطرسة والتعالى والصرامة فى صوتى :

ـ هذه شقة القتيل ... أليس كذلك ؟!..

واضح أن أسلوبى لم يفلح قط ، فقد أجابنى فى خشونة أكثر :

ـ ماذا تريد منها ؟!..

أجبته فى سرعة :

ـ أنا محامى المتهم .

كنت أتصوَّر أن هذه العبارة ستكفى ؛ لكى يمنحنى شيئًا ، ولو قليلاً من الاحترام ، ولكنه زمجر زمجرة أشبه بزمجرة وحيد القرن (وإن كنت لم أسمع زمجرة وحيد القرن) وهتف :

ـ اذهب إلى النيابة إذن ، واحصل على إذن بدخولها .

وقفت حائرًا مرتبكًا ...

كيف فاتنى هذا ؟!...

كيف فاتنى أن دخول شقة ، كانت مسرحًا لجريمة قتل ، سيستلزم حتمًا تصريحًا من النيابة ...

Looloo
www.dvd4arab.com

وهذا التصريح يحتاج إلى يوم كامل للحصول عليه ، مما يعنى أن هذا اليوم ، مع كل رحلة العذاب فيه ، قد ضاع هباءً ....

إلا إذا ....

قفزت الفكرة إلى رأسى فجأة ، فسألت الرجل فى اهتمام :

ـ قلت : إنك رأيت الأستاذ (منير) يخرج من هنا مسرعًا ، قبل اكتشاف الجريمة ... أليس كذلك ؟

زفر فى توتر ، وكأنه مضطر لتكرار أمر يبغضه ، وقال :

ـ كان يجرى وكأنه قد فعلها للتو .

سألته :

ـ ومتى تم كشف الجريمة بعدها ؟

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ الأستاذ ترك باب الشقة مفتوحًا ، مع سرعة فراره ، ولقد أقلقنى هذا ، فطرقت الباب ، ورننت الجرس عدة مرات ، ولم يستجب أحد ، جعلنى أدخل فى حذر ، ففوجئت بالحال .

أدهشنى قوله ، فسألته ، فى اهتمام أكبر :

ـ هذا يعنى أنك قد دخلت الشقة ، قبل حضور رجال الشرطة .

أشار إلى صدره ، قائلاً :

ـ أنا أبلغت رجال الشرطة .

فسألته ، وكأننى أحاول الإيقاع به :

ـ ولكنك اتهمت الأستاذ (منير) مباشرة ، فهل أمكنك تعرّفه بهذه السرعة ، على الرغم من أنها أوّل مرة تراه فيها ؟!..

بدت عليه الحيرة ، وهو يقول :

ـ أوّل مرة ؟!... كلا .... إنها ليست أول مرة.

انتقلت حيرته إلىّ أنا ، وأنا أسأله :

ـ هل رأيته قبلها ؟!...

أجاب فى سرعة :

ـ بالطبع ... إنه يدفع إيجار شقة الأستاذ (صفوت) منذ أكثر من عام

ومن المؤكّد أن ملامحى صارت صورة مجسّمة للبلاهة حينذاك ..

فقد كانت المفاجأة مدهشة ...

إلى أقصى حد .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

4 ـ المفاجـأة ..

ليست هناك ذرة واحدة من الشك ، فى أن بوّاب البناية قد تأكّد ، فى تلك اللحظة من أننى شخصية بلهاء ؛ فهذا ما أقوله لنفسى كل صباح ، عندما ألتقى بوجهى فى مرآة الحمام ذات الزاوية المكسورة ....

فما بالك بملامحى ، فى موقف كهذا ....

لقد حدّقت فى وجه الرجل على نحو عجيب ، جعله يسألنى فى قلق :

ـ ماذا بك يا أستاذ ؟!

حاولت بسرعة استعادة ملامحى القبيحة ، متصوّرًا أن هذا حتمًا أفضل مـن ملامحى البلهاء ، وأنا أقول ، فى شىء من الحدة :

ـ ولماذا لم تقل هذا لرجال الشرطة ؟!

قلب كفيه ، مجيبًا فى بساطة :

ـ لم يسألنى أحد .

ثم استعاد شعوره بالحذر وعدم الاحترام ، وهو يضيف .

ـ أأنت محامى الأستاذ (منير) ، أم عائلة المرحوم .

أجبته فى سرعة ، محاولاً اكتساب لمحة من احترامه :

ـ محامى الأستاذ (منير)

بدت عليه دهشة حقيقية ، وهو يسألنى :

ـ لماذا تطلب منى إبلاغ الشرطة بهذا إذن ؟!

أربكنى سؤاله ، وجعلنى أفيق من أوهامى ، وأدرك أننى مجرّد وكيل محام ، لكرش الأستاذ (حازم) ..

أو لجزء منه على الأقل ....

هناك نقاط عديدة تغيب عن ذهنى ...

نقاط حيوية للغاية ....

نقاط جعلتنى أجيبه فى عصبية :

ـ لم أطلب منك إبلاغهم ... فقط سألتك إذا كنت قد فعلت .. مال نحوى ، متسائلاً فى شىء من الخبث

Looloo
www.dvd4arab.com

ــ وهل تريد منى ألا أفعل ؟!!

أدهشنى أسلوبه هذا ، ولكنه أعطانى لمحة عمن يكون ....

هذا حتى قبل أن يعتدل ، مكملاً بلهجة خاصة :

ــ أنا رهن إشارتك .

كان من الواضح أنه يطلب رشوة ، مقابل إغلاق شفتيه ، وإخفاء المعلومة ....

رشوة لم أكن بقادر على منحه إياها ، حتى لو أردت ...

ففى جيبى الهزيل ، لم أكن أملك سوى أجر العودة إلى منزلى ، بالإضافة إلى جنيهات قليلة ، تكفى بالكاد للأيام الثلاثة المتبقية ، قبل موعد قبض أجر الشهر التالى ....

وكمحاولة لمحاورته ، سألته فى حذر :

ــ وماذا عن العدالة ؟

قلب شفتيه فى غضب ، وقال :

ــ أية عدالة ؟!.. (صفوت) هذا كان يستحق القتل ألف مرة .

أدهشنى رد فعله ، ودفعنى إلى سؤاله :

ــ لماذا بالضبط ؟!

أشار بيده إشارة حادة ، وهو يجيب :

ــ كان يحيا على نفقة الأستاذ (منير) ، وعلى الرغم من هذا ، لم يدفع أجرى منذ شهور .

بدت لى هذه نقطة تستحق التوقف ، فسألته :

ــ ولماذا لم تطلبها من الأستاذ (منير) ؟!

هتف محنقًا :

ــ رفض أن يدفعها .

بدا لى الأمر عجيبًا حقًا ...

الأستاذ (منير) يدفع أجر الشقة ، ويرفض أن يدفع جنيهات قليلة أجرًا للبوّاب ...

فلماذا ؟!...

لماذا ؟!....

وفجأة ، خطرت ببالى فكرة ...

فكرة جعلتنى أسأل البوّاب ، فى لهفة لم أستطع مداراتها :

www.dvd4arab.com

ـ منذ متى يقيم الأستاذ (صفوت) هنا ؟!

مط شفتيه ، وهز كتفيه ، قائلاً :

ـ منذ ثلاثة عشر شهرًا .

ثم استطرد فى حدة :

ـ ولم يدفع أجرى ، إلا خمسة أشهر منها فحسب .

اعتقد أن عبارته الأخيرة دخلت عقلى الباطن فقط ، فقد كان عقلى الواعى منشغلاً للغاية ....

ثلاثة عشر شهرًا ، أى نفس الموعد ، الذى لقيت فيه السكرتيرة السابقة للأستاذ (منير) مصرعها ...

السكرتيرة ، التى هى فى الواقع شقيقة (صفوت)...

الأستاذ (منير) إذن يدفع إيجار شقة شقيق السكرتيرة ، التى اتهموه بقتلها ....

وذلك الشقيق يطارده ، ويتهمه بقتل أخته ...

ثم يموت !!....

فما الذى يعنيه كل هذا ؟!...

ما الذى يعنيه ؟!....

* * *

« أنت شخص غبى ... » ...

صدمنى الأستاذ (حازم) بهذه الصرخة ، بعد أن رويت له كل ما حدث ، وازداد احتقان وجهه على نحو جعلنى أشبهه بثمرة بطيخ بدون قشرة ، وهو يكمل :

ـ لماذا لم تنبه البوّاب أيضًا أن يفعله ، حتى يضمن خسارتنا لقضيتنا .

غمغمت ، محاولاً منع ارتجافتى :

ـ إنه لن يخبر الشرطة ؟!..

هتف فى غضب :

ـ ومن أدراك ؟!...

أجبته مرتبكًا :

ـ هو قالها ؟!...

صرخ ، وهو يضرب سطح المكتب فى قوة ، جعلته يبدو أشبه بالرجل الأخضر ... أو الأحمر على وجه الدقة :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ وماذا عن محامى الخصم ... هل سيعده أيضًا بأن يتحدَّث .

اتسعت عيناى ، وأنا أغمغم مصدومًا :

محامى الخصم ؟!

صرخ فى ثورة :

ـ ألم أقل لك : إنك غبى ... هل تصوَّرت أن عائلة (صفوت) لن توكل محاميًا ، لأدانة من قتل ابنها ؟!

سألته فى توتر :

ـ ومن هو ؟!

كاد يشد شعر رأسه ، أو ما تبقى منه ، وهو يصرخ

ـ غبى ....غبى....غبى.

أدركت أن كل حرف أنطق به ، يأتينى برد فعل صارم غاضب ، لذا فقد آثرت الصمت ، وانكمشت فى ركن المكتب ، وهو يكمل كعاصفة ذات كرش ضخم :

ـ لا يهم من هو المحامى بالضبط ... المهم أنه سيكون هناك حتمًا واحد يقف ضدنا ، ولابد أن نمنعه من معرفة ما قاله البوَّاب ، الذى رفضت أن تعطيه رشوة ، أيها البخيل الأحمق ...

بخيل ... وأحمق ؟!...

أنا ؟!...

فكرت جديًا ، فى هذه اللحظة ، فى أن ألقى نفسى من نافذة المكتب ، لأتخلص من هذه الحياة البائسة ....

أو إلقاء نفسى تحت أوّل سيارة مسرعة ، فور خروجى من هنا ....

وماذا عن أسطوانة الغاز نصف الفارغة فى مطبخى ...

أو ذلك السكين اليتيم الوحيد الذى أمتلكه ....

أو الـ ....

« هل تسمعنى ؟! » ....

انتزعتنى صرخة الأستاذ (حازم) من أفكارى الانتحارية ، فأومأت إليه برأسى إيجابًا ، دون أن أنبس ببنت شفة ، فأخرج من جيبه رزمة نقود ، ألقاها فى عنف على سطح مكتبه ، وهو يقول فى حدة :

ـ هيا ... عد إلى البوَّاب ، واشترِ سكوته .

Looloo
www.dvd4arab.com

أحنقنى المبلغ الضخم ، الذى سيرش به البوّاب ، وإن كنت أعلم أنه سيأخذ ضعفه من الأستاذ (منير) ، ولكننى عدت مستسلمًا إلى ذلك البوّاب ، الذى استقبلنى فى برود عجيب ، وهو يسألنى :

ــ خيرًا ..

ناولته المبلغ ، وأنا أقول فى حقد واضح :

ــ أهذا يكفى ؟!...

تفقد المبلغ فى لا مبالة واضحة ، وكأنه اعتاد التعامل بمبالغ كبيرة ، ثم قال فى استهتار :

ــ هل تريد معرفة أى شىء آخر ؟!..

قلت فى حزم غاضب :

ــ هذا لكى تغلق فمك .

دس المبلغ فى جيب جلبابه ، وهو يقول :

ــ أنا رجل كريم .

أحنقنى أسلوبه أكثر ، وسألته ، من باب الاستفادة بكل قرش من المبلغ :

ــ هل كان هناك من يتردَّد على (صفوت) فى انتظام ؟!

أجاب فى سرعة :

ــ فقط تلك الفتاة .

سألته فى دهشة :

ــ أية فتاة ؟

شمله حماس ، ليس له ما يبرره ، وهو يصف تلك الفتاة فى دقة مدهشة ، كان وصفها ينطبق على فتاة أعرفها جيدًا ....

(ماسى) .... سكرتيرة (منير صفوان) الجديدة .

* * *

وفقًا لما رواه لى بوّاب البناية ، فالسكرتيرة (ماسى) كانت تتردَّد بانتظام على (صفوت) ، مرة واحدة شهريًا على الأقل ، وتقضى معه ما يقرب من نصف الساعة ، ثم تنصرف ....

وخلال الشهرين الماضيين ، زادت نسبة ترددها عليه ، على نحو ملحوظ ، فقد أصبحت تزوره مرة أسبوعيًا ، ولمدة ساعة كاملة ، ثم تنصرف بعدها مسرعة ، متحاشية أن يراها أحد ....

www.dvd4arab.com

ولقد كانت آخر زيارة لها ، قبل مقتل (صفوت) بيوم واحد بالضبط ....

وعلى الرغم من أننى لم ألق على البوّاب سؤالاً آخر ، فقد أطلق ما عرفته فى ذهنى سؤالاً خطيرًا للغاية .....

ما علاقة (ماسى) بالقتيل بالضبط ؟!...

وهل يعلم الأستاذ (منير) بهذه العلاقة ؟!...

هل ؟!....

تركت البناية ، وعدت أستقل مترو (مصر الجديدة) ، متجهًا إلى محطة (رمسيس) ، وذهنى يموج بأسئلة فرعية ، كادت تلتهم رأسى بلا رحمة ....

ثم ، هل أخبر الأستاذ (حازم) بهذا الجديد ، وأحتمل اتهامه لى بالغباء مرة أخرى ، أم أخفى هذا فى أعماقى ؟!...

لم يكن الجواب عسيرًا ، فور أن تذكّرت كيف كنت أقف أمامه مرتجفًا كالفأر المذعور ، الذى ينكمش أمام أكبر قط بكرش ، فى الدنيا كلها ، مرتجفًا مذعورًا ، ينتظر لحظة التهامه ....

وأنا نحيل للغاية ، لن يشبع التهامى أحد ، اللهم إلا كلبًا من الكلاب الشرهة ، التى تهوى قرقشة العظام .....

انتفض جسدى ، وأنا أتخيل صوت قرقشة عظامى ، ووجدت نفسى أهتف :

ــ يا للبشاعة !

التفت إلىّ كل ركاب المترو فى دهشة مستنكرة ، وشعرت أنهم جميعًا يرددن الكلمة نفسها ، وهم ينظرون إلى وجهى القبيح ، وجسدى النحيل غير المتناسق ...

ولأننى قوى العزيمة شديد الحساسية ، فقد تركت المترو ، قبل أن يصل إلى محطة (رمسيس) ، قبل أن تخترقنى نظرات الركاب ، وتصم أذنىَّ همهماتهم الساخطة ....

وعلى مسار محطتى مترو ، رحت أسير فى الطريق ، وأنا ألعن تلك الكلمة ، التى أفلتت منى ، دون أن أشعر ...

ولكن هذه التمشية الإجبارية ، كان لها تأثير كبير على ترتيب أفكارى فى هذا الشأن

الأستاذ (منير) لا يعلم حتمًا علاقة (ماسى) بـ (صفوت) شقيق سكرتيرته الراحلة ، والذى ظل يبتزه بتهديداته المستمرة ، بأن يشوّه سمعته ، عن طريق اتهامه المستمر بقتل شقيقته ، ولكى يتفاداه الأستاذ (منير) ويحافظ على سمعته ،

www.dvd4arab.com

استجاب لتهديداته ، وراح يسدد عنه إيجار شقته فى انتظام ، وفقاً للاتفاق ...

لهذا رفض دفع راتب بوّاب البناية ؛لأنها خارج الاتفاق ...

أما (ماسى) ، فقد دسَّها (صفوت) على (منير) ، حتى تنقل إليه أخباره أوّلاً بأوّل ، فيظل تحت سيطرته طوال الوقت ....

تحليل ممتاز ، جعلنى أشعر وكأننى (ماجد المصرى) ، بجسده الضخم ، وعضلاته المفتولة ، وهو يلعب دور مخبر سرى عبقرى ، و .....

وفجأة ، ارتطم ذهنى بسؤال ، حوّلنى من (ماجد المصرى) إلى (ماجد الكدوانى) دفعة واحدة ...

كل هذا جميل ، ولكنه لا يجيب السؤال الأساسى ...

من قتل (صفوت) ؟!....

من صاحب المصلحة من قتله ؟!....

الأستاذ (منير) لديه شهود عديدون ، على أنه كان بعيدًا عن مسرح الجريمة ، عند ارتكابها .....

و(ماسى) كانت معه ، ولا مصلحة لها فى مقتل (صفوت) ....

والبوّاب ....

لحظة .... لماذا لم يتهم أحد البوّاب ؟!....

إنه يكره (صفوت) ، وتشاجر معه أكثر من مرة ، وبصماته ستتواجد حتمًا فى مسرح الجريمة ، وهو برَّرها بدخوله إلى هناك ، عقب انصراف الأستاذ (منير) مباشرة ....

فلماذا نفترض أنه صادق فى هذا ؟!...

الأستاذ (منير) قال : إن (صفوت) كان صريعًا ، عندما وصل إليه ، فلماذا لا يكون البوّاب قد قتله قبلها ؟!...

لماذا ؟!...

انتبهت فجأة إلى أننى قد تجاوزت محطة (رمسيس) ، وأصبحت قريبًا من ميدان التحرير ، دون أن أنتبه إلى هذا ، فى غمرة انشغالى بالتفكير فى الأمر ....

وفور انتباهى إلى هذا ، شعرت بآلام مبرحة فى ساقىَّ النحيلتين ، وبدت الرؤية مشوّهة أمام عينىَّ ، فتوقفت مستندًا إلى جدار قديم ، وأنا أسب الأستاذ (حازم) فى أعماقى ؛ لأن

لولا تقمصه لشخصية عم (دهب) ، لوجدت ما يكفى لأستقل سيارة تاكسى إلى منزلى ...

وعلى الرغم منى ، أكملت السير حتى ميدان التحرير ، ومن هناك استقللت ميكروباصًا إلى منزلى ....

ونمت ...

لا أستطيع أن أصف إلا بأننى قد نمت ، فما أن وصلت إلى منزلى ، حتى ألقيت ملابسى ، وقفزت إلى السرير .... ونمت ...

وعندما استيقظت فى الصباح التالى ، شعرت بثقل كبير يجثم على صدرى ، ويرهق أنفاسى ...

لم يكن مرضًا والحمد لله ، وإنما كان شعورى بأنه يجب أن أبدأ كل شىء من جديد ....

وبمنتهى الإرهاق ، أنهيت الروتين اليومى ، وغادرت منزلى فى تكاسل معتاد ، وانتظرت الميكروباص التقليدى ، وركبته ، وأنا أقاوم رغبتى الشديدة فى استمرار النوم ، حتى لاأفقد نقطة نزولى ، وقررت التركيز على الطريق ، حتى وصلت إلى قرب المكتب ، فاتجهت إليه ، وأنا أشعر بضيق شديد ؛ لأننى سأواجه الأستاذ (دراكيولا) ...

أقصد الأستاذ (حازم) مرة ثانية ، و....

وفى بلاهة ، كادت تصبح سمة من سمات شخصيتى ، وقفت أحدق فى باب المكتب المغلق ....

إنها التاسعة إلا ست دقائق ، ومن غير الطبيعى أن يكون الباب مغلقًا حتى هذه اللحظة ..

صحيح أن (حلمى) والآنسة (حنان) يصلان فى التاسعة ، أو بعدها بقليل .... أو كثير ، ولكن (حسن) يصل دومًا فى الثامنة ؛ ليقوم بتنظيف المكتب ، وترتيبه ، وإعداده لوصولنا ، و ....

توقفت أفكارى دفعة واحدة ، عندما وقع بصرى على تلك اللوحة الصغيرة ، المعلَّقة على باب المكتب ....

اللافتة التى تحوى مواعيد العمل الرسمية ....

وشعرت فى أعمق أعماقى بغضب ، ما بعده غضب ....

المكتب ، كمعظم مكاتب المحامين ، يحصل على إجازته الأسبوعية يوم الخميس ، باعتبار أن الجمعة إجازة محاكم ، والسبت يوم عمل ، ومعظم العملاء لا يحضرون المستندات المطلوبة لقضيتهم ، إلا فى آخر لحظة ، مما يستتبع أن تكون

www.dvd4arab.com

مكاتب المحامين ، فى أغلبها مفتوحة أيام الجمع ، ومغلقة أيام الخميس .....

وأنا لم أنتبه إلى هذا ، وانتزعت نفسى من فراشى ، وتحملت زحمة وضوضاء الميكروباص ، وجئت إلى مكان أبغضه .... فى يوم الإجازة ...

مرة أخرى ، شعرت أننا داخل مجلة (ميكى) ، وأننى واحد من أهم وأشهر شخصياتها ..

(بندق) ....

* * *

أرجوكم ، لا تسألونى كيف حدث هذا ، ولا كيف قادتنى قدماى إلى هناك ، ولكننى وجدت نفسى فجأة ، فى مكتب الأستاذ (منير) ، فى شارع جامعة الدول العربية ....

ولقد استقبلتنى السكرتيرة (ماسى) فى دهشة ، وهى تقول :

ــ أستاذ (خليل) .... يالها من مفاجأة !

قلت مصححًا :

ــ (خالد) ... اسمى (خالد) يا آنسة (ماسى) .

ألقت نظرة طويلة علىَّ ، من أعلى إلى أسفل ، قبل أن تمط شفتيها ، قائلة :

ــ (خليل) يناسبك أكثر .

لم أفهم بالضبط ما تعنيه بهذا ، واشتممت فيه رائحة سخرية من نوع ما ، ولكننى كتمت هذا فى أعماقى ، وأنا أقول :

ــ والداى لم يوافقاك الرأى .

ابتسمت ابتسامة غامضة ، وهى تقول :

ــ ربما لم يتوقعا ما ستكون عليه ..

هضمت هذا أيضًا فى صعوبة ، وشعرت أنه أصابنى بشىء من عسر الهضم ، وهى تضيف ، فى لهجة أشبه بالتحذير :

ــ هل تريد مقابلة الأستاذ (منير) ؟!..

تجاهلت سؤالها تمامًا ، وأنا أسألها مباشرة :

ــ منذ متى تعملين هنا يا آنسة (ماسى) ؟!

بدا كأن السؤال قد فاجأها ، فتراجعت بحركة حادة ، وهى تقول فى عصبية :

ــ وما شأنك بهذا ؟!

Looloo
www.dvd4arab.com

كنت أهم باختراع جواب ما ، عندما سمعت صوتًا هادرًا يهتف فى غضب :

ـ ماذا تفعل هنا ؟!

وكاد قلبى يتوقَّف بالفعل ....

فالصوت كان صوت (دراكيولا) ....

الأستاذ (حازم) ..... شخصيًا .

* * *

5 ـ دراكيـــولا ..

كنت أنوى أن أروى لكم ما فعله بى الأستاذ (حازم) ، الذى ذهب لمقابلة الأستاذ (منير) ؛ ليحصل على شيك من شيكاته ، عنـــدما فوجئ بى هنـــاك ، ولكـــن كرامتى تأبى علىَّ أن أروى هـــذا ....

أو هى تلك الإصابة فى فكى ....

أو كلاهما ....

المهم أننى لن أروى ما حدث ، وسأكتفى بأن أقول : إن المواجهة مع مصاص الدماء (دراكيولا) ، كانت ستبدو أشبه بفيلم كوميدى ، مقارنة بما حدث ....

المهم أننى غادرت مكتب الأستاذ (منير) ، وأنا أجر أذيال الخيبة ، وساق مصابة بركلة مباشرة ، وركبت الميكروباص اللعين ، الذى لا يحترم أى قاعدة من قواعد المرور ، ولا حتى قاعدة (أرشميدس) ، والذى يسير فى الطرقات فى سرعة ، متصورًا أنه

(موتوسيكل) ....

Looloo
www.dvd4arab.com

المهم أنه قد أوصلنى إلى منزلى ، الذى لم أكد أدخله ، حتى أطلقت العنان لتأوهات الألم ، التى كتمتها فى أعماقى طوال الطريق ، وتركت دموعى تنهمر على وجهى ، من شدة القهر والألم ، وحاولت أن أصنع لنفسى كوبًا من الشاى ، ولكننى واجهت عقبتين رئيسيتين ....

لم يكن لدىَّ سكر ...

ولم يكن لدىَّ شاى ....

لذا ، فقد اكتفيت بالاستلقاء على فراشى ، الذى لم أغير ملاءاته منذ ستة أشهر ، وأنا أسترجع كل شىء ....

بالطبع لم أسترجع ما فعله بى الأستاذ (دراكيولا) ؛ لأننى بطبعى أكره الخوض فى الأمور المحزنة والمؤلمة ....

لقد استعدت فقط تفاصيل قضية الأستاذ (منير) ....

واستوقفتنى بضع نقاط أساسية ....

لماذا لم يوجه أحد أى اتهام للبوَّاب ...

ولماذا انزعجت (ماسى) ، عندما سألتها متى بدأت عملها ، عند الأستاذ (منير) ؟!...

وهنا أدركت أننى قد أخطأت ، عندما وجهت هذا السؤال إلى الآنسة (ماسى) ، فقد كان ينبغى أن أوجهه إلى الأستاذ (منير) نفسه ، ولكن أسلوبها الاستفزازى معى ، هو الذى دفعنى إلى توجيه هذا السؤال إليها ....

ثم إن وصول (دراكيولا) أفسد كل شىء .....

وما فعله معى سيمنعنى من دخول مكتب الأستاذ (منير) مدى الحياة ...

أو ربما بعد هذا أيضًا .....

غرقت طويلاً فى هذه الأفكار ، وأنا راقد على فراشى ، و .... اسيقظت فجأة ....

لم أدر حتى متى استغرقت فى النوم ، ولكننى استيقظت على رنين هاتفى المحمول الصغير جدًا ، صاحب الرنين المرتفع جدًا ، فقفزت من فراشى مذعورًا ، وصرخت صرخة عالية ؛ لأننى هبطت على ساقى المصابة ، ولكننى تحاملت على نفسى ، والتقطت الهاتف ، قائلاً فى صوت امتزج فيه الألم بالفضول :

ـ من ؟!..

وجاءنى آخر صوت أتخيل سماعه فى الدنيا ، وهو يقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ أستاذ (خالد) ..

خيَّل إلىَّ فى البداية إننى لم أميز الصوت جيدًا ، ثم لم ألبث أن تعرَّفته ، فقلت فى لهفة و حماس :

ـ الأستاذ (منير) ؟!

قال فى هدوء ، لا يتناسب مع شخص متهم بارتكاب جريمة قتل :

ـ دعنى أولاً أعتذر عما حدث فى مكتبى .... لقد حاولت منع الأستاذ (حازم) ، ولكنه كان ثائراً للغاية ، ولست أدرى لماذا ؟!

غمغمت فى مرارة ، مسترجعاً العلقة كلها :

ـ أنا أعرف .

لم يبد لى أنه حتى قد سمع ما قلته ، وهو يقول :

ـ الأستاذ (حازم) لا يعرف لماذا جئت إلى مكتبى ، ولعل هذا سبب ثورته ، فهل تسمح لى بسؤالك عن هذا ، دون أن أسبب أى حرج ؟!

أدهشنى أسلوبه شديد الاحترام والتهذيب ، ربما لأننى لم أعتده لا منه ، ولا من أى شخص آخر ، فهتفت فى حماس :

ـ بالطبـع .

سألنى فى اهتمام شديد :

ـ لماذا زرت مكتبى ، يا أستاذ (خالد) ؟!

خُيِّل إلىَّ أن لهجتـه قد فرغت من ذلك التهذيب اللطيف ، واكتسبت رنة شرسة إلى حد ما ، فأجبت فى تردُّد :

ـ أردت فقط أن أسالك ، منذ متى تعمل الآنسة (ماسى) لديك ؟!

جاوبنى صمت مطبق لعدة ثوان ، قبل أن يقول الأستاذ (منير) ، فى شراسة واضحة هذه المرة :

ـ ولماذا أردت هذا ؟!

قلت مرتبكًا :

ـ أردت فقط أن أعرف ، لو أن ....

قاطعنى فى توتر عصبى :

ـ هل تشك فى (ماسى) ؟!

من المؤكَّد أن صمتى قد أصابه بالمزيد من التوتر ، فقال فى حدة :

ـ فيم تفكر ؟!

Looloo
www.dvd4arab.com

أدهشنى بشدة ذلك التحوّل الشديد فى أسلوبه ، فقلت مرتبكًا بشدة :

ـ أستاذ (منير) .... أنا أدرس كافة الاحتمالات فحسب .

قال فى حدة :

ـ لا يوجد أى احتمـــال ... (ماسى) كانت معى هنا فى المكتب ، فى الموعد الذى حددتموه لوقوع الجريمة .

قلت مندهشًا :

ـ ولكننى لم أتهمها قط بارتكابها .

سألنى فى لهجة ، أقرب إلى الصراخ :

ـ فيم تشك فيها إذن ؟!

لم أجد بداً من أن أصارحه بالموقف ، وأنا أقول :

ـ أستاذ (منيـــر) ، هـــل كنت تعلم بوجـــود علاقة بين سكرتيرتك والأستاذ (صفوت) ؟!

طال صمته هذه المرة ، قبل أن يقول ، فى صوت واضح الغضب :

ـ من أخبرك بهذا ؟!

أجبته مترددًا :

ـ بوّاب بناية (صفوت) .

طال صمته ، وطال ، وطال ، حتى إننى سألته فى قلق :

ـ أستاذ (منير) ..... أمازلت هناك ؟!

أجابنى بصوت مختنق :

ـ أشكرك يا أستاذ (خالد) .... أشكرك كثيرًا .

وقبل أن أسأله عما يعنيه ، أنهى الاتصال دفعة واحدة ...

وانعقد حاجباى فى توتر ....

لقد كان الأستاذ (منير) يتحدَّث من تليفون مكتبه ، وعندما أنهى المحادثة ، ظل الخط بعدها مفتوحًا لحظة ، سمعت بعدها صوت إغلاقه ....

وكان هذا يعنى شيئًا واحدًا .....

هناك من كان يستمع إلى المحادثة ....

ومن داخل مكتب الأستاذ (منير) ...

وكرد فعل غريزى ، قفز إلىَّ اسم واحد ....

(ماسى) .....

Looloo
www.dvd4arab.com

وشعرت بقلق شديد ....

فلو أنهـا من كان يستمع إلى حديثى مع الأستاذ (منير) ، فهذا يعنى أنها تعرف أمرين مهمين الآن .....

أولهما أننى قد كشفت علاقتها بالقتيل (صفوت) .....

وثانيهما أننى أخبرت الأستاذ (منير) بهذا ....

فكيف سيكون رد فعلها إذن ؟!...

كيف ؟!....

شغلنى الأمر كثيرًا ، حتى إن الوقت مرَّ سريعًا ، وهبط الليل ، وتوغَّل ، حتى بلغت الساعة منتصف الليل تقريبًا .

ولسبب ما ، شعرت برغبة عارمة فى شرب كوب من الشاى ، فى هذا الوقت المتأخر ، على الرغم من معرفتى أننى لا أمتلك السكر ، أو حتى الشاى....

فكّرت أن أقترض بعض الشـاى والسكر ، من جارى الأستاذ (على) ، ولكننى تذكّرت كيف ترمقنى زوجته بنظرات نارية ملتهبة ، كلما رأتنى على السلم ، وتصوَّرت ما يمكن أن تفعله بى ، لو دققت بابهم ، فى هذه الساعة .....

ولما كانت رغبتى فى شرب الشاى ملحَّة ، قررت أن أتحامل على نفسى ، وأهبط إلى ذلك المقهى ، عند ناصية الشارع ،

لتناول كوب من الشاى ، وصـل ثمنه إلى جنيه كامل ، وأمرى إلى الله ....

فعلتها ، وغادرت المنزل ، وبدأت أهبط فى درجات السلم ، لخمسة طوابق كاملة ، و ...

التقيت بهذين الرجلين على السلم ....

اثنان ليسا من سكان البناية ، ويبدوان أشبه بالمصارعين ، رمقانى بنظرة شرسة ، وأحدهما يسألنى خشونة :

ـ أتعرف أين شقة (خالد خيرى) ؟!

أدهشنى سؤالهما ، فقلت فى تردد :

ـ أنا (خالد خيرى) .... من يريدنى ؟!

لم ينطق أحدهما بحرف واحد ...

فقط انقضا علىَّ ، وحملانى كورقة شفَّافة ، ودون أية مناقشة ، ألقيانى فى بئر السلم

من الطابق الرابع ..

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

منذ طفولتى ، وأنا مصاب بهلع مرضى من المرتفعات ، حتى أننى أعجز عن مجرَّد النظر من مكان مرتفع ....

وعندما بدأت رحلة البحث عن شقة صغيرة ، فى قلب القاهرة ، كنت أبحث باستماتة عن شقة فى الطابق الأرضى ، أو حتى تحت الأرضى ، ولكن من العسير ، بل من المستحيل ، فى بلد مثل (مصر) ، وفى عاصمة تعد من أكثر عواصم العالم ازدحامًا ، مثل (القاهرة) ، أن تسكن فى شقة تناسبك ، وخاصة لو كنت مثلى ، تبحث عن شقة صغيرة ، تناسب إمكانياتك ، شبه المنعدمة .....

وللأسف ، لم أجد سوى شقة صغيرة (جدًا) ، من حجرة واحدة ، فى الطابق الخامس من بناية نصف قديمة ، ارتفاعها خمسة طوابق فحسب ....

ولا أصف الشقة بالطبع ، فهى مجرَّد حجرة واحدة ودورة مياه ، وقليل جدًا جدًا من الأثاث ، ولها نافذة واحدة ، لم أفتحها منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام ، هى كل فترة إقامتى فى الشقة ....

تصوَّر الآن حال شخص مثلى ، يلقيه مصارعان قويان ، من الطابق الخامس !!...

الأمر كله لم يتجاوز لحظات ، بدت بالنسبة لى أشبه بدهر كامل ، وأنا أسقط ....

وأسقط ....

وأسقط ....

ويمكنك أن تكرر هـذا السطر الأخيـر ، إلى ما لا نهاية ، وتضيف إليه أننى كنت أصرخ .... وأصرخ ، ويمكنك تكرار الكلمة إلى أبد الآبدين ....

كنت واثقًا من أننى أشهد آخر لحظات حياتى البائسة ، ولم أدر لحظتها هل ينبغى أن يفرحنى هذا ؛ لأننى سأنهى عمرًا من الفشل والإحباطات المتتالية ، أم يحزننى ؛لأننى لم أحظ بكوب الشاى بعد ؟!....

وعلى أية حال ، فالوقت لم يكن يكفى للشعور بهذا أو ذاك ؛ فقبل حتى أن أتخذ قرارى ..

ارتطم جسدى ....

ولم أصدق نفسى حينذاك .....

لقـد كان أشـبه بما يحدث فى أفلام السينما الساذجة ، التى تمتلئ بالمصادفات المدهشة ، دون أى تبرير منطقى ....

www.dvd4arab.com

فأنا لم ارتطم بالأرض ....

بل بكومة كبيرة من الأثاث والمفروشات ، التى أحضروها لفرش شقة العروس الجديدة ، فى الطابق الأول ....

فجأة ، شعرت بجسدى يرتطم بمرتبة أسفنجية سميكة ، ثم يرتفع بضعة سنتيمترات ، ويرتطم بها مرة ثانية ، ثم ينزلق عنها إلى كنبة كبيرة ، ومنها إلى الأرض ....

كانت صدمتى بالأرض مؤلمة ، ولكنها لن تقارن طبعًا بما يمكن أن تكون عليه ، لو ارتطمت بالأرض ، فى غياب هذا الأثاث ....

المهم أننى ، وأنا ملقى أرضًا ، سمعت صوت المصارعين يهبطان فى درجات السلم فى سرعة ، فمنحنى هذا قوة مدهشة ، جعلتنى أقفز واقفًا على قدمىَّ ، وأعدو بكل قوتى خارجًا ....

ولأن الشارع الذى أسكنه صغير ، وفى حى شعبى معروف / متلاحم لمنطقة المهندسين ، فقد هبَّ الجميع إلىَّ فى دهشة وقلق ، والتفوا حولى يسألوننى عن سبب كل هذا الذعر الذى يملؤنى ....

وبكل رعب وارتجاف الدنيا ، أخبرتهم ....

ولثوانٍ ، حدَّق فىَّ الجميع ، كما لو كنت مجنونًا ، ثم فجأة ، وكما يحدث فى الأحياء الشعبية كلها ، اندفع الجميع فى حماسة وشهامة نحو منزلى ؛ بحثًا عن المصارعين ....

والمدهش أنهم لم يعثروا لهم على أدنى أثر !!!...

من الواضح أنهما قد استغلا حالة الهرج والمرج فى الحى ، ولاذا بالفرار بأقصى سرعة ....

ولكن عملية البحث استغرقت ما يقرب من ثلاث ساعات كاملة ، فى المبنى والمبانى المجاورة ، قبل أن يقول المعلم (ماجد) ، صاحب المقهى فى استخفاف :

ــ يبدو أنه كان كابوسًا يا أستاذ (خالد) .

كان ينطقها دومًا بتفخيم حرف الخاء ، على نحو مستفز ، جعلنى أقول ، فى شىء من الحدة :

ــ وهل سيلقينى الكابوس من الطابق الخامس ؟!..

نظروا إلى بعضهم فى حسرة ، كما لو أنهم يسمعون قصة مجنونة كصاحبها ، ثم ربَّت المعلم (ماجد) على كتفى ، قائلاً :

Looloo
www.dvd4arab.com

– عد إلى منزلك يا أستاذ (خالد) ، وتأكد من إحكام الغطاء حولك هذه المرة ...

لم أحاول حتى مناقشته ، أو معاتبته على ما قاله ، ونسيت حتى أن أتناول كوب الشاى ، وأنا أعود إلى شقتى ، وأغلق بابها علىَّ فى إحكام ، وأضع خلفه المنضدة اليتيمة التى أملكها ، والتى سيزيحها هذان المصارعان كلعبة صغيرة حتمًا ، إذا ما عادوا مرة اخرى ....

كانت الساعة قد تخطت الثالثة صباحًا ، فحاولت أن أنام ، حتى يمكننى القيام بالواجبات المعتادة ، وتحمل سخافات كرش الأستاذ (حازم) ، عندما أذهب إلى المكتب ، بعد بضع ساعات ....

ولكن هيهات ....

هيهات أن يزور النوم عينًا رأت ما رأيته أنا ، فى هذه الليلة الليلاء ....

هيهات ...

ولخمس ساعات كاملة ، ودن أن أرفع عينىَّ عن باب الشقة ، رحت ألعن ذلك الذى تورَّطت فيه ....

صحيح أننى أسعد كثيرًا بلعب دور (شيرلوك هولمز) ، إلا أننى لست مستعدًّا أبدًا للعب دور (جيمس بوند) ....

مهما كانت الأسباب ....

صحيح أن (شون كونورى) يمتلك جاذبية خاصة ، وكذلك (روجر مور) و(ثيموثى دالتون) ، و(بيرس برسنان) ، وحتى (دانيال كريج) ، إلا أن أحدًا منهم لا يشبهنى قط ....

كلهم لديهم لحم يكسى عظامهم على الأقل ....

ثم لماذا حاول هذان المصارعان قتلى ؟!...

لا ريب فى أننى قد عرفت سرًّا ، لم يكن ينبغى أن أعرفه ....

سر عرفوا أننى أعرفه ....

أهى علاقة (ماسى) بالقتيل ؟!...

أم إن الأستاذ (منير) كان يدفع إيجار شقة صفوت ؟!....

بحسبة بسيطة ، أدركت أن الاحتمال الأول هو الأكثر منطقية ، خاصة أننى واثق من أن (ماسى) قد سمعت حديثى مع الأستاذ (منير) ، عندما أخبرته بهذا ....

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن هل يمكن أن تمتلك (ماسى) هذه العقلية الإجرامية ، التى تدفعها إلى استئجار قاتلين محترفين ؛ لقتل شخص ضئيل مثلى ، كان يكفيه كلبًا من نوع اللولو ، لأداء المهمة نفسها بكفاءة ؟!...

أم إن لها شريكًا آخر ؟!

كانت الساعة تدق تمام الثامنة ، عندما قفزت إلى ذهنى هذه الفكرة ، وقفزت أنا بدورى من فراشى ، وانا أرتجف حماسًا ....

نعم ... هذا يفسر كل شىء ....

(ماسى) لها شريك .....

شريك قتل (صفوت) ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه هى تثبت وجودها فى المكتب ، مع الأستاذ (منير) .....

لهذا أكدت حجة غيابه فى حماس ....

فحجة غيابه ، تعتبر فى الوقت ذاته ، حجة غيابها هى ....

ولكن من هذا الشريك ؟!...

مـن ؟!....

* * *

كان صباحًا مرهقًا منذ بدايته ....

الميكروباص صدم سيارة شرطة ، والتف المخبرون حوله ، وسمعنا صوت رنين أكفهم على قفا السائق ، واضطررنا للنزول ، وإيقاف ميكروباص آخر ، ووصلت إلى المكتب متأخرًا نصف ساعة كاملة ، والأسوأ أننى وجدت الأستاذ (حازم) هناك ، بكرشه الضخم ، ووجهه البطيخى الغاضب ، وصراخه الذى كاد يلقينى خارج المكتب كعاصفة من النار ، فور دخولى ....

وعلى غير المعتاد ، وبخنى الأستاذ (حازم) أمام الجميع ، ولكنه لم يستخدم يديه أو قدميه كالمعتاد ، والحمد لله ، ثم طردنى تقريبًا من المكتب ، ليس بصفة دائمة ، ولكن لكى أكمل جمع ما يريد من معلومات ، وهو يصرخ فى وجهى :

ــ نريد معلومات لصالح الموكّل ، وليس ضده أيها الغبى .

خرجت من المكتب مسرعًا ، حتى أهرب من نظرات الزملاء ، وما إن أصبحت فى الشارع ، حتى شعرت براحة عجيبة ....

Looloo
www.dvd4arab.com

راحة جعلتنى أستقل أول ميكروباص صادفنى ، واتجه به إلى محطة (رمسيس) ، فى طريقى إلى (مصر الجديدة) ، حيث منزل القتيل ....

وعندما وصلت إلى المكان ، وقبل أن أتجه إليه مباشرة ، رأيت مشهدًا جعلنى أتسمر فى مكانى لحظة ، ثم أسرع بالاختفاء ....

لقد كانت (ماسى) هناك ، تقف مع البوَّاب ، وتتحدَّث إليه فى مودَّة مدهشة ....

مودَّة جعلتنى أدرك الحقيقة ....

حقيقة شريك (ماسى) .

* * *

6 ـ الشـريـك ..

ربع الساعة ، قضتها (ماسى) تتحدَّث إلى بوَّاب البناية ، فى مودة شديدة ، توحى بأنهما يعرفان بعضهما منـذ زمن ، وفى نهاية المحادثة ، رأيتهما يتصافحان ...

لم تكن مصافحة بالمعنى المعروف ، ولكن (ماسى) كانت تضع فى يده رزمة مالية ، من فئة المائتى جنيه ، التقطها هو متظاهرًا بمصافحتها ، قبل أن يدس الرزمة فى جيبه فى سرعة ، وتنصرف هى ....

زمن طويل مضى ، منذ أن رأيت ورقة مالية من فئة المائتى جنيه ، فما بالك برزمة كاملة منها ؟!....

ثم إننى ، ودون أن أشعر ، وجدت نفسى أحقـد على ذلك البـوَّاب ، وأتسـاءل : لمـاذا أخطـأت فى اختيار مهنتى ؟... لماذا ؟!....

كانت (ماسى) تقرب من حيث أختبئ ، وهى تتحدَّث عبر هاتفها المحمول ، فتواريت خلف كشك صغير ، وشعرت بها تمر إلى جوارى ، وهى تقول عبر الهاتف :

ـ إنه يعلم ، ولكنه لن يخبر أحدًا ... اطمئن .

Looloo
www.dvd4arab.com

أدهشتنى تلك العبارة تمامًا ، فمنذ لحظات ، تصوَّرت أننى قد حللت اللغز ، وعرفت من هو شريك (ماسى) ....

كنت أتصوَّر أنه البوَّاب ، ثم انسحق هذا التصوَّر سحقًا بعبارتها هذه ، والتى تشير إلى أنها كانت ترشيه ، ولا تتحدَّث فقط معه ....

هناك شريك آخر ... شريك خفى ...

تبعتها سرًا فى حذر ، فى محاولة لمعرفة شىء عنها ...

أى شىء ....

وهناك ... عند الناصية التالية ، كانت هناك سيارة تنتظرها ، وبداخلها شاب وسيم قوى ، مفتول العضلات ، يحاول إخفاء ملامحه بنظارة شمس ضخمة ....

وفى خطوات سريعة ، اتجهت (ماسى) نحو السيارة ، وقفزت داخلها ، فانطلقت بها السيارة على الفور ....

وكما ينبغى أن يفعل أى مخبر يقظ ، أسرعت ألتقط وأدوِّن رقم السيارة ، قبل أن تختفى عند نهاية الشارع ....

ودون إضاعة ثانية واحدة ، استقللت ميكروباصًا آخر ، إلى إدارة المرور مباشرة ....

لم تكن السيارة مسجَّلة فى إدارة مرور القاهرة ، ومشكلة الأرقام الجديدة ، ذات الحروف الثلاثة والأرقام الثلاثة ، أنها لا تحدَّد إلى أية إدارة مرور تنتمى السيارة ....

والمشكلة فى أنها لا تتبع إدارة مرور (القاهرة) ، أننى مضطر لركوب ميكروباص آخر ، حتى إدارة مرور (الجيزة) ....

كان الامر يستلزم دفع إكرامية ، التهمت تقريبًا كل ما تبقى من راتبى ، حتى أحصل على اسم وعنوان مالك السيارة ....

(أحمد منصور شوكت) ....

كان الاسم يظهر لأوَّل مرة فى القضية ، ولكننى حملت الورقة ، التى تحمل اسمه وعنوانه ، وعدت إلى المكتب ؛ لأستدين خمسة جنيهات من الآنسة (حنان) ، التى رمقتنى بنظرة ساخرة ، وهى تسألنى :

ــ ماذا أصابك ؟... هل تلعب القمار هذه الأيام ؟!...

أجبتها فى حسرة :

ــ بمرتب كالذى نتقاضاه هنا ، يمكن أن يفلسنا إدمان الفول السودانى واللب .

Looloo
www.dvd4arab.com

ضحكت بشدة ، وراقــت لهــا عبارتى ، على الرغم من مرارتها ، ولكن الأهم هو أنها قد أعطتنى الجنيهات الخمسة ، التى اختطفتها من يدها اختطافًا ، وأنا أعدو خارجًا كالمجنون ...

كان الأمر قد سيطر علىَّ تمامًا ، حتى لم يعد بالنسبة لى مجرَّد قضية ، من قضايا المكتب ، بل صار قضية شخصية ...

وشخصية جدًّا أيضًا ....

فبعد محاولة قتلى أمس ، أصبح حل لغز القضية بالنسبة لى ، مســألة حيــاة أو موت ، فما داموا قد فعلوها مرة ، لن يمنعهم أى شىء مــن فعلها مــرة ثانية ، أو حتى ثالثة ، حتى يضمنوا ســكوتى ....

إلى الأبد ....

مرة أخرى حقدت على ذلك البوَّاب ؛ لأنهم اكتفوا برشوته ، حتى يغلق فمه ، ولم يحاولوا رشوتى ، بدلاً من قتلى !!!..

يالأوغاد !!...

خرجت من البناية ، ورأيت لحسن الحظ سيارة ميكروباص تتجه نحوى ، فأسرعت أعبر الطريق ، وأنا أهتف بسائقها :

ــ قف ...

وفجاة ، سمعت صرير إطارات قوية يقترب منى ....

ثم شعرت بالصدمة ....

صدمة عنيفة ، طار معها جسدى فى الهواء بمعنى الكلمة ، ودون أدنى مبالغة ، وارتطم بذلك الميكروباص ، ثم سقط على الأرض ... « لقد فعلوها مرة أخرى » ...

كان هذا آخر ما جال بخاطرى ، قبل أن تظلم الدنيا من حولى ...

تمامًا ...

* * *

للمرة الأولى فى حياتى ، أعرف ما هى الغيبوبة ، التى تحدث كثيرًا لأبطال معظم الروايات التى أقرؤها طوال عمرى .....

للمرة الأولى أمر بها ، وأفقد وعيى فجأة ، وأفتح عينىَّ ، وأحدق فى الوجوه التى مالت تتطلَّع إلىَّ ، وأنا ما زلت أرقد على أرض الشارع ، مما يعنى أننى لم أستغرق وقتًا طويلاً ، بين فقدان الوعى واستعادته ....

كانت هناك وجوه عديدة مجهولة بالنسبة لى ، وبينها وجهان فقط أعرفهما .... (حسن) ، و(حلمى هولمز) ...

Looloo
www.dvd4arab.com

كانا مذعورين حقًا ، ولقد هتف الثانى فى لهفة ، فى نفس اللحظة ، التى فتحت فيها عينىَّ :

ــ أأنت بخير ؟!

سألته فى دهشة :

ــ ألم أمت بعد ؟!

ابتسم (حلمى) وهو يقول :

ــ للأسف !

وأضاف (حسن) ، فى لهفة متوترة :

ــ لقد كنت تعبر الشارع مسرعًا ، فصدمك ميكروباص آخر .

هتفت فى دهشة :

ــ ألم يحاولوا قتلى ؟!..

سمعت صوتًا يهتف فى غضب :

ــ ولماذا نحاول قتلك يا أستاذ ؟!.. أنا لا اعرفك أصلاً !

كان سائق الميكروباص الذى صدمنى ، يدافع عن نفسه ؛ فقلت فى سرعة ، وأنا أحاول النهوض :

ــ لا بأس ... أنا المخطئ ... لقد عبرت الشارع فى سرعة ، ودون أن أنظر .

عاوننى (حلمى) على النهوض ، وهو يقول للسائق مهددًا :

ــ نحن مكتب محام ، وسنلاحقك قضائيًا .

راح السائق يحاول الدفاع عن نفسه ، وعن رعونة قيادته ، واستهتاره بكل قوانين المرور ، وتجاهلته أنا تمامًا ، وأنا أستند إلى ذراعى (حسن) و(حلمى) ، الذى هتف بنفسى اللهجة التهديدية ، ونحن نتجه إلى البناية :

ــ لقد حصلنا على رقمك ، وستبيع هذا الميكروباص ؛ لتسدد التعويض الذى سنطلبه .

هتف السائق بعبارتين ساخطتين ، كل ما فهمته منهما هو أن كل الركاب قد غادروا الميكروباص بعد الحادث ، دون أن يدفعوا الأجرة ، و ...

وفجأة قفزت إلى ذهنى فكرة ، بدت لى آنذاك عبقرية ، فتملّصت من ذراعى (حسن) و(حلمى) ، وأنا التفت إلى السائق ، قائلاً :

ــ إلا إذا ....

Looloo
www.dvd4arab.com

رمقنى (حلمى) بنظرة صارمة غاضبة ، و(حسن) بنظرة مندهشة حائرة ، فى حين تساءل السائق فى لهفة :

ــ إلا إذا ماذا ؟!

أجبته فى حزم ، تقمصت خلاله شخصية (رشدى أباظة) :

ــ إلا إذا أوصلتنى إلى شارع الثورة فى (مصر الجديدة) .

وتفجرت دهشة الجميع ....

بلا استثناء ....

ولكنه فعلها ....

وأوصلنى إلى هناك ....

إلى عنوان (أحمد منصور شوكت)....

كان يقيم فى الطابق الثالث من بناية جديدة ، فى منتصف شارع الثورة تقريبًا ، وأسفله مطعم شهير ، آلمت الروائح المنبعثة منه معدتى ، وذكرتها بالجوع الذى أعانيه منذ الأمس ، وبأن الجنيهات الخمس فى جيبى ، لن تكفى حتى ثمن ساندويتش صغير منه ..

المهم أننى قاومت جوعى ، وسددت أنفى ، وأنا أسرع إلى البناية وأتجه مباشرة إلى مصعدها الفاخر ، وحارس البناية يلاحقنى ، هاتفًا :

ــ إلى أين يا أستاذ ؟!

تظاهرت بالدهشة ، وأنا أقول :

ــ ألم يخبرك (أحمد بك شوكت) ، بأننى قادم إليه ؟!...

لقد طلب منى الحضور على وجه السرعة

أجابنى فى صرامة :

ــ لابــد أن أتصل به أولاً .

أتجه نحو الهاتف الداخلى ، فأسرعت أستقل المصعد إلى الطابق الثالث ، وأنا أسمعه يهتف خلفى :

ــ انتظر يا أستاذ

لم يكن العثور على شقة (أحمد) عسيرًا ، فى الطابق الذى يضم أربع شقق ؛ فقد كانت تحمل لافتة باسمه ، فأسرعت أضغط جرس الباب ، وسمعت خطوات تقترب ، و ....

ووفتح الباب ....

Looloo
www.dvd4arab.com

وكدت أشهق بمنتهى القوة ....

فالذى فتح الباب لم يكن (أحمد) ....

كان (ماسى) ....

السكرتيرة (ماسى) .

* * *

لو أنك لم تر أبدًا ذلك الذهول المصدوم ، الذى تقرأ عنه فى الروايات البوليسية ، لكان ينبغى أن تشاهد وجه الآنسة(ماسى) ، عندما فتحت الباب ، فوجدتنى أمامه ...

لقد اتسعت عيناها على نحو ، لم أتصوَّره أبدًا ممكنًا ، ومال عنقها برأسها إلى الأمام ، وسقطت شفتها السفلى على نحو مضحك ، فى حين سمعت صوتًا شابًّا من الداخل ، يسألها :

ــ هل وصل ؟!

ابتسمت وأنا أقول :

ــ مساء الخير يا آنسه (ماسى) .

لم تنطق (ماسى) بحرف واحد ، من شدة صدمتها ، فى حين ظهر ذلك الشاب ، الذى كان ينتظرها فى السيارة خلفها ، وتطلَّع إلىَّ فى دهشة حذرة ، وهو يقول :

ــ من أنت ؟!

أجبته ، محاولاً بث أكبر قدر من الحزم فى صوتى :

ــ أنا (خالد) يا أستاذ (أحمد) .... (خالد) من مكتب الأستاذ (حازم) .

انعقد حاجباه فى توتر شديد ، وهو يهتف :

ــ من ؟!

أجابته (ماسى) ، فى عصبية شديدة :

ــ (خليل) يعمل فى مكتب المحامى ، الذى حدَّثك عنه

قلت فى غضب :

ــ (خالد) يا آنسه (ماسى) .... (خالد).

عادت تحدِّق فى وجهى على نحو عجيب ، فى حين هتف (أحمد) فى غضب :

ــ وماذا تفعل هنا ؟!

أشرت إليه ، قائلاً :

ــ هل تحب أن أتحدَّث هنا ، أم فى الداخل ؟

Loolod
www.dvd4arab.com

بدا مـن الواضح أنه سينفجر فى وجهى غضـبًا ، ولكن (ماسى) استوقفته بحركة صارمة ، تشف عن مدى سيطرتها عليه ، وهى تقول فى عصبية :

ـ أستاذ (خليـل) ... لا يمكننا استقبالك الآن ، فنحن فى انتظار قريب لنا ، و ...

قاطعتها وأنا أقول فى صوت ، تعمدت أن يبدو مرتفعًا :

ـ كنت هنا فقط لسؤالك : هل يعلم الأستاذ (منير) بعلاقتك بالقتيل (صـفوت) ، وببـوّاب بنايته ؟!... وهل يعلم أساسًا بوجود الأستاذ (أحمد) ، وبأنه ....

قاطعتنى هى هذه المرة ، وهى تفسح أمامى المدخل ، قائلة فى عصبية شديدة :

ـ ادخل .

كانت فرصة ، يصعب أن أضيعها ، لذا فقـد أسرعت أدخل الشقة ، التى أغلق (أحمد) بابها خلفى ، وهو يقول فى صرامة :

ـ من الواضح أنك تعرف الكثير ؟!

قلت ، محاولاً أن أبدو صارمًا :

ـ ألهذا حاولتما قتلى أمس ؟!

كنت أريد عبارتى صارمة ، إلا أنها جاءت مرتعشة مرتجفة ، ناقلة ما أشعر به ، فى كل خلية من جسدى ، فانعقد حاجبا (ماسى) فى شدة ، فى حين هتف (أحمد) مستنكرًا :

ـ قتلك ؟!!

ثم التفت إلى (ماسى) ، مكملاً فى عصبية ؟!

أجابته فى بطء أقلقنى جدًا :

ـ إنه مجنون .

ثم أمسكت هاتفها المحمول ، وضغطت أزراره ، قائلة :

ـ سأتصل بالشرطة .

حاولت أن أبدو هادئًا ، وأنا أقول :

ـ افعلى ؛ فلدىّ الكثير لأخبرهم به.

هتفت عبر الهاتف فى توتر :

ـ الشرطة ... أرجوكم ، احضروا بأقصى سرعة .

ثم أنهت المحادثة ، وهى تقول لى فى عصبية :

ـ لست تملك ما تقوله لهم .

Looloo
www.dvd4arab.com

قلت ، محاولاً التظاهر بالقوة ، وكل ذرة فى كيانى ترتجف فى رعب :

ـ يكفى أن أخبرهم ما أعرفه .

راح (أحمد) ينقل بصره بينى وبينها فى عصبية ، فى حين هتفت هى :

ـ كل شىء له أكثر من تفسير ... ما ستقوله لهم مجرَّد معلومات ، يستحيل عليك تأكيدها ، وحتى لو فعلت ، فلدىَّ تفسير لكل لمحة منها ..

هتف (أحمد) عندئذ ، فى عصبية شديدة :

ـ أريد أن أفهم ما يحدث هنا .

سمعنا فى تلك الفترة طرقًا قويًا على الباب ، فاعتدلت هى ، وبدا كأنها قد اكتسبت فجأة قوة وثقة ، وهى تعقد ساعديها أمام صدرها ، قائلة :

ـ لقد وصلوا .

قالتها ، واتجهت نحو الباب لتفتحه ، و ....

وفجأة ، انتبهت إلى أمر ، لم أدر كيف لم أنتبه إليه لحظتها ....

إنها لم تخبر من أجرت اتصالها بهم ، بعنوان منزلها ....

وهذا يعنى أمرًا واحدًا ....

إنهم يعرفون المكان .....

ويعرفونها ....

وهذا يعنى بالتبعية أنهم ليسوا من رجال الشرطة ....

حتمًا ....

قفزت من مكانى ، وتلفَّت حولى فى توتر ، بحثًا عن مهرب ، فى حين فتحت هى الباب ، وهى تقول ، فى شىء من الارتياح :

ـ وصلتم فى الوقت المناسب .

وعند الباب ظهر المصارعان ، اللذان ألقيانى من الطابق الخامس بلا تردد ....

واتجها نحوى مباشرة ....

وبدون تفكير ، وعلى الرغم من جهلى بالمكان ، انطلقت أعدو فيه بكل قوتى ....

Looloo
www.dvd4arab.com

والمدهش أننى ، من فرط رعبى ، نسيت حتى ساقى المصابة ، أو أننى لم أبال بها ، وأنا أسعى للحفاظ على ما هو أهم ....

على حياتى ....

ولقد كان المشهد ، على الرغم من كل الرعب الذى أشعر به ، أشبه بمشهد هزلى ، فى فيلم من أفلام (شارلى شابلن) القديمة ...

كنت بحجمى الضئيل أجرى داخل المكان ، ومصارعان قويان يطاردانني كما لو كنت فأرًا صغيرًا ، يطارده قطان ضخمان لافتراسه ، وأنا أقفز من مكان إلى آخر ، بالضبط كما لو كنت ذلك الفأر ....

أما (أحمد) ، فقد راح يصرخ :

ـ ماذا يحدث هنا ؟!

وعلى الرغم من حالة الذعر والهلع الشديدين ، التى كنت أمر بها ، انتبهت إلى حقيقة مهمة جدًا ....

(أحمد) لا يعرف شيئًا عما يحدث ....

و(ماسى) متورطة فيه حتى النخاع .....

وهذا جعل الحقيقة تضىء فى ذهنى واضحة جلية ....

(ماسى) هى التى دبرت كل شىء منذ البداية ، وبمعاونة بوَّاب البناية ، ومن الواضح أن كليهما كان يكره (صفوت) بشدة ....

وكان من الطبيعى أن يتعاونا على قتله ....

(ماسى) أقامت علاقة ما معه ، حتى اطمأن إليها ، وحصلت على كل أسراره ، ثم دبرت الأمر بإحكام ، مستغلة عملها فى مكتب (منير) ... علَّمت البوَّاب كيف يستخدم مغيِّر الصوت الرقمى ، وأثبتت وجودها فى مكتب (منير) ، عندما كان البوَّاب يقتل (صفوت) ..

ولأنها تعرف (منير) جيدًا ، بحكم عملها معه ، كانت تعرف أنه سيهرع إلى شقة (صفوت) ، فور تلقيه الاتصال ....

ومن المؤكد أنها قد حصلت على زر كم سترته مسبقًا ، وجعلت البوَّاب يضعه هناك ، فى مسرح الجريمة ، ثم يشهد بوجود(منير) ، فيصبح المشتبه فيه رقم واحد ....

كنت أرغب فى الاستطراد فى الشرح ... لولا أن المطاردة الداخلية وصلت لما كان متوقعًا لها ....

Looloo
www.dvd4arab.com

لقد وقع الفأر فى براثن القطين الضخمين ....

هل سمعتم فى حياتكم عن فأر نحيل ، استطاع الفرار من قطين هائلين ؟!..

بالطبع مستحيل ....

ولقد كنت ألهث فى شدة ، عندما وضعانى عنوة على الأريكة ، فى مواجهة (ماسى) ، و(أحمد) مازال يصرخ :

ــ أريد أن أعرف ماذا يحدث ؟!

أجابته (ماسى) فى برود مخيف :

ــ مجرَّد مشكلة ، سننتهى منها خلال لحظات .

قال فى صرامة :

ــ دعينى أفهم أولاً .

استدارت إليه فى شراسة مخيفة ، جعلتها أشبه بالأفعى (سونيا جراهام) فى روايات (رجل المستحيل) ، وهى تصرخ :

ــ اخرس .

تراجع (أحمد) مصعوقًا ، فى نفس اللحظة التى سمعت فيها صوت دوران مفتاح فى الباب ....

وتحرَّكت (ماسى) فى عصبية ، فى نفس الوقت الذى فُتح فيه الباب ، ودخل منه شخص يقول :

ــ ماذا يحدث ؟!

وانتفض جسدى بمنتهى ، منتهى العنف .

فذلك القادم كان آخر شخص يمكننى توقعه ... على الإطلاق .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

7 ـ ختـــام ..

الأستاذ (منير) ....

ذلك الذى فتح باب الشقة بمفتاحه ، ودخلها فى بساطة ، وكأنه اعتاد هذا طويلاً ، كان الأستاذ (منير) .....

ولقد وقع بصره علىَّ ، ووقع بصرى عليه ، وانتفض كلانا فى قوة ، وألجمت المفاجأة لسانى ، فى حين هتف (منير) ذاهلاً :

ـ أنت ؟!...

أجابته (ماسى) فى عصبية :

ـ لقد كشف تقريباً كل شىء .

هتف وهو يشير إلىَّ مستنكرًا :

ـ هذا ؟!

أحنقنى استنكاره هذا ، خاصة أن وصوله قد أضاء الحل الحقيقى فى ذهنى دفعة واحدة ..

الأستاذ (منير) هو المدبر الحقيقى لكل هذا ...

ربما قتل سكرتيرته السابقة أو لم يقتلها ، ولكن شقيقها (صفوت) كان يبتزه فى كل الأحوال ، ويجبره على أن يدفع له مبالغ مالية شهرية ، بالإضافة إلى تهديداته المستمرة بالإساءة إلى سمعته فى السوق ، حتى سئم هو كل هذا ، وقرر التخلص من (صفوت) ....

وعلى عكس ما فهمت ، كان (منير) هو الذى دسَّ (ماسى) فى شقة (صفوت) ، حتى تنقل إليه تفاصيل حياته ، ثم اختار لحظة رتباها معًا ، ليضرب ضربته .....

لم يكن هناك مبلغ مجهول ، أو أجهزة تغيير صوت رقمية أو غيره ، فقد ذهب (منير) إلى (صفوت) فى شقته ، وهناك ، وأثناء عمل هذا الأخير على جهاز الكمبيوتر ، باغته بضربة قاتلة ، سقط معها زر قميصه فى مسرح الجريمة ، قبل أن يفرَّ منها ، ويراه البوَّاب ، مما استلزم اعترافه بالذهاب إلى هناك ، معتمدًا على خطة رقمية ، أثبت بواسطتها وجوده فى مكتبه ، ساعة ارتكاب الجريمة ، وبشهادة عدد من الشهود ....

وهنا تكمن اللعبة .....

Looloo
www.dvd4arab.com

الشهود جميعهم سمعوا صوت (منير) فقط ، وهو يتفاعل معهم .....

و(ماسى) وحدها شهدت بأنها قد رأته ...

ولكن الواقع أنه لم يكن فى مكتبه من الأساس ....

كان يرتكب جريمته ، التى ما أن ارتكبها ، حتى أجرى اتصالاً بكمبيوتر مكتبه ، عبر شبكة الإنترنت ، وباستخدام أحد برامج التخاطب والرؤية المباشرة ، وهى كثيرة ، كما تقول الآنسة (حنان) دومًا ، راح يتحدث مع (ماسى) ويتفاعل معها ، وسمَّاعات الكمبيوتر الكبيرة تنقل صوته فى وضوح للجالسين فى الخارج ، والذين تصوَّروا أنه داخل مكتبه ، يتفاعل معهم مباشرة ....

أما البوَّاب ، فهو مجرَّد رجل طماع ، وجد لديه فرصة لابتزاز أحد رجال الأعمال الكبار ، فاغتنمها .....

« ماذا سنفعل به ؟!... »

ألقى (منير) السؤال فى توتر ، فقالت (ماسى) فى عصبية :

ــ لن يفسد كل ما فعلناه .

صرخ (أحمد) هذه المرة فى عصبية شديدة :

ــ أخبرونى ماذا يحدث هنا ..

صرخت فيه (ماسى) فى غضب مماثل :

ــ هل تتظاهر بالغباء ؟!.. ألم تفهم كل شىء منذ البداية ؟!.. هل تصوَّرت أن (منير) سيعطينا مائة ألف جنيه ، فقط لنراقب (صفوت) ...

امتقع وجهه ، وهو يقول :

ــ أتعنين أننى شاركت فى ....

قاطعته بنفس الغضب :

ــ فى قتل (صفوت) .... نعم ... سواء كنت تعلم أم لا ، فأنت شريك متضامن معنا ، ولقد قبضت الثمن مقدماً .... هل تذكر هذا ؟!

ازداد امتقاع وجه (أحمد) ، وتراجع مرتجفًا مصدومًا ، حتى سقط على مقعد كبير ، وأخفى وجهه بين كفيه ، وراح ينتحب بصوت مكتوم وهو يردد :

ــ ماذا فعلت بنفسى ... ماذا فعلت بنفسى ؟!

قال (منير) فى عصبية :

Loofoo
www.dvd4arab.com

ـ شقيقك هذا يمكن أن يكشف أمرنا بضعفه .

قالت فى عصبية :

ـ ليس شقيقى ....إنه أخى من أمى فحسب .

أشار إلىَّ ، قائلاً :

ـ وماذا عن هذا ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، وأشارت إلى المصارعين ، قائلة فى لهجة شرسة :

ـ أريد أن يبدو الأمر كحادثة .

لم تكن حتى قد أتمت عبارتها ، حتى انتزعنى المصارعان من مكانى فى عنف ، واتجها بى نحو الشرفة ، و ....

عاودنى رعب المرتفعات ....

بعنف ....

* * *

حتى فى أفلام السينما التى عشقت متابعتها منذ طفولتى ، لم تسير الأمور بدقة على هذا النحو المدهش ...

ففى نفس اللحظـة ، التى همَّ فيها المصارعان بإلقائى من شرفة المنزل ، سمعنا تلك الطرقات العنيفة على باب الشقة ....

وعلى نحو أجمل مما يحدث على شاشة السينما ، اقتحم رجال الشرطة المكان ، وهتف ضابطهم بكل الصرامة :

ـ ارفعوا أيديكم جميعًا ...

وصرخ (أحمد) واتسعت عينا (منير) عن آخرهما ، فى حين امتقع وجه (ماسى) فى شدة ، وهى تهتف :

ـ مستحيل !..... مستحيل !!!

أما (حلمى هولمز) فقد اندفع نحوى ، من بين رجال الشرطة ، وهو يهتف :

ـ (خالد) ... أأنت بخير ؟!

وعندئذ ، وللمرة الثانية فى حياتى .... فقدت الوعى ....

* * *

« (خالد) لعبها بعبقرية يا أستاذ (حازم) ... »

عقد الأستاذ (حازم) كفيه خلف ظهره فى صعوبة ، ومد كرشـــه إلى أقصى الأمام ، وعقـــد حاجبيه فى صرامة ، وهو

www.dvd4arab.com

يستمع إلى (حلمى) ، الذى وضع يده على كتفى فى فخر ، شاركته إياه بالطبع ، مكملاً فى حماس :

ـ قبل أن يذهب إلى شقة (أحمد) هذا أعطانى عنوانها وطلب منى أن أنتبه طوال الوقت ، وعندما بدءوا مطاردته هناك ، طلب رقمى من هاتفه المحمول ، وترك الخط مفتوحًا ، وكنت أنتظره فى أوّل الشارع كطلبه ، فسمعت كل ما حدث ، وأبلغت الشرطة فورًا ..

قالت الآنسة (حنان) ، ما بين الانبهار والحيرة :

ـ وكيف وصلت الشرطة بهذه السرعة ؟!... بل وكيف أقنعتهم باقتحام شقة (أحمد) ، على هذا النحو الذى وصفته ؟..

ضحك ، قائلاً :

ـ أخبرتهم أن بها إرهابيين ، يستعدون لتفجير المبنى .

وقفت صامتًا طوال الوقت ، مكتفيًا بابتسامة زهو ، باعتبارى ، ولأوّل مرة فى حياتى ، ألعب دور البطولة ، بعد سنوات طوال من لعب دور الكومبارس الصامت ....

ولقد بدا (حسن) ، ولأوّل مرة مبهورًا بما يسمعه عنى ، فى حين ربّت (حلمى هولمز) على كتفى ، قائلاً :

ـ الواقع أن (خالد) كان عبقريًا هذه المرة .

غمغمت الآنسة (حنان) :

ـ ولآخر مرة .

لم أفهم تعليقها ، وأنا أنظر إلى الأستاذ (حازم) فى لهفة ، منتظرًا رد فعله ، خاصة أن وجهه بدا منتفخًا محمرًا كالمعتاد ، وهو يقول بصوته الضخم الفخم :

ـ ما فعلته يا (حلمى) أنقذ حياة (خالد) ، ولكنه سيعرضك لتهمة البلاغ الكاذب ، ولما كان بلاغك الكاذب يتعلّق بالإرهاب ، فأعتقد أن هذا سيعرضك للمساءلة ، فى مباحث أمن الدولة .

أمتقع وجه (حلمى) ، وشعرت بيده ترتجف ، وهو يرفعها عن كتفى ، فى حين التفت إلىّ الأستاذ (حازم) ، قائلاً :

ـ أما بالنسبة إليك ، أتعلم ماذا فعلت بالمكتب ؟!...

سألته ، وابتسامتى ما زالت تملأ وجهى :

ـ جعلته شهيرًا ؟!..

صرخ بكل الغضب :

ـ بل جعلته يخسر أكثر من مليون جنيه

Looloo
www.dvd4arab.com

والآن ، ومنذ ذلك اليوم ، مازلت أطمح فى شرب كوب من الشاى ، ومازلت لا أملك السكر أو الشاى .....

فهل لدى أحدكم وسيلة ، لإقناع الأستاذ (حازم) ، بإعادتى إلى عملى ، قبل أن أمتهن التسوّل ، أمام جامع الحسين ؟!

هل ؟!..

(تمت بحمد الله)

Looloo
www.dvd4arab.com

هذا العدد من مجلتنا ، عدد خاص جدًا ..

عدد يستحق اسمه ..

المبدعون ..

فهذا العدد يضم ثلاثًا من قصص الخيال العلمى ، كتبها شباب مثلكم ..

شباب فازوا فى الموسم الأوّل ، من مسابقة الخيال العلمى ..

شباب قدّموا الجديد ..

أقلامًا شـــابة ..

أفكارًا شـــابة ..

أفكارًا جديدة ..

أساليب مختلفة ..

لذا ، فقد استحقوا الفوز ، بين من أرسلوا أعمالهم ..

دعونى أقدمهم لكم الآن ، لعلهم يتولون مهمة تقديم آخرين (ربما لم يولدوا بعد) فى المستقبل ..

ودعونا نبدأ بهم رحلة ، أتمنى أن تكتمل ، حتى نضع معًا أدب الخيال العلمى ، فى المكانة التى يستحقها ، بين الأدب العربى ..

ولنبدأ بهم رحلة عالم المستقبل والخيال ..

الخيال العلمى ..

الجديد ..

* * *

الأعمال الفائزة بمسابقة

د . نبيل فاروق

لأدب الخيال العلمى للشباب

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

يوچينيا

خرجت الحافلة الصغيرة (الميني باص) من شارع 4ب الواسع الزلق إلى شارع جانبى ضيق نسبيًا يفضى إلى مشارف الحى الخامس (ج) .. شعرت بالقدرة على التنفس تعاودنى من جديد .. ساعات طويلة ومرهقة تلك التى قضيتها خارج ذلك الحى الذى أقطنه منذ مولدى ، تحديدًا خـــارج بيتى الـــذى اتخذته مخبأ لا أغادره إلا لأقضى عملاً ما يدر علىَّ ريعًا أتعيش به أنا وأمى العجوز ..

أغمضت عينى وأرحـــت رأسى على قمـــة ظهر المقعد الذى تمزق جلده وبرز من تحته الإسفنج الخشن الملوث الذى يحشو المقاعد .. شبكت أصابعى بقوة حول زجاجة الدواء فى يدى ، وشرعت أبحث عن بعض الاسترخاء الذى بالتأكيد أستحقه بعد أن غامرت بنفسى بذلك الشكل الفاضح من أجل أن أحضر ذلك الدواء لأمى المريضة .. وكلما اقتربت السيارة من تخوم الحى ، كلما شعرت بخدر الراحة يسرى فى خلايا أعصابى قويًا لذيذًا ، حتى إننى بدأت أدخل فى حالة وسن جذابة .. عندها شعرت بالحافلة تبطئ سرعتها حتى تتوقف .. فتحت عينى لأجد حالة من الارتباك والتوتر تسود راكبيها ، والسائق يندفع مغادرًا إلى وجهة ما .. حاولت أن ألقى نظرة من النافذة المجاورة ، ولكن زحامًا شديدًا من السيارات ملأ الشارع حجب عنى الرؤية ..

ارتجف قلبى داخل صدرى وقد توقعت أن أسوأ كوابيسى قد تحقق فى تلك اللحظة .. فكرت أن أقفز عبر النافذة إلى الشارع وأركض فى أى اتجاه متاح أمامى ، ولكن الفرجة المتاحة من النافذة كانت ضيقة جدًا لا تسع لمرور جسدى .. انكمشت فى مقعدى متوقعًا أسوأ الأمور ، وتعصف بى أفكار سوداء تزكيها أصوات البكاء والعويل المكتوم التى تخرج من أكثر من فم ملتاع حولى .. هذا العويل الذى تطور إلى صرخات هلع قصيرة لا إرادية تناثرت من أكثر من فم أنثوى عندما أطل علينا ذلك الشرطى من باب السيارة كشبح الموت .. فقد كان سبب توقفنا ــ وكما توقعت ــ لجنة الشرطة تلك التى تسد الطريق .. بصوت بارد لا حياة فيه أمرنا الشرطى :

ــ فليهبط جميع الرجال من الحافلة فى صف واحد ، ثم من بعدهم النساء ..

بالطبع لم يستطع أحد رد الأمر ، فهذا ينطوى على الموت .. فى حين أن الطاعة لن تؤدى ــ على الأقل فى حالتى ــ إلا إلى بعض المتاعب التى لا تقارن بالموت .. لم أكن قد ارتكبت جرمًا ما ، لذا فأنا لا أخشى على حياتى ولا على حريتى ، سيقومون باستكمال إجراءات المواطنة الخاصة بى ، تحديدًا ذلك الإجراء الذى أتهرب

من تأديته منذ عامين ، ثم سيطلقون صراحى وينتهى الأمر .. بينما هناك غيرى – بالتأكيد – من ركاب الحافلة من هم مطلوبون فى قضايا قـد تؤدى بهم إلى غرفة الإعـدام .. فآخر إحصائية سمعتها فى التليفزيون تقول إن ثلاثة أشخاص من كل خمسة من مواطنى الفئـة (ج) مطلوبون للشرطـة فى قضايا متنوعة .. وهذا يفسر رعشات الأجساد والبكاء الحار والعويل ، وكل ما حط على ركاب الحافلة فى تلك اللحظة من فزع ..

هكذا شجعت نفسى ونهضت مستسلمًا أتبع الحشود فى صف طويل .. هبطنا من الحافلة حيث كان شرطى آخر ينتظرنا ليقودنا إلى نقطة ما فى جانب الطريق ، حيث ذلك الضابط المتحفز ينتظرنا لفحص أوراقنا .

بدأت رحلة الفحص تلتهم الأعداد الوافرة المتراصة فى الصف .. وعندما وصل الدور إلىَّ كان الفحص قـد مر على ثمانية رجال أمامى ، أفلت منهـم خمسـة ، فى حين تم القبض على الثلاثة الباقين لتهم مختلفة ، أحدهم كانت حالته مثل حالتى تمامًا ..

مد الضابط يده بحركة حادة يختطف بطاقة هويتى من يدى الممدودة له ، تفحصها بعناية فوجد بالتأكيد الخطأ الواضح بها ، فنظر إلى وجهى نظرة نارية وهو يقول بصوت قاس :

– هذه البطاقة لم تجدد منذ عامين .. لماذا ؟

بالطبع لم أجب .. عاد يلقى نظرة سريعة إلى واجهة البطاقة ، حيث حرف (ج) يملأ ثلث مساحتها مطبوعًا داخل مثلث أحمر اللون ، ثم عاد يخترق عينى مصدرًا الأمر الذى كنت أنتظره :

– اكشف عن ساعدك الأيمن ..

بإذعان صامت فككت ببطء الزر الذى يغلق نهاية كم القميص الطويل على رسغى ، وبتردد بدأت أثنى الكم كاشفًا عن ساعدى ببطء ، ولكن الضابط لم يستطع الانتظار ، فانقض على يدى يجذبها بقسوة ، وأماط جزءًا من الكم المنسدل على كامل ذراعى ، جزء كاف لتبين ساعدى الأيمن النظيف تمامًا والخالى من أى أختام .. عندها التمعت فى عينيه نظرة وحشية ، وهو يصيح كاشفًا عن أنيابه :

– أين ختم يوجينيا ؟

لم أرد مرة أخرى تاركًا له الاستنتاج .. أومأ برأسه إلى شرطى ، فانقض علىَّ وكبَّل ذراعى ، والضابط يصيح فى بروتينية :

– المواطن يسرى محمد عمار .. أنت موقوف لتهربك من تطبيق قانون يوجينيا ..

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

لا أدرى كم من الوقت مر علىَّ هنا .. فقد كان مرور الوقت غير محسوس بلا ساعة أو حتى نافذة .. فقط مواعيد الطعام هى التى تنبئنى بصورة تقريبية عن الوقت ، فعندما يدفع لى من الفتحة أسفل الباب بصينية طعام تحتوى على قدر من اللحوم ، أدرك أن هذا هو الغداء ، إذن فنحن فى فترة ما من منتصف النهار .. وعندما تأتى الوجبة التالية فذلك دليل قاطع على أننا صرنا فى الليل .. ومن ثلاث وجبات غداء أدرك أننى هنا منذ ثلاثة أيام ، وحيدًا فى تلك الغرفة البيضاء .. كل شىء أبيض ، حتى الفراش أبيض ، والإضاءة بيضاء لا تنطفئ أبدًا حتى فى الليل ، والملابس المعقمة التى جعلونى أرتديها أيضًا بيضاء .. حجرة أشبه بزنزانة حبس انفرادى متطورة ، ولكننى لم أكن فى سجن ، فالمتهرب من قانون يوجينيا عندما يسقط يقتادونه إلى ذلك المختبر الحكومى الضخم على حدود القاهرة ، والذى تطلق الحكومة عليه اسم (المعهد القومى لدراسات البيولوجيا الاجتماعية) ..

واليوم ، وقبل أن يحين موعد الغداء الرابع لى فى هذا المكان ، فتح الباب لأول مرة منذ أن وضعت هنا ، وأطل علىَّ وجه صارم يبدو عسكرى الملامح وإن ارتدى صاحبه ملابس بيضاء من قطعة واحدة كرائدى الفضاء .. أمرنى بأن آتى معه ، ومن ثم اصطحبنى عبر طرقات طويلة ممتلئة بأبواب زنازين مشابهة لزنزانتى ،

وهناك بعض أشخاص يروحون ويجيئون بملابس بيضاء كالتى يرتديها الرجل القابض على ذراعى .. فى النهاية دفعنى إلى حجرة خالية ــ بيضاء اللون بدورها ــ إلا من طاولة بلاستيكية ومقعدين من البلاستيك أيضًا على جانبيها ، أجلسنى على أحدهما ثم خرج .. بعد ثانية دخل ذلك الشاب فى حلة سوداء تنافى فى شذوذ فج اللون الأبيض الذى يغرق كل شىء فى المكان .. كان يتحرك حولى فى بطء واثق يثير الأعصاب .. يحمل فى يده اليمنى شريحة بلاستيكية رقيقة يضرب بها على أظافر يده اليسرى محدثًا إيقاعًا موترًا .. بعد قليل توقف أمامى مباشرة وسدد نظرة إلى الشريحة البلاستيكية فى يده وهو يقول :

ــ يسرى محمد عمار .. 33 عامًا .. عامل .. مواطن من الفئة (ج) :.

ثم ألقى بالشريحة ــ التى أدركت أنها بطاقتى ــ على الطاولة أمامه وهو يتابع :

ــ أليس كذلك ؟

هززت رأسى بالإيجاب ، فأخرج من جيبه علبة سجائره وأشعل منها سيجارة ، فى معارضة صارخة لجو التعقيم الذى نتنفسه .. ازدردت لعابى قلقًا وقد وصلت إلى الرسالة كاملة ؛

www.dvd4arab.com

فهاهو يقول لى : أنا أقوى من القانون ذاته ، لا تسرى علىَّ أية نظم أو تعليمات ، فلا تحاول العبث معى .. نفث دخان السيجارة ثم ــ أخيرًا ــ جلس على المقعد المواجه لى ..

تطلع إلى عينى بنظرات باردة لا مبالية وهو يتلوعلىَّ قرار الاتهام بصوت آلى :

ــ أنت متهم بالتهرب من تطبيق القانون رقم 104 لعام 2012 والذى أقره البرلمان بالإجماع ، والذى يقضى بإجراء القواعد اليوجينية على المجتمع المصرى ، بإجراء انتخاب صناعى على عناصر المجتمع بغرض السماح للعناصر المرغوب فيها فقط بالتكاثر .. وينص القانون على إجراء تعقيم إجبارى للذكور والإناث من المصنفين كمواطنين من الفئة (ج) مقابل الحصول على تعويضات مادية مجزية .. وذلك للقضاء على الفقر فى البلد ، وجعله بلا مستقبل ..

صمت الشاب وهو يلتقط أنفاسه ، ويسحب أنفاس متتالية من سيجارته ، ربما بفعل الملل ، فهو بالتأكيد قد كرر تلك الدباجة عشرات المرات ربما اليوم فقط .. ثم قال لى :

ــ ما ردك على التهمة ؟

قلت بصوت مبحوح من انعدام الكلام طوال الأيام الماضية :

ــ مذنب ..

أنا الآن بين أيديهم ، فمن الأفضل ألا أضيع الوقت ، فليجروا عملية التعقيم سريعًا ويعيدونى إلى أمى المريضة ، لا فرق عندى ، أنا أصلاً لا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا تهربت من إجراء التعقيم ؟! هل يفرق معى أن يكون عندى أولاد من عدمه ، وأنا أصلاً لا أجد مالاً لكى أتزوج .. وحتى لو تزوجت ، فمن أين سأنفق على أطفالى ؟ وماذا سأترك لهم بعد وفاتى سوى الفقر وقلة الحيلة .. صراحة لقد كنت أشعر بداخلى أن هذا القانون يحمل بعض الراحة لنا نحن الفقراء .. هم لا يريدون لنا أن ننجب ، ليكن .. طالما أنهم لا يريدون لنا أن نغادر الفقر .. لقد حكموا علينا أن نظل فقراء حتى الممات بعد أن اعتمدت وزارة السكان قرارًا ينص على اعتبار الفقر وراثيًا ، والفقير سيورث فقره لأبنائه .. فبات الفقر كالمرض الذى لا شفاء منه أبدًا .. فما الضير إذن بعد أن حولونا إلى مرضى ، فى أن يحولونا إلى عقماء ، طالما لم يعد لدينا أمل فى حياة أفضل ..

ــ اسمع يا يسرى ..

عدت من خواطرى على نبرات لهجته الرقيقة وهو يحاول أن يلعب معى دور الصديق الناصح قائلاً :

Looloo
www.dvd4arab.com

ــ لقد حققت مع العشرات خلال اليومين الماضيين ، وصدقًا لم يعد لدىَّ مزاجا للألاعيب .. لذا سأكون صريحًا معك إلى أقصى درجة ..

توقف برهة للتعامل مع سيجارته ثم تابع :

ــ أنت تعــرف أن الحكومة أعلنت منــذ عامين عن إتمام إجراءات التعقيم القسرى على كل مواطنى الفئة (ج) ، وقد حصلوا على ذلك الختم الخاص على سواعدهم دلالة على ذلك .. واعتبرت الحكومة أن كل من لم يحصل على هذا الختم ، أو لم يجدد بطاقته ليسـجل بهــا خضوعه للتعقيم كاستكمال لشروط المواطنة ، متهربًا من القانون ، وكانت عقوبته هى أن يجرى عملية التعقيم دون الحصول على الحافز المادى ..

بالطبع كنت أعرف هذه المعلومات ولا أجد أى داعٍ لتكرارها .. ولكنه واصل :

ــ ولكن الحكومة ترى الآن أنه لابد من وضع عقوبة حقيقية ورادعة للتهرب من قانون يوجينيا .. وفى هذه اللحظة التى نتحدث فيها ، البرلمان يناقش مشروع قانون سيصدر خلال يومين رسميًا ، ينص على إعدام من يضبط بتهربه من هذا القانون ..

تقلصت أحشائى على وقع كلمة « إعدام .. » ، وشعرت بدوار خفيف يضرب رأسى .. فى حين تابع الشاب وهو يطفئ ما بقى من سيجارته بقدمه على الأرض :

ــ ودعنى أخبرك بسر .. لقد صدرت لى أوامر مشددة بألا أقوم بتسجيل الهاربين المقبوض عليهم فى تلك الحملة الأخيرة حتى يصدر القانون الجديد ، لكى يسرى عليهم .. وأنت واحد من هؤلاء المعنيين .. أى أنك من هذه اللحظة فى حكم المحكوم عليه بالإعدام ..

ارتجفت تلقائيًا وحاولت أن أقول شيئًا ما لا أدرى كنهه ، ولكنه أجبرنى على الإنصات له وهو يقول مبتسمًا برقة :

ــ ولكن أنا لا أحــب هــذا .. حتى ولو غامرت بتكسير أوامر القيادة . لقد حققت طوال اليومين الماضيين مع العشرات .. ومنهم من قمت بتسجيله رسميًا بالتاريخ الحقيقى للقبض عليه .. بل ومنهم من أجرى تعقيمه بالأمس وعاد إلى بيته سليمًا معافىً يحمل ختمًا صغيرًا على ساعده الأيمن .. وأنا أريد لك أن تكون واحدًا من هؤلاء الناجين . فما رأيك ؟

قلت بسرعة وقد فهمت مساومته :

ــ ما المطلوب منى ؟

قــال :

ــ مجرد معلومة بسيطة .. وبعدها تجرى لك العملية وتكون فى بيتك مساء اليوم .. لن يضرك شيء .. مجرد عملية غير

Looloo www.dvd4arab.com

جراحية بسيطة ، فقط ستتعرض لدفقات بسيطة من الموجات فوق الصوتية ستغلق الوعـاء الناقل للحيوانات المنوية من خصيتيك إلى السائل المنوى ، فتفقد القدرة على الإنجاب دونما المساس بقدرتك الجنسية بأى شكل من الأشكال ..

صمت ملاحظًا آثار كلماته على وجهى ، فقلت :

ــ أية معلومة تريد ؟

قال مبتسمًا :

ــ أريد اسم ومخبأ كل متهرب من قانون يوجينيا تعرفه ..

قالها واتسعت ابتسامته أكثر مضفية على وجهه تأثيرًا شيطانيًا هو بالتأكيد يقصده .. بينما زاد توترى وفقدت القدرة على التفكير السليم .. وأنا أقول بصوت متحشرج :

ــ ولكننى لا أعرف أحد ..

بقى محافظًا على ابتسامته وهو يقول :

ــ إنها حياتك تلك التى تراهن بها .. فاحذر ..

نجحت كلماته فى إثارة المزيد من الذعر فى قلبى وأنا أردد :

ــ صدقنى .. صدقنى أرجوك .. أنا لا أعرف أحدًا سواى متهربًا ..

هنا وجدته شديد العملية بالفعل ، لا يحب الكلام الكثير ، بينما أنا فى موقف أحتاج فيــه للكلام الكثير ، على الأقل لكى أجد الفرصة لترتيب أفكارى والوصول إلى قرار مناسب .. ولكنه نهض متجهًا إلى الباب بسرعة وهو يقول :

ــ كما تشاء .. فليكن الإعدام إذن ..

هنا لم يكن أمامى إلى أن ألقى بأول كلمة تأتى على بالى ، كنت كمن يحاول إدراك الأمل الأخير الذى يبتعد مسرعًا .. فصحت :

ــ انتظر ..

وعندما التفت إلى وجدت الكلام ينساب من فمى بسهولة وثقة وكأننى لست قائله :

ــ أنا أعرف خمسة من المتهربين .. أعـرف أسماءهم ، وعناوينهم ، وأماكن اختبائهم ..

عاد يقترب منى وهو يقول :

ــ رائع .. أخبرنى إذن ..

لا أعرف كيف وجدت فى نفسى تلك القدرة على المراوغة قائلاً :

ــ ليس بهذه السرعة .. أنت كنت ستنقذنى من الإعدام .. ولكن ستجرى لى التعقيم مقابل أسماء هؤلاء الخمسة .. أليس كذلك ؟

Looloo www.dvd...

أدرك وقتها أننى أتلاعب به بشكل ما ، فضيق عينيه مركزًا على أعماقى وهو يقول :

ــ هو كذلك ..

فقلت :

ــ ماذا ستعطينى إذن مقابل ما هو أكثر أهمية بمراحل من مجرد أسماء بضعة متهربين ..

عندها عاد للجلوس أمامى مرة أخرى ، وأشعل سيجارة جديدة قائلاً :

ــ هات ما عندك ..

قلت مبتسمًا وقد استشعرت لذة السيطرة :

ــ قلت لك : ليس بهذه السرعة .. دعنا نتفق على المقابل أولاً ..

هنا أطلق ضحكة عالية مجلجلة اهتز لها جسده ، ثم قال :

ــ أنت لن تساومنى يا هذا .. أخبرنى بما لديك وسنقرر بعدها مكافأتك على ضوء أهمية معلوماتك ..

أغاظتنى طريقته الواثقة المتعالية أكثر مما أرهبتنى ، فقد بات لـدىَّ شعور قوى بأننى لن أخسر شيئًا ، حتى الإعدام الذى

يساومنى به أستطيع أن أفلت منه ببساطة إذا ما منحته ما لدىَّ ، هذا لو كان أصلاً موضوع الإعدام هذا ليس كذبة للضغط علىَّ وإجبارى على الكلام .. من هنا قررت أن علىَّ أن أحاول الاستفادة قدر الإمكان من مغامرتى تلك ، وإلا فلن أخسر شيئًا ..

ــ وأنا لن أتكلم إلا بشروطى .. وإلا فليكن هو الإعدام إذن ..

حاول أن ينطق ولكننى عاجلته بلهجة حادة :

ــ هل تعتقد حقًا أن الموت يخيفنى ؟.. أنت ساذج إذن .. حكومتك حكمت علىَّ بأن أبقى فقيرًا طوال حياتى مهما فعلت ، حولت فقرى من ظرف يمكن تجاوزه ببعض الاجتهاد ، إلى قدر إلهى لا هروب منه ، والآن تقرر أن تحرمنى من الإنجاب خوفًا من تلويث البلاد بالمزيد من الفقراء .. فهل تعتقد أن الموت ليس أفضل من حياة كتلك التى نحياها ؟ . ربما بالنسبة لك .. ولكن ليس بالنسبة لمن قضى عمره فى أحياء الفقراء ..

ومع لهجتى الهجومية غير المتوقعة ، لاحظت ملامحه تفقد تدريجيًا تلك الثقة المتغطرسة التى كانت تكسوها .. وأدركت مدى الوقع الذى تركته كلماتى فى نفسه ، فقررت أن أطرق الحديد فورًا :

ــ لكى تحصل على ما عندى من معلومات ــ وأؤكد لك أنها معلومات ستذهلكم ــ يجب أن تلبى لى طلبين ..

Looloo
www.dvd4arab.com

هنا تبلور التحول فى اتجاه تفكيره نحوى فى شكل سؤال جرى على لسانه بهدوء :

ـ وما هو ؟

فقلت وقد تملكتنى الثقة :

ـ يتم نقلنا أنـا وأمى من الفئـة (ج) إلى الفئـة (ب) ، وأحصـل على كل مقومات تلك الفئة ؛ وظيفة محترمة بدخل شهرى مجزٍ ، فربما تعرف أننى خريج كلية التجارة ، على الرغم من عملى كعامل فى ورشة كهرباء ، ولكن هكذا شاء لى تصنيفى تبعًا للفئة (ج) ، الذى حرمنى من حق العمل سوى فى الأعمال البدنية والفنية .. وذلك طبعًا كان قبل أن يصدر قرار حرمان مواطنى الفئة (ج) من التعليم العالى . وأريد أيضًا شقة نظيفة فى حى من أحياء التصنيف الثانى .. وبالطبع أريد أن أحتفظ بقدرتى على الإنجاب ..

نظر طويلاً إلى وجهى بلا أى تعبير ، فقط جذوة من النار تألقت هناك فى حدقتيه لثانية جعلتنى أدرك كم الغضب الذى يعتمل فى نفسه .. وفى النهاية هب واقفًا وهو يقول :

ـ القانون سيطبق بعد يومين .. وهذه هى مهلتك للتفكير .. إما المعلومات التى لديك ، وإما الإعدام .. فقط اعلم أننا غير قابلين للمساومة يا غبى ..

هم بالانصراف فتابعت جسده المنطلق بصوت حاد :

ـ بل هى فرصتك أنت لكى تبلغ رؤساءك بما سمعته وتجيبنى ..

وعندما امتدت يده لتقبض على مقبض الباب ، كنت أصيح :

ـ شىء آخر ..

التفت إلىَّ بوجه متسائل ، فقلت :

ـ يجب أن تعلم أن تهديدك لم يخفنى .. فأنا أعلم جيـدًا أنك لو شئت قتلى فلن تنتظر قانونًا .. فمنذ متى تقيمون للقوانين هذا الاحترام ..

شعرت به يريد أن يمزق أحشائى ، ولكنه تراجع وغادر الحجرة ..

وعندما جاء الشرطى ليعيدنى إلى زنزانتى كنت قد صرت فىَّ حالة مرتفعة من الثقة ، وقد أدركت أن الشىء الوحيد الذى منع الشاب من إيذائى ، هو أننى قد ضربت ضربتى بشكل صحيح ..

* * *

قضيت فى زنزانتى يومين أفكر فى السبب الذى دفعنى لتلك المغامرة .. لماذا أبديت بهذه البساطة الاستعداد لإفشاء السر الذى يحافظ عليه مواطنى الفئة (ج) كرواحى .. ربما هى

Looloo
www.dvd4arab.com

حالة اللامبالاة التى اعتدت أن أقيم بها هذا الموضوع .. فأنا لم أر للمشروع أية فائدة ، حتى وأنا أذهب للاشتراك به بناءً على نصيحة سامى ابن خالتى ..

كان هذا قبل عامين مضيا .. اصطحبنى سامى بعد أن اقتنعنى بجدوى الأمر إلىّ حيث المقر عيادة الدكتور يوسف الجيراوى ، وصراحة أقول أننى من البداية لم أكن مقتنعًا بأية جدوى لهذا الإجراء ، أنا فقط ذهبت لأن الأمر لن يكلفنى شيئًا ، وحتى أتخلص من إلحاح سامى ..

فى العيادة انتظرنا دورنا ، وعندما جاء دخلنا حجرة الكشف حيث ذلك الطبيب قصير القامة بادى الوقار ، كان يعرف سامى كما أكد لى هذا الأخير .. عرفه سامى بى وأخبره عن رغبتى فى الانضمام للمشروع ، وأكد له مرارًا أننى أهـل للثقة .. أطلق الطبيب العنان لابتسامة واسعة واجهنى بها وهو يقول :

ــ نعم القرار .. فهذا هو السبيل الوحيد لمواجهة ذلك الزحف اليوجينى الكافر الذى سيغرق البلاد ..

ولكن ما لا يعرفه الطبيب هو أننى لا أنخدع بتلك العبارات الرنانة التى اعتدت سماعها طوال حياتى تجرى على ألسنة المعارضين الحكومة ..

ــ ما هى اليوجينيا ؟

سألته لأفهم ، فكونى صاحب شهادة عليا لا يعنى أن أعرف هذا المصطلح الغريب الذى دخل مجتمعنا منذ بضعة أشهر فقط .. عندها بدأ الطبيب يلقى محاضرته :

ــ اليوجينيا كلفظ مشتق من أصل إغريقى يعنى (نبيل المحتد) .. وكتعريف (هى علم تحسين الإنسان عن طريق منح السلالات الأكثر صلاحية فرصة للتكاثر على حساب السلالات الأقل صلاحية) .. وهو العلم الذى سماه ونادى به فرانسيس جالتون منذ عام 1883 ، واتخذت منه دول عدة فى بداية القرن العشرين سياسة لها تقضى بتخليص البلاد من الذين يمتلكون صفاتًا وراثية غير مرغوبة ، مثل الأمراض الوراثية ، وضعف العقل ، وحتى الشواذ والمومسات المحترفات والمجرمون .. أحيانًا كان يتطور الأمر ليشمل أجناس معينة ، كما فعل هتلر مع كل من هو غير آرى .. ولكن المعروف أن الولايات المتحـدة قـد اعترفت بدستورية الإجراءات اليوجينية عام 1927 .. ومنذ ذلك الوقت وأهم سلاح عند اليوجينيا هو التعقيم الإجبارى ، لمنع هؤلاء غير المرغوب فيهم من التكاثر .. وقد اعتقد العالم كله أن الفكر اليوجينى قد انتهى مع سقوط النازية ، ولكن هذا لم يكن صحيحًا ، فقد بقى

Looloo www.dvd4arab.com

اليوجينيون يعملون ربما بشكل أنشط ولكن فى الخفاء ، لدرجة أنهم وصلوا للأمم المتحدة ببرامج يوجينية الطبع تدعوا لتقويض خطر الانفجار السكانى فى دول العالم الثالث تحديدًا ، ودعوا بتشجيع الإجهاض ، بل وحتى التعقيم الاختيارى كوسيلة لتنظيم النسل .. حتى كانت بداية القـرن الواحـد والعشرين ، عندما تشرب العالم من جديد بأفكار عنصرية تدعوا لمحاربة أجناس معينة ، كما حدث فى الغرب تجاه المسلمين .. عادت اليوجينيا للسطح بشكل مكشوف مرة أخرى عن طريق دعوة صريحة أطلقها ريتشارد لين فى كتابه (اليوجينيا : إعادة تقييم) عام 2001 .. ومنذ ذلك التاريخ تطور الأمر بسرعة رهيبة ، حتى صدر عام 2010 قرار تاريخى من الأمم المتحدة يقر بدستورية الإجراءات اليوجينية ، وحرية أى بلد فى استخدامها ، ومن ثم سارعت دول كثيرة فى العالم الثالث ، تحت ضغط قوى دولية ، أو قوى داخلية منتفعـة ، بإصدار قوانينها اليوجينية ، والتى اعتمدت أكثرها على فكرة قديمة تعود إلى بدايات اليوجينيا تقول بأن الفقر نتـاج لعوامل بيولوجية وراثية متعلقة باتخفاض فى معدل الذكاء ، والقدرة على العمـل والمثابرة ، وما إلى ذلك .. وبالتالى طالت الفقراء القوانين اليوجينية ..

عنـدما انتهى كنت مازلت ألوك كم المعلومات الـذى ذكره محاولاً هضمها ، حتى قررت أن أقفز مباشرة إلى النقطة التى كانت تملأ عقلى منذ أن سمعت بمشروعه السرى ..

ـ وبماذا سيستفيد الفقراء من مشروعك هذا ؟

ابتسم مرة أخرى ، وهو يقول بود زائد :

ـ يا بنى ، لا يوجد حق أعز على الإنسان من حقه فى الإنجاب .. وهذا الحق لا يجب أن نصمت وهو يسلب منا بهذه الطريقة .. ويكفى ما أمرنا به الرسول الكريم عندما قال : (تناسلوا ..) . وطريقتنا فى المقاومة ، هى ذلك المشروع ..

استفزتنى كلمة (منا) التى قالها ، فقلت له :

ـ أأنت مواطن من الفئة (ج) ؟

ابتسم وقد فهم مرادى ، وقـال بجرعة أكبـر من الود الذى شعرت به يخفى حنقًا بالغًا :

ـ كلا ، فالأطبـاء من الفئـة (ب) دائمًا .. ولكن يابنى ، ما أوصلنا لهذه الحالة هو أننا لا نتحرك إلا إذا وقع الأذى علينا فقط .. ألا يمكن أن نثور من أجل بعضنا ولو لمرة من باب التغيير ، ونكف عن سياسة (ما شأنى أنا ؟) التى تمزقنا ..

Looloo
www.dvd4arab.com

قررت أن أقتنع بكلامه مؤقتًا .. بعدها حدد لنا موعدًا فى المقر السرى للمشروع بعد يومين .

كدت أسترسل أكثر فى ذكرياتى تلك عندما فتح باب الزنزانة ودخل ذلك الرجل بملابس التعقيم البيضاء ، يحمل فى يده مقص طبى صغير ويقول لى :

ـ نريد خصلة شعر من رأسك ..

غريزيًا قفزت مبتعدًا عن متناول يده وأنا أقول :

ـ لماذا ؟

جاءنى الجواب من فم الشاب ذو الحلة السوداء الذى اقتحم الزنزانة فى تلك اللحظة :

ـ لكى ننفذ لك طلبك .. ألا تريد أن تنتقل للفئة (ب) ؟

قررت ألا أستسلم لهما قبل أن أفهم الصورة كاملة ، فقلت بطريقة حادة :

ـ وما دخل عينة الدم بهذا ؟

بنفاد صبر قال الشاب :

ـ لكى تنتقل من فئة أدنى إلى فئة أعلى ـ وهذا أمر لم يحدث من قبل ـ يجب أن نفحص حمضك النووى ..

الـ DNA لنتأكد من خلوك من أى أمراض وراثية ، لأنك ستنتقل من فئة غير مسموح لها بالتكاثر لأخرى مسموح لها بالتكاثر ..

وقال الرجل فى ملابس التعقيم مؤكدًا :

ـ هذا إجراء لابد منه ..

هنا سلمته رأسى ليسلب منها عدد الشعيرات الذى ترضيه .. بعدها غادر فى حين بقى الشاب ذو الحلة السوداء معى فى الزنزانة ، تقدم وجلس بجوارى على طرف الفراش وهو يقول :

ـ إذن .. ها نحن قد وافقنا على طلبك ، فهات ما عندك ..

قلت له دون أن أنظر إليه :

ـ على العكس ، كلامكم عن فحص الحمض النووى أولاً مقلق .. فماذا لو اكتشفتم وجود أمراض وراثية ؟

قال الشاب :

ـ على الأقل أثبتنا حسن نيتنا ، لماذا لا تفعل المثل وتعطينا المعلومة حتى نتأكد من أنك لا تتلاعب بنا ..

أطرقت لفترة مفكرًا .. هنا فقط أدركت كم أن التلاعب بهؤلاء الناس مستحيل ، فأنا لا أستطيع أن أحصل منهم على ضمانات ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى نفس الوقت لا أستطيع أن أتلاعب بهم إلى حد إغضابهم ، فهم لم يصيروا بعد بتلك الرقة التى تمنعهم من تمزيق أطرافى للحصول على ما لدىّ .. من هنا قررت أن أقدم تنازلاً جزئيًا ، فقلت :

ـ الموضوع متعلق بوجود مشروع سرى لتوليد مئات ـ وربما آلاف ـ الأطفال لمواطنى الفئة (ج) بالتلقيح الصناعى ..

لم أدرك الأهمية الحقيقية لتلك المعلومة حتى شاهدت تعبير الذهول الذى ارتسم على وجهه فى تلك اللحظة ..

* * *

خرجت من تلك الحجرة الضيقة منهكًا مفكك الأوصال .. ناولت الكوب البلاستيكى المغطى للطبيب يوسف الجيزاوى فتناوله وعلى وجهه ابتسامة رضا .. غاب به فى حجرة جانبية ما ، ثم عاد إلىّ بقطعة حلوى وزجاجة عصير ، تناولتهما منه شاكرًا بعد أن ألقيت جسدى فوق ذلك المقعد الجلدى الوثير ..

ـ مرحبًا بك فى مشروعنا السرى للتلقيح الصناعى .. وقتما تشاء سيصير سائلك المنوى هذا طفلاً بإذن الله تعالى ..

سألته مؤكدًا :

ـ حتى لوكانت زوجتى ـ إذا ما قدر لى الزواج أصلاً ـ تم تعقيمها بدورها ؟

قال الطبيب :

ـ تعقيم النساء يتم عن طريق سد أو قطع قناة فالوب التى تنقل البويضة من المبيض إلى الرحم ، ولكن المبيض يبقى قادرًا على إنتاج البويضات ، ونستطيع أن نحصل على البويضة منه مباشرة ثم نلقحها بالحيوان المنوى ونزرعها فى الرحم ..

هنا شعرت أن وقت السؤال الأهم قد جاء :

ـ ولكن هذا يتكلف أموالاً طائلة ..

بابتسامة فخر لا أدرى ما سببها قال :

ـ بالطبع هذا المشروع يتكلف الكثير .. ناهيك بأننا نجهز حاليًا ما يشبه مستشفى سرى للنساء الذين سيحملون بتلك الطريقة .. لأن رؤية امرأة من الفئة (ج) حاملاً ، سيفتح أبواب الجحيم ..

واصلت استفسارى :

ـ ومن أين لك بتلك النقود ؟

أجاب بنفس الابتسامة :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ من رجال أثرياء شرفاء يحبون هذا البلد ، ولا يحبون الظلم الواقع عليكم ..

لم أشأ أن أسأله عن وجه الاستفادة التى يرجونها من وراء هذا ، فهو سيؤكد لى أنهم ما يفعلون ذلك إلا إرضاءً لوجه الله تعالى ، فى حين أننى ـ ولى العذر فى هذا ـ قد فقدت الأمل منذ زمن فى وجود أمثال هؤلاء الناس الذين يساعدون الآخرين ، وينفقون كل تلك الأموال دون انتظار مقابل مادى دنيوى ..

ولكن على الباب ، وأنا أهم بالمغادرة سألته :

ـ وهل سيتكفل هؤلاء الأثرياء بمصروفات تربية المواليد . ؟

نظر إلى مبهوتًا كمن ينظر لمجنون .. ثم قال :

ـ بالطبع لا ..

إذن فعلينا نحن أن نتحمل هم نجاحهم فى تحدى الحكومة .. بالطبع لم أصرح بهذا الخاطر ، فقط قلت :

ـ لا فارق إذن ..

* * *

فى اليوم التالى مباشرة اقتحم زنزانتى فجأة بعد الغداء مجموعة من الرجال الضخام فى ملابس التعقيم .. اقتادونى بعنف وأنا أصرخ وأحاول الخلاص منهم عبر أروقة المبنى .. حاولت جاهدًا ولكنهم كانوا أكثر منى عددًا وقوة ، حتى إنهم حملونى حملاً وانطلقوا بى حتى تلك الحجرة التى بدت لى كحجرة عمليات .. صرخت كما لم أصرخ من قبل .. وعندما بح صوتى فكرت أن أطلب مقابلة ذلك الشاب ذو الحلة السوداء ، ولكن تذكرت أننى لا أعرف له اسمًا أو صفةً ..

ألقو بى على طاولة العمليات وقيدونى إليها بشرائط مطاطية قوية .. وأطل على وجه نحيل بعوينات صغيرة يتلوعلىَّ بلهجة بيروقراطية جافة من ورقة فى يده :

ـ لقد اثبتت الفحوصات أن الحالة رقم 187 لعام 2015 غير قابلة لإجراء عملية التعقيم بالموجات فوق الصوتية ، لذلك تقرر بعد الحصول على موافقة أكثر من ثلثى أعضاء مجلس إدارة المعهد القومى لدراسات البيولوجيا الاجتماعية .. أن تجرى لها عملية إزالة شاملة لكامل الجهاز التناسلى ، وتعويضها ماديًا عن الأضرار الجانبية المتمثلة فى فقدان القدرة الجنسية ..

عندما انتهى كنت قد دخلت فى مرحلة هيستيرية من الصراخ والسباب والعويل المنطلق بلا نهاية ..

Looloo
www.dvd4arab.com

حتى أطل علىَّ وجه آخر قال صاحبه بهدوء :

ـ بسبب حالتك العصبية تلك كنت أحب أن أخدرك كليًا ، ولكن هذا ليس مسموحًا لى .. لذا فستبقى متيقظًا أثناء العملية ، ولكن أعدك ألا تشعر بشىء ..

هنا توقفت عن الصراخ بعد أن أدركت أنه لا جدوى من ورائه .. ولكن لم أقدر على منـع انهمار سيل الدموع وأنا أشعر بهم يكشفون عن عورتى ، ثم أشعر بتلـك الوخزة التى أعقبها بشكل أسرع مما توقعت إحساس بالتنميل فى منطقة أسفل البطن .. بعدها أطل علىَّ وجه الرجل الذى أعتقد أنه طبيب التخدير ، قائلاً :

ـ على فكرة ، أنا الآن أعتصر خصيتيك بيدى .. هل تشعر بهذا ؟

لم أزد عن صرخة ملتاعة قفزت من شفتى مع المزيد من اندفاع الدموع .. مشاعر المهانة عصفت بقلبى حتى أكثر من مشاعر الخوف أو الفزع ..

هنا أطل علىَّ وجه الشاب ذو الحلة السوداء .. وكطوق نجاة قال لى :

ـ هل أنت مستعد للكلام الآن ؟

مستعد ؟!! أنا مستعد لأن أشى بأمى ذاتها الآن ..

وبلهجة عجزت أنـا شخصيًا عـن متابعة معالمها من فرط سرعتها ، أخبرته بكل التفاصيل .. اسم الطبيب يوسف الجيزاوى .. عنوان عيادته .. عنوان المقر السرى للمشروع ..

فقابلنى بابتسامة رضا وقال :

ـ هذا أول تصرف حكيم منك .. اسمح لى أولاً أن أتأكد من صحة هذه المعلومات قبل أن نقرر العفو عنك ..

وهكذا قضيت اليومين التاليين بالكامل مقيدًا بهذا الشكل فى طاولة العمليات .. لا أريد أن أتحدث كثيرًا عن تلك التجربة التى قتلت بداخلى أى بقية لإنسانية فقدتها منذ زمن .. فماذا تتوقع من شخص يدس الطعام فى فمه كالطيور المنزلية .. ويقضى حاجته فى ملابسه وتبقى قذارته عليه ليومين .. هنا أدركت أننى انتهيت .. حتى لو خرجت من هنا سالمًا ، فما عادت بى رغبة للحياة بعد الآن ..

وبعد اليومين دخل علىَّ رجلين فكا وثاقى ، وساعدانى على الجلوس منتصبًا فوق الطاولة وقد تيبست مفاصلى ، وصارت عضلات جسـدى حجـرًا أصمًا .. تبعهما الشـاب ذو الحلة السوداء ، الذى صاح مشمئزًا ما أن استقر أمامى :

ـ ما هذه الرائحة ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

بالطبع لم أرد ، فقد كنت شبه ميت .. فقط أنصت له وهو يقول :

ـ كل شيء على ما يرام .. لقد سقط طبيبك هذا ، وتم تدمير بنك الحيوانات المنوية الذى أنشأه ، ومبدئيًا سقط معه العديدون ، أحدهم هو ابن خالتك ، اسمه سامى عبدالله .. وقريبًا سيسقط كل من له علاقة بهذا الأمر ..

توقف قليلاً ليشعل سيجارة ، أخذ منها نفسًا ثم أشعل منها سيجارة أخرى دسها فى فمى ، وقال وهو ينفث دخان سيجارته فى وجهى :

ـ بالمناسبة .. لقد صدر رسميًا صباح اليوم قانون يقضى بإعدام كل من يضبط متهربًا من التعقيم اليوجينى .. ولن تصدق لوقلت لك أن الآلاف يقفون الآن على باب المعهد مستسلمين لكى يحصلوا على إعفاء من العقوبة كما نص القانون الجديد ..

أخذ نفسًا آخر ثم أضاف :

ـ أما أنت فستكون مكافأتك هى أن تعفى من هذا القانون .. فهنيئًا لك .. ستجرى التعقيم الآن ثم تغادر إلى بيتك .. فلا تنسانا ..

مرة أخرى نفث دخان سيجارته فى وجهى ثم استدار مغادرًا .. وعند الباب التفت إلىَّ مرة أخرى متذكرًا أمرًا ما ..

ـ على فكرة .. لم نستطع أن ننفذ اتفاقنا .. فقد أثبت تحليل حمضك النووى أن الجينات المسببة للفقر متوافرة عندك بكثرة .. ونحن نبغى قبل كل شيء أن نحافظ على نقاء مجتمعنا الجديد ..

ثم ابتسم ساخرًا وهو يتابع :

ـ شيء آخر .. عندما تعود إلى بيتك .. ستكتشف أن كل جيرانك ، وكـل ساكنى حيـك ، بل وكل مواطنى الفئة (ج) ، يعلمون أنك أنت من وشيت بسرهم الصغير ..

ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة جزلة ، تردد صداها طويلاً بعد أن غادر الحجرة ..

أحمد حلمى إبراهيم الملوانى

المركز الأول

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

وثنية .. رواية قصيرة ..

(1)

كان فمى يلوك الكلام كغسالة أوتوماتيكية ، عندما تنبهت لما أقول : « ألنْ تبارك لى يا عبود ؟! لقد وجدت عملاً .. أخيرًا !.. » كنت أقولها بأكثر اللهجات سعادة ، على الرغم من أن جزءًا من نفسى مازال محبطًا مبتئسًا .

وهكذا قال لى عبد الرحمن ــ جارى ــ فى فرح :

« مبروك !.. عقبى لنا !.. » ، ثُم أضاف بشغف :

« أين ؟!.. » ، فرددت فورًا :

« متجر لبيع أجهزة الكمبيوتر .. قسم الصيانة .. » ، ثُم تطلعت إلى المكان . كنا مازلنا أمام السلم الضيق بدرجاته نصف السليمة ، وجدرانه المتقشرة الشاحبة ، ورائحته التى تجمع بين العطن و بين رائحة (طبيخ) غامضة .

تحركنا ــ أنا وهو ــ هابطين درجات السلم من السطح ــ حيثُ أسكن ــ إلى الشارع ، بينما نسمع صوت ديك .

إن الصباح يقترن دائمًا بصوت هذا الديك الأسطورى . صوته الحى المُتفـائل يخترق أذنيـك إلى وجدانك ، فتشعر أن الدنيا لازالت بخير رغم كل شىء . إنه فطرة الصباح وبكارته .

قال عبد الرحمن ــ فى مرارة ــ من خلفى ونحن ننزل :

« المؤهل يا صديقى .. المؤهل !.. فنحن فى بلد لا يعترف إلاّ بالأطباء .. الأطباء وحدهم هُم المُحترمون الذى يستحقون الحياة !.. أنا مثلاً .. عندما قررت أن أدخل القسم الأدبى فى الثانوية العامة كاد والدى يُجن .. حتى إنه قاطعنى فترة طويلة .. إلى غلبة الاعتياد .. ولكننى فعلاً لا أحب العلوم .. طوال حياتى وأنا أكرهها .. وها أنذا فى السنة النهائية من كلية الآداب .. ولا زلت أيضًا لا أعلم ماذا سأفعل .. وأى مستقبل ينتظرنى .. هذا إنْ كان هُناك مستقبل أساسًا !.. »

الطابق الثانى ..

ــ « حتى الأطبـاء الخريجون لا مستقبل لهم هُنا .. إذا لم يكن لديك ما يُمكنك من فتح عيادة .. فأنت ميت !.. »

وزفرت فى مرارة من هذا الموضوع ، فقلب جارى دفة الحوار قائلاً :

« ألازال عمك مُقاطعك ؟.. »

Looloo
www.dvd4arab.com

الطابق الأول ..

وتد من الثلج يخترق صدرى ، وأنا أرد بأقرب اللهجات إلى البرود :

« لم ولن أطلبه ثانية .. كرامتى لا تسمح لى بأن أهينها أكثر من هذا .. يكفى المـــرة الأخيرة التى طردنى فيها عندما ذهبت إليه لأطلب مساعدته .. »

ومسحت وجهى بأصابع مهزوزة بعض الشىء ، وأنا أقول : « كما قلت لك من قبل .. كان أبى كثير الخلافات مع عمّى .. »

ثُم أضفت بحزن : « رحمه الله هو وأمى .. »

قطار مُسرع فى اتجـــاه آخر .. خطأ فى التحويلة .. ثُم .. يصطـــ ...

مدخل العمارة ..

وهواء الصباح يضرب وجهى ، فيثير معه مستنقع الحياة فى وجدانى . قطعت الحوار مع جارى قائلاً :

« حسنًا يا عبوود .. فلأسرع حتى لا أتأخر عن عملى .. أى خدمة ؟!.. »

ـ « لا .. شكرًا .. سلام .. »

هاهو الشارع أمامى ، تجرى فيه أمواج البشر السمراء فى كل الاتجاهات ، ولكنها تحمل نفس الهموم ، ونفس الأعباء . إنها الحياة بكل اختصار .

ملأت صدرى بهواء الصباح ، وأنفى تحاول إقصاء رائحة طفح المجارى المُختلطة برائحة فول عم (شحتة) ، ثُم رفعت بنطالى حتى لا تتسخ أطرافه وأنا أقفز على جزر الصخر ، وعبر مُحيطات الطفح السوداء .

تنفست الصعداء ، وكأننى عبرت للتـــو أكثر مُحيطاتِ الأرض اتساعًا . ولم يطل الوقت حتى كُنت أسير فى شوارع القاهرة إلى عملى .. أو الذى أحاول أن أقنع نفسى بأنه عملى !

شارع .. فشارع .. فشارع .. فشارع ..

وميادين معقودة ببعضها كالتروس فى محرك ضخم .. تروس ؟ متى سمعت هذه الكلمة ؟ بل متى شاهدتها ؟

سيارات .. وميكروباصات .. زحام .. ودخان ..

اللعنة عليك يا (عبود) ! لماذا ذكرتنى بتلك الذكريات البعيدة !

خمس سنوات من الوحدة أعيشها ، بل (أستعيشها) بالمبلغ الضئيل الذى تركه لى والدى الراحل . بتحويشة العمر بعدما نسفت عملية أمى معظمها .

Looloo
www.dvd4arab.com

كان أبى موظفًا له بعض الشأن فى مصلحة الضرائب ، بينما أمى ــ مثل أى أم فى ذلك الوقت ــ ربة بيت بدرجة امتياز . وابن وحيد يتوسط والديه . ابن يكبر ويترعرع ، ومعه أحلامه التى تتغير وتنضج مع كل سنة تضاف إلى عمره ، حتى صار لها كيان مستقل يمد له العون على العيش بين أنياب عالم الواقع التى لا ترحم .

أحلام الطفولة ؛ قلاع اللبن فى السماء .. والملاكان ــ أبى وأمى ــ يحرسانى ضد كل سوء ..

وأحلام المراهقــة ؛ وفتــاة أحلامى جالسة جوارى .. بينما يبتسم أبى وأمى بحنان غامر خلفنا .. فى صورة زفاف ..

ثُم الحــادث ، وانســكاب حبــر الواقع على صفحات الأحلام البيضاء . خفوت التاريخ ، تغيّر الواقع ، وتشوه المستقبل . حدث ذلك وأنا فى المرحلة الأولى من الثانوية العامة .

لماذا لم أعتمد على نفسى منذ صغرى ؟ لماذا لم يعلمانى هذا ؟ على الأقل ما كنت لأكون بهذا الضعف .. ولكن ما لم يعلمانى إياه علمته لى الحياة .

تكرم الجيران بأمر الجنازة ، وعرض عم (إبراهيم) أن أحيا معه ووسط أولاده . بينما نبذنى عمى خاصةً مع ازدياد الخلافات

بينه وبين أبى فى الفترة الأخيرة . ولكننى كنت أكثر جنونًا من أن أفكر وأختار . لــذا رفضت كل نظرات العطف بعناد صلد ، وأصررت على المكوث فى منزلنا إلى أن أستعيد عقلى .

جلست فى الشقة وحيــدًا ، وأنا أمنع نفسى من التفكير فى الانتحــار بأقصى ما أستطيع . كنت أرتجف بمُجرد تذكر أننى وحيد فى هذا العالم . الهواء صار ثقيلاً كأنه الماء ، الدقيقة صارت زمنًا كاملاً .

ومع تراكم الأيام ، بــدأ عقلى يستعيد قدرته على التفكير ، ولكن بماذا أفكر ؟ وماذا أفعل ؟!

أخذت أحاول ترتيب الأسئلة فى ذهنى :

ــ ماذا ستفعل ؟

ــ لابد أن أجتاز الثانوية العامة بأى ثمن .. إنها الفرصة الوحيدة التى علىَّ التشبث بها .

ــ وماذا عن العيش ؟ والمصاريف ؟

ــ لم يعد هُناك بُد من استخدام تحويشة العمر التى طالما كان أبى يتحدث عنها .

ــ وهل ستكفى المأكل والمشرب وإيجار الشقة والتعليم ووو ..؟

Looloo
www.dvd4arab.com

كاد عقلى ينهار مرّة أخرى مع كل هذه الواجبات المُتراكمة على إزاء نفسى ، ولكننى تماسكت واستمررت :

ــ هل .. هل ستطلب المُساعدة من جيرانك .. إن عم إبراهيم يعتبرك كولده .. وأنت تعلم مدى صداقته بوالدك .. و ...

ــ لا .. يكفى اعتمادًا على الغير .. أريد أن أجرب ملمس الحياة بيدى لا بيد الآخرين .. سأحاول .. وسوف أنجح .. سوف أنجح ! سوف ..

استيقظ عقلى مرة أخرى ، عندما ضربت الشمس عينى .

قطعت ما تبقى من الطريق بالتفكير فى بعض الأعطاب المُحيرة التى واجهتنى فى الصيانة البارحة . فى بعض الأحيان يتصرف الكمبيوتر كالإنسان ؛ يمرض ويثور دون سبب واضح ، وكأنما فقـــدت دوائره الإلكترونيـــة الرغبـــة فى تدوير الإلكترونات مرّة أخرى . عندها تحاول حل مشكلته بكل الطرق المنطقية ، ولكنها ــ لدهشتك ــ لا تنجح .

تذكرت ذات مرّة عندما قمت بتوصيل قرصين صلبين معًا فى نفس الجهاز ، وقتها كدتُ أُجن . فالقرصين لا يعملان معًا على الرغم من ضبط إعدادات (الماستر والسليف) الخاصة بهما . جربت أن أعكس الإعدادات بين القرص الأول والقرص الثانى ، ولكنهما أيضًا لم يعملا !

الأعجب أنهما كانا يعملان من قبل بنفس الإعدادات !.. ولا تفهم لذلك سببًا واضحًا .

كيمياء عجيبة تلك التى تجمع مكونات الكمبيوتر ببعضها ، كيمياء لها طابع بشرى .. ولِمَ لا ؟.. أليست من صنع البشر ؟!..

فهُناك ما يسمى بتوافق الأجهزة (Compatibility) وهُناك ما يسمى تعارضًا (Conflict) . تمامًا كالبشر . ضع مجموعة من البشر المتوافقين فكريًّا ونفسيًّا فى مكان واحد ، تحصل منهم على أداء مذهل ، وروح رائعة . أما إذا جمعت بشرًا متعارضين مع بعضهما ، لن تحصل على شىء . الأفكار تصارع بعضها فى سماء المكان ، فتشحن الجو بسموم الغضب البدائى ، ولن يلبث أن ينتهى الأمر بقتال .

هذا أيضًا لا يمنع بعض الحالات التى يحدث فيها العكس . وهى لدهشتك أيضًا ــ تحدث أحيانًا فى حالة أجهزة الكمبيوتر!

الآن ، أقف أمام متجر الحواسيب الذى أعمل به .

« دلتا تكنولوجيز .. »

كنت سعيدًا إلى حد ما بوظيفتى المُركّبة فى ذلك المتجر . نعم كُنت فى الأساس مهنـــدس صيانة ، ولكن الأستاذ (محمد)

loolo
www.dvd4arab.com

أوكلنى بتنظيف المتجر يوميًا ، هذا يعنى زيادة ــ احتاجها بشدة ــ فى مُرتبى .

لذا أصل إلى المتجر فى التاسعة صباحًا ، آخذ المفاتيح من (سيد) بواب العمارة التى يسكن بها أستاذ (محمد) ، والتى يوجد بها متجره .

أفتح المتجر ، فيرحب بى صرير الجراج .

أفتح رتـــاج البـــاب الزجاجى ، وأدخـــل ، فترحب بى رائحة الإلكترونيات المكتومة .

ويبـــدأ الروتين اليومى فى التنظيف ، حتى يصـــل (إسلام) مسئول قسم المبيعات ، بعدها أصعد إلى قسم الصيانة . الساعة الآن : العاشرة صباحًا .

(2)

أن تجلس كل هـــذا الوقت أمام شاشات الكمبيوتر ، وحولك عشرات الأجهزة بجوانبهـــا المبقورة ، والأســـلاك تبرز منها كأمعاء ــ لهو أمر قاسٍ حقًا .

لا يؤنس وحدتك ســـوى زميلك (محمد) الذى يعانى نفس الظروف تقريبًا .

ــ عليك بهذا الجهاز يا (حسن) .

...

ــ وندوز يا (محمد) .

...

ــ أرأيت الولد العبيط ؟ لقد عبث بأحد أسلاك البوردة لذا فهى لم تكن تعمل .

...

ــ بوردة لهذا الجهاز يا (محمد) .

...

ــ خذ البلاور .. ونظف هذا الجهاز يا (حسن) .

...

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ نزّل ألعاب وأفلام لجهاز ابن الدكتور (سمير) .

هكذا تتشابه الأيام أمامك ، وتنسخ وجه بعضها من بعض . نفس المشاكل .. نفس التوترات من أن ينهشك الجوع والفقر .. نفس الأعطال .. يا ألهى !.. حتى أعطال الكمبيوتر لم تنجُ من زحف نمطية الحياة .

أيام تمر عليك ولا تشعر ، أو تشعر ولكنك تتجاهل أنك تشعر . كأن تقف وسط البحر بمحاذاة نخلة على الشاطئ . أشرد بعض الوقت ، ثُم انظر إلى موقعك من النخلة . لقد صارت بعيدة الآن . أنت تقف : نعم .. ولكن تيار البحر يتحرك بلا توقف ، ويحركك معه أيضًا .

لا تتوقف للنظر إلى النخلة ، لقد رحلت بعيدًا عنها بلا رجعة ، أو رحلت بعيدًا عنك بلا رجعة .. لا فارق . فهُنا تصير النسبية احتمالاً .. ولكن الواقع واحد : تيار الزمن يتحرك بلا توقف ، حاملاً الحياة بكل ما ينتمى لها ، شئت أم أبيت .

* * *

بعد تناول شطيرتى فول وطعمية ، جلست أمام أحد الأجهزة ؛ لأقوم بتحميل وندوز عليها .

سخرت من نفسى :

« بعـد كل هذه الدروس فى البرمجة والذى منه .. ها أنت جالس تُحمل الوندوز وتُنزل الألعاب !.. »

تغير طعـم الطعميـة فى فمى ، ليصير مُرًّا من هذه الخاطرة السوداء .

كان (محمد) زميلى قد نزل ؛ ليُحضر قرصًا صلبًا جديدًا من قسم المبيعات ؛ حتى نقوم بتركيبه فى جهاز آخر .

تطلعت بذهن شارد إلى شـاشـة تحميل الوندوز الزرقاء ، وعبثت أصابعى وحدها على لوحة الكتابة ، وأنا أجتاز إجراءات تنزيلها بسرعة المُحترف .

وبـدأ التحميل ، فتركته ، واتجهت إلى جهاز آخـر فى ركن الحجرة .

فجأة ، قاطعنى صوت صفارة ـ أصدرها الجهاز الذى كُنت أعمل عليه ، فعدت إليه لأرى ما المشكلة ..

أى منطق هذا ، الذى يجعل الجهاز يكتب ما يكتبه هذا ؟!

كانت الشـاشة المصطبغـة باللـون الأزرق الخاص بتحميل الوندوز تعرض ما يلى بكتابة حمراء :

Looloo
www.dvd4arab.com

231111111111111101011111111111101111111111
111111110010111111111111111111111111011111
111111111111111111111110111111111111011111111
1111111111111111100111111111111111111100101
111111111111111111111110111110111111111111
11111111111111111101111111111111101111111111
111111111111111001011111111111111111111111
0111111111111101011111111111111111111110111111
1111111111111111111110070011111111111111111
1111111100

هل هذا وقت المزاح ؟

قطبت حاجباى ، وأنا أفكر بهذا . ولم تلبث أن انطلقت الجملة من فمى بصوت مرتفع بعض الشىء :

« وحياة أمك ؟!.. »

فى اللحظة التالية ، برز فى أسفل الشاشة :

Next = Press Enter

ــ « وإيه كمان ؟!! !.. »

كُنت على وشك ضغط Enter من باب الفضول ، والترقب لما سوف تأول إليه هذه المهزلة .

ولكننى تراجعت عن ذلك ، وأنا أعيد تشغيل الجهاز ، وأعيد ضبط إجراءات تنزيل الوندوز مرة أخرى .

هُنا أتى محمد حاملاً القرص الصلب الجديد.

التفت إليه ، وقلت له بسخرية ساخطة ، وأنا ألوّح بيدى نحو الجهاز :

« ما الهراء الذى يحاول أن يفعله هذا الجهاز ؟!.. » ، فرد علىّ بصوته الخشن ، وملامحه ثابتة :

« ماذا حدث ؟!.. »

حكيت له ما حدث ، وما إن انتهيت ، حتى انفجر بالضحك . ابتسمت رغمًا عنى ، وأنا أقول :

« أقسم لك أن هذا ما حدث !.. »

نهض إلى الجهاز ــ الذى قد شارف على إنهاء تنصيب الوندوز ــ وهو يقول بجد مُفتَعل :

« مصدقك !... »

Looloo
www.dvd4arab.com

« ربما أنت مُرهق فقط .. فها هو الجهاز سليم .. وتنصيب الوندوز على وشك الانتهاء بنجاح .. »

سخرت منه فى نفسى . فهو ليس بخبير ليقترح علىَّ الحلول . إنما هو مُجرد مُدرس كمبيوتر فى إحدى المدارس تلقى كورس فى الهاردوير والصيانة .. وها هو يحدثنى كأننى مجنون ما .

ولكن ماذا عمّا حدث ؟! كـــان هذا الأمر ــ على الرغم من سخريتى منه ــ يحيرنى . كيف ؟!

ولم ألبث أن نسيت كل هذا ، وأنا اندمج فى أعطاب الأجهزة الأخرى ، التى تراكمت فى غرفة الصيانة ، وكأننا فى مصنع خردة .

* * *

انتهى يوم جديد من أيامى . أفلت الشمس ، وغطى الليل أركان الدنيا ، وأركانى !

هكذا صعدت سُلم البناية فى صعوبة ، أرفع قدمًا بثقل ، ثُم أرفع الأخرى بثقل أعظم . الرؤية بهتت واسودت ألوانها أمامى . أرى أشباح أضواء شاشات الكمبيوتر فى كل مكان .. السلم .. الحائط .. على يـــدّ !

أخيـــرًا ، وصلت إلى الغرفـــة الصغيرة التى استأجرتها هُنا ، بعدما تركت شقتنا منذ سنة ، وبعتُ أثاث منزلنا ، فقط ليُتيح لى هذا نفسًا جديدًا أستنشقه فى هذا العالم .

أنا ضد العالم .

آآآآآآآآآآآه!

فتحت الباب الخشبى الذى تشرب الرطوبة حتى صار كقطعة البسكويت . منذ متى لم أتذوق هذا البسكويت ؟! لم أعد أذكر .

لا يوجد ترف تغيير الملابس هُنا . سوف أسقط على السرير كقتيل ، و لن أشعر بنفسى حتى اليوم التالى .

أن يذوب كيانك المادى فى كيان النوم الهلامى ، لهو أمر يبعث الراحة . هُنا تتلاشى الفروق بين الأشياء الصلبة والأشياء التى تُدرك أنها صلبة ، بين الواقع وما تُدرك أنه الواقع!

كان النوم صامتًا هذه الليلة . لم يحدثنى كثيرًا ، وأنا أغفو بين أحضانه السوداء الدافئة ..

حتى تلك اللحظة ..

مجازًا سأقول أن هذه لحظة .

استيقظت على صوت دق الباب . فتحته ، فواجهنى العدم ، مُحملاً بنسمات الصيف الهادئة ، لا أحد هنالك .. وهذا ليس وقتًا جيدًا للمُزاح .. و ...

Looloo
www.dvd4arab.com

تحت قدمى ، كانت هُناك ورقة مطويّة ، أشعلت نفسى بلذع الفضول . فعلى الرغم من معرفتى بأننى وحيد فى هذا العالم تقريبًا ، إلاّ أننى كُنت فى هذه اللحظة مثل أى إنسان من لحم ودم . كُنتُ مفتونًا بالغيب وما يحيويه من أحداث غامضة .

أمسكت الورقة المطويّة بأصابع مهزوزة ، وأغلقت الباب ، ثُم جلست على السرير ، وأنا أفتحها ، وأقرؤها ..

كانت نصف ورقة فلوسكاب ، مكتوب عليها بخط نضيض للغاية :

2311111111111111010111111111101111111111
1111111100101111111111111111111111011111
1111111111111111111111011111111111011111111
1111111111111111001111111111111111111100101
1111111111111111111111101111101111111111111
1111111111111110111111111111101111111111111
1111111111111100101111111111111111111111111
0111111111111101011111111111111111110111111
1111111111111111111110070011111111111111111
1111111100

نفس الأرقام مرّة أخرى!!

تُرى ما سر هذه الأرقام ؟! هل هى شفرة ما ؟! شفرة ؟! ولماذا أنا بالذات ؟! ما الذى يميزنى ؟! بل من يعرفنى أساسًا لكى يرسل إلىّ رسالة ؟!

تجمدتُ مُفكرًا .. طق ..

طق .. طق !

استيقظت على طرق الباب ، وعقلى يشتعل بالتفكير ، وكأننى لم أنم لحظة .. هل كان حُلمًا هذا أم واقعًا ؟!

نفضت تلك الأفكار ، وأنا أفتح الباب ، فوجدت (عبود) ـ جارى ـ يقول بمرح :

« حسبتك ميتًا !.. »

« ولكن ما معنى هذا ؟!.. » ، قالها (عبود) رافعًا حاجبيه الكثيفين بعدما حكيت له ما حـدث ، ثُم أضـاف مُتسـائلاً : .. « أين الورقة تلك ؟! فأنا أُحب الألغاز هذه كما تعلم .. »

قلتُ له بغباء :

« هذه ليست كلمات مُتقاطعة !.. » ، ثُم وقفت أبحث عن الورقة .. تحت السرير ؟ خلف الباب ؟ فى جيوبى ؟ لا يوجد شىء .

قلت له مُتعجلاً :

Looloo
www.dvd4arab.com

« هل تعلم ؟ يبدوأنه كان حُلمًا بالفعل !.. لا يوجد أثر لهذه الورقة !.. ربما هو إرهاق من العمل .. لاحظ أننى رأيت هذه الرسالة المزعومة على شاشة الكمبيوتر فى الصيانة .. » ، ثُم أضفت بتهكم :

« العقل الباطن وألاعيبه !.. » ، فقال لى وهو ينهض :

« يبدو هذا .. هيّا حتى لا تتأخر على عملك .. »

* * *

مر هذا اليوم بلا مشاكل تُذكر ، فقد اكتسبت خبرة عظيمة أهلتنى لمعرفة أعطاب الأجهزة بمُجرد تشغيلها ، ساعدنى على هذا الاطلاع على مواقع الهاردوير المُتخصصة فى أوقات فراغى بالصيانة .

فى نهاية اليوم ، أرحت جسدى على السرير الصغير بينما أفكر . لقـد ساعدنى خلاء هذا اليوم بعض الشىء فى التفكر بموضوع الرسالة هذه . جزءٌ منى يتسائل :

ــ لماذا شغلك أمرها إلى هذا الحد ؟!

أجابه جزءٌ آخر :

ــ لا أعلم .. فلقد كنتُ طوال عُمرى أبحث فى ثنايا الواقع عن الأحلام .. طفل وحيد .. تربية سليمة .. حياة (مستورة) مُستقرة

إلى حد كبير .. كل هذا شحذ إمكانياتى الروحية على حساب تعاملاتى فى عالم الواقع .. عندما كُنتُ فى المرحلة الإعدادية كُنتُ أتمنى أن أصير أديبًا .. جزءٌ منى كان يتمتع بتلك الشفافية المدهشة فى التعامل مع المواقف والمُفارقات .. كُنت طفلاً واسع الخيال أنهك عقله التعليم الخاطئ ثُم أجهزت عليه قسوة الحياة .

ــ إذن ، هل تعتقد أنك تبحث عن اللامنطق فى عالم المنطق ؟!

ــ هذا أقرب احتمال إلى الصواب .

ــ ربما كُنتُ على حق .. ربما هى انتكاسة أخيرة لأحلام الطفولة .. ولكن إذا كانت كذلك .. فلما لا تمنحها فرصة للحياة سويعات قليلة فى عالمك .. ربما بعدها ستخمد إلى الأبد .. أمنحها أمنيتها الأخيرة ..

ــ ممم .. دعنا نتذكر إذن .. ماذا حملته إلينا الرسالة ؟ دعنا نُحاول تذكر محتوياتها ..

ــ هذا جيد ..

ــ إن الرسالة كلها كانت مؤلفة من رقمين هُما صفر وواحد .. وكأنها شفرة ثنائية (Binary) .. ولكننى أذكر أن هُناك جزءًا كان غير منطقى فيها .. نعم .. كان هُناك رقمين ليسا صفر وواحد .. بل ثلاثة أرقام .. تذكر معى ..

Looloo www.dvd4arab.com

مازلت أندهش من قدرات رجال المُخابرات فى حفظ رسائل كاملة بمُجرد النظر .. هذه مقدرة مازلت لا أستطع استيعابها جيدًا ..

ــ ولكنها مُمكنة .. حاول فقط .. حاول .. حاول .. حاول .. حاول .. حاول ..

« يا ألهى !.. » ، نطقت الكلمة ، وأنا أسرع بإخراجِ قلم من جيب قميصى ، وورقة مواصفات كمبيوتر جديد .. ورحتُ أخط بسرعة على ظهرها الرسالة التى تألقت برُدهات عقلى كألف شمس .

231111111111111010111111111111011111111111
1111111100101111111111111111111111111011111
1111111111111111111111101111111111111011111111
1111111111111111100111111111111111111111100101
1111111111111111111111110111110111111111111111
1111111111111111110111111111111111011111111111111
1111111111111111001011111111111111111111111111
0111111111111101011111111111111111111110111111
1111111111111111111111100700111111111111111111
1111111100

انتهيت من كتابتِها ، وقلبى يرتجف من الإثارة . فقدت كُنت أكتب كل رقم وأنا فى خوف شديدٍ من أن أفقد الرقم الذى يليه ..

حمدًا لله .. أعتقد أنها كانت كذلك .. كاملةً .. صحيحة .

إذن هذه هى بالفعل .. لنحاول أن نفكر بمنطقيَة :

أولاً : هُناك رقم 23 فى بداية الرسالة ، والذى يشُذ عن النُسق العام لها .. ماذا أيضًا ؟ هُناك رقم 7 .. وبما أنها شاذةَ عن النُسق .. فلنعزلها مُوَقتًا عنه .. ولنبحث فى ما تعنيه تتابع الأرقام الأخرى .

ثانيًا : هُناك الكثير من رقم 1 .. أضعاف أضعاف تكرار رقم 0 .

إذن ، لابــد أن تكرار رقم 1 بهذه الصورة يعنى شيئًا ما .

خططت على الورقة كلمة (التكرار) أسفل الرسالة ، وفكرت : ما نفع أيَة رسالة دون أبجديَة ؟

إذن لابد هُناك من أبجديَة ما لهذه الرسالة .. قد يكون مفتاحها التكرار .. فلنجرب ؟ ما الذى سوف نخسره ؟

ماذا عن رقم 1 .. آه !

يتكرر رقم واحد بعد رقم 23 الشاذ ثلاثة عشر مرة .. ما الذى يساوى رقم 13 فى الأبجدية ؟ رباه ؟!

Looloo www.dvd4arab.com

هل هى أبجدية عربية أم إنجليزية ؟ فلنبحث فى العربية أولاً .. دعنا نُرقم حروف العربية ..

أ1 ب2 ت3 ث4 ج5 ح6 خ7 د8 ذ9 ر10 ز11 س12 ش13

ص14 ض15 ط16 ظ17 ع18 غ19 ف20 ق21 ك22 ل23 م24 ن25 هـ26 و27 ى28

الآن ، فلنقُم باستبدال التكرارات الرقمية للـ (1) .

ش .. 0 .. أ .. 0 .. ر .. 0 .. ع .. 00 .. أ .. 0 .. ل .. 0 .. ه .. 0 .. ر .. 0 .. م .. 00 .. أ .. 0 .. ل .. 0 .. ج .. 0 .. ى .. 0 .. ز .. 0 .. ة .. 00 .. أ .. 0 .. ل .. 0 .. س .. 0 .. أ .. 0 .. ع .. 0 .. ة .. 00 .. م ..

ألمح وسط هذا الحل كلمات مفهومة .. لنر ..

« شـــارع الهرم .. الجيزة ؟.. » هذا جيد !.. « الساعة م .. »

إذن فالأصفار لم تكن سوى فواصل .. صفر واحد يعنى فاصل بين التكرار الرقمى لحرف والذى يليه حتى لا يُفسد عملية ترميز التكرار . بينما صفرين يعنى فاصل بين رمز حرف والحرف الذى يليه فى الكلمة التالية .

رائع !.. شعرت بنشوة غريبة ، مع رضا عن النفس ، وكأننى حللت أعقد الشفرات تفسيرًا !

إذن ، فالأرقام الشاذة كُتبت هكذا لكى تعنى ذاتها . أى أن تفسير الشفرة كاملاً هو :

« 23 شارع الهرم ، الجيزة .. الساعة 7 م .. »

ولكن أين تاريخ اليـــوم من كل هـــذا ؟ هل يعنى هذا أنه كان اليوم ؟!.. هل فاتنى هذا الموعد ؟!..

لحظة .. لابد أن أراجع الشفرة كاملةً .. الشفرة لا يُمكن أن تكون خاطئة على هذا النحو ..

الشفرة تحوى رقمين فقط .. هل لهما دور ؟.. فلنجرب : 23 و 7 . يوم 23 من شهر 7 ؟! أى الغد ؟!

* * *

لا أدرى كيـــف مرّ اليـــوم بهـــذه السرعة ، وكأننى مُشاهد للأحداث ، وليس مشاركًا فيها . لقـــد شعرت كأننى فى وضع القيادة الآلية ، أشق دوامات اليوم بتلقائية وشرود . ويشهد علىّ (محمد) الذى سألنى فى نهاية اليوم :

« مابالك ؟ تبدو غريبًا اليوم ؟.. »

Looloo
www.dvd4arab.com

أذكُر أننى أجبته فى شرود :

« لا شىء .. فقط مُرهق من أرق أمس .. »

تذكرت هذا الحديث القصير فى صعوبة ، وأنا أشق طريقى إلى العنوان المكتوب فى الرسالة . تذكرت أيضًا استئذانى من أستاذ محمد ..

« لدىَّ مشوار مهم جدًّا ... »

ـ « لا بأس يا حسن ... » ، هكذا قال متسامحًا معى كعادته .

كانت الساعة السادسة عندما أخذت ميكروباص الهرم ، وأنا مازلت على وجومى . تطلعت فى الناس المحشورة فى الميكروباص الذى بدا كـ (ساندويتش) منتفخ .

طفلٌ يبكى فتحتضنـــه أمــه البدينة مُحاولةً تهدأته .. شابان جامعيان يتناقشان فى هدف ماتش الأهلى هل كان صحيحًا أم لا .. موظف مُسن نائم .. سائق الميكروباص يقود بجنون .. صوت الكاسيت المرتفع بأغنية شعبية مزدحمة الكلام ومشوشة الموسيقى .

هذه هى مفردات عالم الميكروباص . توقع أى شىء .. توقع الأسوأ دائمًا .

حاول خيالى المُختنق من العالم المُحيط بى ، أن يطوف خارجًا من جسدى إلى هُناك .. إلى ذلك المكان .

من يُريدنى فى هذا المكان ؟ وما هذا المكان أساسًا ؟!

لم أشعر بنفسى إلا عند دخولنا الهرم . إن شارع الهرم يحمل دائمًا إيحاءات مشبوهة للإخوة العرب .

وهكذا وصلت أخيرًا إلى وجهتى .

* * *

20 .. 21 .. 22 .. ؟!

23 ! أخيرًا وصلتُ إلى المكان ، بينما يحف بسمعى نسمات الصيف العابثة .

كانت فيلا صغيرة . كيف أصف لك فيلا صغيرة ؟

كانت من طابق واحد ، مساحتها التقريبية حوالى مائة متر فقط ، تُحيط بها أشجار كثيفة مرتفعة ، وكان لها ممر فى الحديقة التى لا يتجاوز عرضه كعرض أى ممر ضيق .

بالفعل فيلا عجيبة للغاية . حيثُ تقع بين فيلتين ضخمتين ، وكأنها (محشورة) بينهما بطريقة مثيرة للضيق والتساؤل .

عبرت الممر القصير جدًّا ، وأنا مازلت مشدوهًا بكم الأخطاء الهندسية بتصميم هذه الفيلا . لست مهندسًا معماريًا ، ولكن

www.dvd4arab.com

الأمر لا يحتاج إلى خبرة أو ذوق من أى نوع حتى يُدرك الناظر مدى فشل تصميمها !

عمومًا هذا ليس من شأنى . ممدت يدى باحثًا عن الجرس ، وأنا أنظر نحو الباب ..

رؤية الباب صدمنى تمامًا . ما هذا ؟!

الباب . كان الباب دائريًا ، يُشبه إلى حد كبير باب خزائن البنوك الضخمة . فى مكان المقبض يُوجد بكرة لإدخال الأرقام السريّة ، وفى منتصف البـــاب توجد ذراع دائرية تدور حول محورها الأفقى لتفتح القُفل .

أى تعقيد هذا ؟ بل أيّة ألعاب شيطانية هذه ؟!

لقد أدركت الآن كم كُنتُ مجنونًا عندما جئت إلى هُنا!

كُنتُ بالفعل على وشك الذهاب ، تاركًا كل هذا الجنون خلفى ، متناسيًا إياه تمامًا ، وكأنه لم يكن . ولكن لسببٍ ما ، ابتسمت بغيظ ، وأنا أرمق الباب قائلاً بصوت مسموع :

« تُريد أن تلعب معى .. همم ؟ حسنًا !.. »

لسببٍ ما استفزتنى رؤية الباب المعدنى العجيب موصدًا بهذا الشكل المكتوم .

لم أجد لدى أبلغ من استخدام نفس مفاتيح الشفرة القديمة ، تلك المكونة من الآحاد والأصفار مع الأرقام الثلاثة الشاذة .

أخرجتُ ورقة الشفرة من جيبى ، وأخذتُ أُدخل الأرقام عبر البكرة ، فانفتح شريط رفيع طويل أعلاها . وكلما أدخلتُ رقمًا ، كتبه فى خانته . ذكرنى هذا بطريقة فتح الحقيبة السامسونايت فى الأفلام .

كُنت أشعر فى قرار نفسى أن هذا هو الرقم المطلوب .

وعندما انتهيت ، ظل الباب المعدنى على صمته للحظات قصار ، تصورت خلالها أنه لن يُفتح . ولكنه فى اللحظة التالية ، انفتح فى بساطة مُدهشة بصوت هايدروليكى غريب .

ومع انفتاحه ، توطد ذلك الشعور بنفسى أكثر .

* * *

أنا المقصود ــ استكمالاً لغرابة الفيلا الغامضة ، انفتح الباب على صالة فسيحة للغاية ، بدت كأنها تشغل مساحة الفيلا كلها ــ بكُل هذا .

لا بل هى كذلك بالفعل !

الصالة كانت عارية تمامًا من أى أثاث ... تمامًا تمامًا !

Looloo www.dvd4arab.com

الأدهى أنه لم يكن هنالك مخلوق واحد على الرغم من نظافة المكان ، وإضاءته الجيدة ، وأرضيته من البورسلين الأسود اللامع .

تحركتُ مشدوهًا فى الصالة ، وقدما صورتى على البورسلين مُلتصقة بقدمىَّ . أخذتُ أراقب الجدران السوداء ببلاهة ، حتى توقفتُ فى منتصف الصالة .

نظرتُ إلى الساعة فى يدى .. السابعة إلاّ دقيقة . لا بأس سأنتظر هذه الدقيقة ، بعدها سأفرّ من منطقة الجنون هذه .. سأفر إلى أبعد ما أستطيع .

كدتُ أُجن من إصرارى الغريب على هذا اللقاء ، على الرغم من معرفتى المسبقة بسببه ، إلاّ أن الأمر بدا لى فى هذا الوقت ــ والدقيقة لا تمر ! ــ أكثر جنونًا عن ذى قبل .

إن من يلبى نداء رسالة شفريّة كتبها مجنون ما ، لهو أكثر جنونًا من كاتبها !

الساعة الآن : تمام السابعة .. إذن حان الــو ..

« مرحبًا ... »

* * *

نظرت خلفى ، فوجدت صاحب الصوت . كان شابًا فى سنى تقريبًا ، له ملامح غير مُميزة ، لا يُمكن تذكرها بسهولة .. من أين أتى هذا الرجُل ؟!

« كيف حالك .. يا (حسن) ؟.. » ، قالها الشاب بأريحية لا أجد ما يُبررها . فجاء ردى جافًا بعض الشىء :

« من أنت ؟!.. »

ابتسم فى هدوء ، وقال :

« لا يهُم اسمى .. ولكنك ستعلم حكايتى .. ولمَ استدعيتك .. »

تخيلت ملامحى وأنا أمامه فى هذه اللحظة ، بالتأكيد أبدو الآن كطفل صغير يحاول هذا الرجُل إرضاءه .

ولكننى أضفتُ :

« الآن ... »

ــ « الآن .. » ، كرر كلمتى مؤكدًا ، وحرك يده اليمنى ، فــ ... فسقط مقعدان من قلب العدم خلفينا مباشرةً !

حدقت فى الكرسيين ، وأنا أحاول تذكر كيف فعلها . ولكن عيناى أصرتا : هذان الكرسيان سقطا من العدم

Looloo
www.dvd4arab.com

أثار هذا توجسى أكثر ، وقلت بعصبية هذه المرة :

« أسمع يا هذا .. لقد تحملتك وألاعيبك الشيطانية هذه كثيرًا .. إما أن تُفهمنى ما يحدث .. وماذا تُريد منى .. أو ... »

قاطعنى بصرامة مُفاجئة :

« ألم تستنتج شيئًا بعد ؟!.. » ، وسقط قناع الهدوء الزائف السابق ، بينما يقول فى لهجة مُهتزة بانفعال خفى :

« (حسن) ما سوف أقوله لك قد يبدو الجنون بعينه .. فقط أطلب منك التصديق .. حاول أن تصدقنى .. لا تقاطعنى حتى أنتهى من السرد .. اتفقنا ؟.. »

فاجأتنى لهجته الأخيرة ، ونقلت إلىَّ توترًا أنا فى غنى عنه تمامًا . أومأت برأسى قائلاً :

« اتفقنـــا ... »

جلسنا ، ونظرتُ إلى الباب المعدنى ، فوجدته مُغلقًا .. لم أعد أندهش من هذا المكان ، وصاحبه الغريب هذا .

شعرت بانقلاب الوضع السابق ، وأنه الطفل بينما أنا الأب الذى علىَّ تصديقه .

(3)

قال لى بلهجة غريبة ، وهو يُقرب وجهه منى :

« هذا .. هذا العالم الذى تعيش فيه .. ليس حقيقيًا !!.. »

فهمتك الآن . ورددتُ عليه بسخرية شديدة :

« لحظة !.. أنت إذن من ذلك النوع ؟!.. لمَ لم تقل منذ البداية يا رجُل ؟!.. وأين الفضائيون إذن ؟! متى موعـــ .. »

تراقص الغضب على وجهه للحظة ، ثُم لانت ملامحه ، وقال :

« طبعًا لن تُصدقنى بهذه البساطة .. ماذا عن كل ما شاهدته ؟! ألم ترى ما فعلته بالكرسيين ؟!.. أتريد أيّة إثباتات أخرى ؟!.. »

لم أشعر بأدنى تأثُر بكلماته ، بينما أجيب :

« نعـــم ... »

فكر لثوانٍ ، ثُم قال :

« أنت (حسن عطا الله) .. خريج معهد حاسبات .. والداك متوفيان منذ حوالى خمسة أعوام .. و ... »

اندهشتُ مما يقول إلى الأعماق ، فى حين توقف هو عن الكلام ، وكأنه أدرك أن هذا ليس كافيًا ..

Looloo
www.dvd4arab.com

فى اللحظـة التالية ، حرَّك يديّه ، فتحوَّل جزء من الأرض الرخاميَّة إلى عشـب أخضر حى ، وانفتحت الجدران فصـارت بلون سماء الصيف .. كيف فعلها ؟!

علق على ما فعل :

« لستُ ساحرًا ولا أدعى النبوَّة .. إننى لا أطلب منك أكثر من أن تستمع إلى .. ثُم بعدها افعل ما تُريد .. وصدقنى .. ستندهش عندما أروى لك الحكاية .. بل ربما أنت من سيُتمها !.. »

أنا من سيتمها ؟!

على كل حال ، منطقه مقبول . لنرى ما لديه .

لمحت بطرف بصرى المرتد إلى وجهـه الجزء المتحول من الفيلا يعود إلى حالته الطبيعيَّة . بينما قال هو ملوحًا بيديه :

« هذا هوما نُطلق عليه العالم الافتراضى .. هل شاهدت فيلم ماتريكس ؟.. إنه يشبهه إلى حد كبير .. »

أعتقد أننى شاهدته على أحد حواسيب الصيانة ذات مرَّة .

عندئذ بدأت مسامير الفهم تدق فى عقلى ، وشظايا الحقيقة الثلجيَّة تنغرس فى قلبى ، بينما هو يكمل ملوحًا بانفعال :

« العالم الذى تراه الآن والذى تعيش فيه هو عالم افتراضى .. يُدار بواسطة ... »

قاطعته ، وقلبى يسقط بين قدمى :

« هل تعنى أن هذا العالم يُدار بواسطة الآلات ؟!.. »

هز رأسه فى عنف ، قائلاً :

« لا .. الأمر ليس كالماتريكس تمامًا .. الأمر أكثر تعقيدًا بكثير .. »

« هذا العالم يُدار بواسطة عقلى أنا !.. » ، قالها بتمهل ، وهو يحاول أن يسقينى المعلومات بالملعقة ، وكأنه يخاف من أن جنونى .. ومن قال أننى لم أجن بعد ؟!

شعرت بجسدى يجف ، وعرق غزير يملأ يدى ، فمسحتهما ببنطالى ، وأنا متجمد الحلق .

أضاف :

« ليس عقلى وحدى .. هُناك أربعة أشخاص آخرون مثلى .. تنطلق عقولهم بلا هوادة لتكوين هذا العالم .. » ، ربما بدوت كأبله لحظتها ، لأنه تطلع إلىَّ لحظة ثُم قال :

« قالوا لنا أن هدف التجربة هو إطلاق مُثيرات معينة لعقولنا .. فتصنع عالمًا افتراضيًّا نحيا فيه بكل مواقفه وأحداثه .. بعدها تقوم البرامج الحوسبية المتطورة بتخزين تفاعلنا مع أحداث العالم الافتراضى على حاسوب متطور للغاية .. حيث تستخدم

Loolooo
www.dvd4arab.com

هذه المواقف المخزونة فى برمجـة أنسجة عقليّة تُزرع فى أمخاخ المتأخرين عقليًا فيما بعد .. »

كنت لحظتها لم أخرج من صدمة حقيقة هذا العالم بعد .. كيف ؟ إننى أشعر بكل ذرة هواء به .. وإذا كان ما يقوله صحيحًا ؟ كيف هو العالم الواقعى ؟ وما الاختلاف بين العالمين فى استقبال الشعور ؟! ومنذ متى وأنا فى العالم الافتراضى هذا ؟ متى كانت اللحظة الفاصلة بين العالم الواقعى و العالم الافتراضى ؟

ثُم ها هـو يداهمنى بحقيقة جديدة .. إننى كُنتُ على علم بالموضوع .. كيف ؟! إننى ..

« ولكننى لا أذكر أى شىء من هذا ... » ، قلتها له مُعبرًا عما يعتمل فى نفسى . فأجاب مُبتسمًا بتوتر :

« سؤالك هذا .. لقد أجابوا عنه من قبل .. قبل خضوعك لهذه التجربة .. من المنطقى أن يقوم البرنامج بحجب هذا الجزء من ذاكرتك لأنه سوف ينقض واقعيّة تعايشك مع العالم الافتراضى .. بل ربما يؤدى إلى فشل التجربة كلها... »

بدأ عقلى يزن كلماته جيدًا . ولكن هُناك نقطة ناقصة ؟!

ـ « ولمـاذا أنا ؟ من أنا فى العالم الواقعى ؟!.. » ، قلت الجزء الأخير ، بينما الرهبة تملأنى .

لقد انقلب الوضـع الآن ، وصـار الواقع كصندوق الساحر ، لا تتوقع أبدًا ماذا يحمل فى جعبته لك .

قال ببطء :

« الجزئية الثانية لا أعلمها حقيقةً .. والسؤال الأو ... »

أثار كلماته انفعالى ، فقاطعته بانفعال :

« كيف ؟! كيف ؟! أنت أخبرتنى بكل شىء .. ولكنك لا تعرف من أنا فى العالم الحقيقى ؟! !.. »

قال بصوت خافت :

« أخشى أن هذه هى الحقيقة .. ولكن على الأرجح أنك كما أنت فى العالم الواقعى .. » ، أعطانى تنبوّه بعض الطمأنينة ، بينما هو يُكمل :

« علىَّ أن أقول : إن ما قلته لم يكن كل الحقيقة !.. »

Looloo
www.dvd4arab.com

(4)

اللعنة .. اللعنة .. اللعنة ! إن ما قلته ماذا ؟! الآن يدور مخى داخل جمجمتى حرفيًا .

قال مستدركًا فى سرعة ، عندما رأى احمرار وجهى :

« أنا لم أكذب عليك .. ولكنك لم تنتبه لما أقول .. قُلتُ لك : أنهم قالوا لنا هذا .. »

يا إلهى !

لم أستطع النُطق بحرف ، وكأن جلطة الحقيقة انحشرت فى مُخى ، فأسكتته إلى الأبد .

تركته يسرد كُل ما يُريد سرده :

« الأمر مُعقد .. لا يستطيع أى شخص مهما بلغ إلاّ يقول ذلك .. »

« لقد كذبوا علينا فى كل شىء .. قالوا أنها تجربة لبرمجة أنسجة عقلية مستنسخة .. ولكنها لم تكُن كذلك أبدًا .. »

وماذا كانت ؟

استطرد :

« لقد سجنونا فى هذا العالم الافتراضى .. سجنونا حرفيًا .

فما أدركته عن آليات عمل هذه التجربة كان كالآتى :

أولاً : عبر برنامج العالم الافتراضى المدمج فى جهاز إرسال عقلى خاص .. تنطلق الإشارات المثيرة حاملاً تفاصيل العالم الافتراضى .. حيثُ يقوم هذا البرنامج بإثارة عقولنا .. ووضعها فى حالة تكوين العالم الافتراضى .: وكأنه المُخطط الذى يُرسل إلينا إشارات التنفيذ .

ثانيًا : يتكوّن عالم افتراضى مُحاكيًا العالم الواقعى ..

ثالثًا : يُرسل هذا العالم بواسطة إشارات عقليّة خاصة إلى عقلك .. حتى تحيا داخل هذا العالم و تتفاعل معه بطريقة طبيعية تمامًا ..

رابعًا : يقومون بتسجيل تفاعلاتك مع كل موقف فى هذا العالم .. ثُم تُنقل إلى الحاسوب الضخم الذى يخزنها ..

لم تكُن وظيفة البرنامج تكوين العالم الافتراضى فسحب .. بل أيضًا القيام بعملية رقابة على ما يتم إرساله من عقولنا التى تخلق العالم الافتراضى إلى عقلك الذى يعيش فيه ..

فأنا والمجموعة التى يطلقون عليها فى معملهم الفئة (أ) لم نعش عالمًا افتراضيًا على الرغم من أننا العقول التى كونت هذا العالم الافتراضى .. على عكسك .. »

Looloo
www.dvd4arab.com

صمت مشكورًا ؛ ليعطينى فرصة استيعاب كافية . لقد بدا لى الأمر أشبه بالحُلم . كل حقيقة صارت خيالاً ، وكل خيال صار حقيقةً .

قلتُ بوجوم بعد فترة الصمت هذه :

« إن كان الأمر كما تقول .. إذن كيف علمت بكل هذا ؟!.. »

أجاب ببساطة ، وابتسامة تلقائية تقوّس شفتيه الرفيعتين : ..

« حتى وقـت قريب لم أكن موجودًا فى أيّة حالة من حالات الوعى المعروفة .. لقد كُنت أنا فى حالة شبيهة بالغيبوبة حيثُ أفكارى ساكنة تمامًا .. سوداء تمامًا .. ومن فترة لأخرى ينفجر العدم من حولى بمشاهد داخل العالم الافتراضى ..

ولكن شيئًا حدث .. فجأة وجدتُ نفسى مُستيقظًا .. ليس كالمرة السابقة .. لقد كُنتُ واعيًا تمامًا .. وكان المكان حولى غريبًا .. أشبه بشاشات عرض مُتعددة .. كُل منها يعرض شيئًا مُختلفًا .

استغرقنى الوقت حتى بدأتُ ألف المـكان .. وبدأت أولى محاولاتى لفهم طبيعـة ما يحدُث .. وطبيعـة هذه المواقف .. وأخيرًا تذكرت ما أخبرونى به ..

فكرتُ وقتها : أليس من المفترض أن أعيش عالمًا افتراضيًا كما أخبرونى ؟ وكانت هذه إحدى أكاذيبهم .

عندها شعرتُ أن خطأً ما حدث .. وأننى صرت سجينًا فى عالم صامت .. عالم مُتعدد النوافذ تعرض كل نافذة فيه عالمًا مُختلفًا خاصًا بكل شخص منكم .. الفئة (ب) .

وعندما استجمعتُ كُل قواى العقلية .. بدأت أبذل كل جهد مُمكن للخروج من هذه الحالة ..

لا أدرى ما الذى يُمكن أن تعنيـه كلمـة (جهد) فى هذا الموقف .. ولكنها كانت موجودة بالتأكيد .. فبعد فترة لا بأس بها من الصبر والتركيز .. وجدت كيانى يمُر بنفق غريب متألق .. وانتهى بى الحال إلى مرورى داخل ذاكرة حاسوبهم !

لم أدر حتى الآن كيف فعلتها .. ولكننى وجدت نفسى أندفع بتلقائية إلى هُناك .

وهُناك بحثت فى الحاسوب .. حتى اخترقت بعض السجلات والملفات الخاصة .. وعندئذ فقط أدركت الحقيقة ... »

صار كل شىء مفهومًا الآن .

شعرت بملامحى المتصلبة كالصلصال تسخن وتلين ، بينما هو يضيف :

Looloo
www.dvd4arab.com

« وعندها أدركت أنه يجب ألاّ أصمت على هذه المهزلة .. لابد من وضع حدًا لهذا .. لذا تركت عقلى المنطلق يعود أدراجه .. اتصلت بباقى أفراد الفئة (أ) والفئة (ب) .. وأخبرتهم بالأمر كله .. وتعاهدنا على بذل كل الجهد من أجل الحرية ..

بعدها عبرتُ إلى عالمك الافتراضى .. من أجل مساعدتك .. فربما نصبح قـوّة فى وجوههـم .. ونخرج من هذه السجون الخيالية .. »

تألق عقلى بشموس الفهم ، وذهنى يصفو رويدًا رويدًا . قلتُ له بلهجة الخلاص :

« إذن كان لابد من هذه الرسائل المشفرة حتى لا يدركها حاسوبهم فيمنعها ... »

أومأ قائلاً :

« بالضـبط .. »

ولكننى انتبهت إلى نقطة أخرى . يبدو أنه فهم ما كُنتُ أريد قوله :

« لقد كانت محاولتى الشفرية هذه محاولةً يائسة .. ولكنها كانت أقصى ما يُمكننى فعله فى ذلـك الوقت .. فالشفرة ليست

مُعقدة بالنسـبة لحاسوبهم لكن معانيها غير مباشرة .. لذا لم يفهمها .. ولذا مررها بسلام .. لقد راهنتُ على قدرتك على تحليل الرسالة .. لقد بدا هذا كالمعجزة !.. فعلى الرغم من أننى من حفز عقلك على تذكرها صحيحةً .. إلا أن تحليلك لها .. لا بل اهتمامك بها كان أمرًا أشبه بالتعلق بالهواء !.. »

ابتسمت على الرُغم منى . لأول مرّة أشعر بفائدة لكيانى الحالم .

ولكننى سألته :

« ولكن كيف ـ على الرغم من كل هذه الرقابة الإلكترونية على التيارات العقلية ـ كيف استطعت إخبارى بكل هذا صراحةً ؟!.. »

قال لى مُنفعلاً مع كلامه :

« ألم تفهم بعد ؟ عالمهم الخيالى ينهار يا عزيزى !.. فلسبب ما يبدو إن المراقبة الإلكترونية أصابها عطب تدريجى .. فالبداية كانت مع استيقاظى بوعى على الرغم من أن جزءً من عقلى لازال يسهم فى تكوين العالم الافتراضى .. ثُم أمر الرسالة .. ثُم اختلاقى لهذا المكان السرى .. والآن إخبارك بكل الحقيقة .. الأمر صار واضحًا جدًا .. »

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ « وهل أنا الشخصية الحقيقية الوحيدة التى تعيش فى هذا العالم ؟.. »

قال بسرعة :

« لا .. هُناك أربع أشخاص آخرين غيرك .. أنتم الفئة (ب) .. »

أوحت ملامحه بأنه لم يخبرنى بكل شىء ما بعد .

ـ « ماذا هنالك ؟!.. »

قال بحزم هذه المرة :

« اسمعنى جيـدًا .. فما سـوف أقوله لك الآن ربما هو أكثر جنونًا من كل ما قلت .. ولكنه حقيقة !.. أقسم لك بذلك !.. »

شحن هذا الجزء المتبقى من منطقى ، لذا قُلتُ له بسرعة :

« ماذا يحدث ؟!.. »

رد بنفس السرعة :

« الهدف الحقيقى .. ألم تفكر فى هذا بعد ؟!.. »

بالفعل شعرت بمدى غبائى .. ما الهدف الحقيقى خلف كل هذا الخداع ؟

لم ينتظر إجابتى ، وقال بنفس السرعة السابقة :

« إن آخر ما يفكرون به هؤلاء هو مُساعدة الناس .. إنهم شياطين حقيقيون .. هل تعلم ما مُرادهم من كُل هذا ؟!.. »

هززت رأسى بالنفى فى ذات الوقت الذى تألق فيه مزيج من الصدمة والجنون فى عينيه السوداوين ، وهو يقول :

« هُم مجموعة من الأثرياء المخبولين .. هذا أبلغ ما يقال عنهم .. إنهم يعملون على هذا المشروع منذ عشر سنوات .. هل تعلم ما هدفهم من تجميع كل هذه المواقف العقلية عن البشر وتخزينها فى حاسوبهم العملاق ؟!.. لأنهم ـ وبكل جنون ـ يسعون إلى تكوين حاسوب عملاق على دراية كاملة بمكنونات نفوس البشر .. حاسوب عملاق يتعامل مع كل المواقف المُمكنة مثل إنسان حكيم عمره آلاف السنين .. وذلك من أجل .. من أجل .. »

ابتلع ريقه ، ثُم أضاف ـ وكأن جنونهم انتقل إليه ـ :

« من أجل عبادته !.. »

يا إلهى ! استغفرت الله العظيم من هذا الذى يقوله ، بينما ترتجف فرائصى من الفكرة .. أيّة فكرة شيطانية هذه ؟!

بدأ انفعاله يهدأ نسبيًا ، وقد أشفقت عليه صراحةً . ثُم بعد فترة وجيزة قال :

Looloo
www.dvd4arab.com

« إنهم مجموعة وثنيّة تدعو إلى ديانة مجنونة مثلهم .. هل تعلم ماذا سيفعلونه عنـدما يكتمل نضج هذا الحاسوب ؟!.. سيطلقون برنامجـه عبر الإنترنت والشـبكات العالمية .. حتى الأقمار الصناعية .. فتصير له مليارات العيون فى جميع أنحاء العالم .. وكأنهم بذلك يحاولون ــ وكـم هم حمقى ! ــ محاكاة قدرة الله سبحانه وتعالى .. هل تفهم خطورة ما يحدث ؟!.. هل تعى مدى فسق هذا ؟!.. »

قال وهو على وشك البكاء بالفعل :

« وهـل تعـلم ما حقيقـة دورنا فى هـذا ــ طبقًا لشريعتهم الفاسقة ؟!.. لقد صرنا ــ وبكامل إرادتنا ــ كالقرابين البشرية التى يقدمونها إلى إلههم المزعوم هذا من أجل أن يكتمل نموه ، وحتى يصير ــ حاشا لله ــ كاملاً .. »

شعرت كأن المكان من حولى يزداد ظلامًا ، وبدا لى أن نهاية العالم حانت .

أيّة شريعة مريضة هذه ؟! ما الذى يحدث فى نفوس البشر ؟! ألهذا الحد تركنا لأنفسنا الحبل على الغارب ؟!

ولكن من قال أن العلم فقط يولد من الجهل ؟! بل كثيرًا ما يولد الجهل من قلب العلم .. فالجهل كالعلم ليس حكرًا على أحد مهما بلغ .. وها هى تلك الجماعة كأكبر مثال .

وكما صـنع الجاهليون أصنامهم بأيديهم قديمًا ؛ ليعبدونها ، ويقدسونها .. هاهـم البشر فى ذروة علمهم يفعلون مثلهم ، ويعودون ألف عامًا .. لا بل آلاف الأعوام إلى الخلف .

إنها انتكاسة جديدة للجهل فى عصر العلم .. وأيّة انتكاسة ؟!

أفقت من خواطرى السوداوية ، وقلت له بخفوت :

« والحـل ؟!.. »

فقال بهدوئه السابق :

« أفضل ما فى الأمر أن هذا العالم ينهار .. لم يعد عالمًا مُحكمًا .. لقد بدأت ثغراته تزداد وتتسع .. » ، قرن قوله بالنهوض ، فنهضت معه ، وقال لى :

« سأريك شيئًا .. »

اتجهنا معًا إلى البـاب المعدنى الغريب . شعرت وكأن قرونًا طويلة تفصلنى عن لحظة دخولى هذا الباب .

أشار بيده ، فانفتح الباب بهدوء ، وعبرنا الحديقة إلى الشارع الهادئ الساكن . هُنا أشار إلى السماء فوقنا :

« انظـر .. »

Looloo
www.dvd4arab.com

وما رأيته كان مُدهشًا بالفعل . ففى كثير من المواضع ، بدت السماء و كأنها تتمزق ، كقطعة من المخمل الرقيق . وفى أجزاء أخرى بدأت ألوانها تتغير .. فتارةً أحمر .. تارةً أزرق .. تارةً أخضر ..

ثُم أشار إلى الشارع :

« انظـــر .. »

بدا الشارع تحت قدمينا يختفى ويحــل معه سواد عجيب ، ثُم يعود إلى هيئته الطبيعية ، ثُم يتحول إلى جدار نقف فوقه ، ثُم يتحول إلى ماء ، ثُم يعود إلى هيئته فى النهاية .. وهكذا ..

شعرت كأننى داخل لعبة فيديو مليئة بالأعطاب الرقمية (Bugs) .

ثُم قال لى :

« لابد أن نُعجل نهاية هذا العالم .. فلنحاول التركيز على هذه العيوب الكبيرة فيه .. فلنجلس هاهنا ولنتخيل أن العالم كله ملىء بهذه العيوب .. فلنتخيَل أننا خارجه الآن .. »

لكم كانت لكلماته وقع ساخر فى نفسى . إذا فعلتُ ما قاله فى العالم الطبيعى ، لابد أن ينتهى بى الأمر مُحبطًا أو مجنونًا . حتى هُنا تصير القواعد البشريّة المألوفة مُجرد جنون يجب تصحيحه !

وأضاف مُبتسمًا ابتسامة سريعة :

« ولا تقلق .. ففى نفس الوقت الآن يقوم زملاؤنا بالمثل .. إن إتحادنا فى هذا الوقت قوّة لا يُستهان بها .. وربما نستطيع فعل شىء ما ... »

بالفعل هو على صـــواب . إن أشد من نحتاج إليه الآن هو الاتحـــاد .

كُنتُ طوال الوقت السابق أسمع ، وأفعل ما يقول كالمسحور . حقًا لم أعد أدرى ماذا علىّ فعله . ولكننى ــ ككل المرات السابقة ــ نفذت كلامه بلا مُناقشة .

جلسنا على الرصيف المُقابل للفيلا ، وقال لى قبل أن يغمض عينيه :

« وداعًا .. أراك فى العالم الحقيقى .. عالمنا... »

اكتفيت بإيماءة رأس ، وفعلتُ مثله : أغمضت عينى آم ..

فلنتخيَل أن فجوات السماء وانقلابات الأرض تتسع .. وتنتشر .. إن الثغرات فى كل مُكان حقًا .. هذا ليس عالمًا مثاليًا بأيّة حال .. إنه ــ مهما بلغ ــ مُجرد عالم وهمى بشرى ..

والرغم من أن عيناى مُغلقتان ، إلاّ أن ذلك الحضور الغريب فى وجدانى أكد لى أننا ألتقينا . أكاد أشعر بكيان رفاقنا يلامس كيانى ، كنسمة صيفية هادئة تُدلك صدرك .

www.dvd4arab.com

نحن أكبر من هذا العالم .. أكبر منه ومن أكاذيبه .. وجوده يتضاءل إلى جوارنا باستمرار .. أكثر فأكثر ..

واربت جفنى الأيمن فى فضول ؛ لأرى ماذا يحدث لهذه العالم ، لأرى مدى قوة تأثيرنا عليه ، فهالنى ما رأيت .

هذا العالم ينهار بمعنى الكلمة . لقد تشوهت معالمه تمامًا ، وكأنه يتحرك كله إلى الأمام بسرعة جنونية .

كلمة (الأمام) هُنا حقيقية تمامًا . فكأن كُل عنصر فيه يُزاح إلى الأمام بسرعة خرافية .. وكأن العالم كله قد خضع لتأثير الفوتوشوب (Motion Blur) .

الأشجار .. الشوارع .. الأضواء .

نحن الآن على الأرض ، ثُم فى قلب جدار الفيلا وبين أحجارها ، ثُم فى صحراء ، ثُم مقلوبان على رأسينا فى قلب السماء ، ثُم داخل سحابة خفيفة كقطن مغزول .. وكأننا بالفعل داخل لعبة رقمية تالفة .

ثُم انفجارات ، وارتجاجات ، وانقلابات ..

بالتأكيد إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فلم يؤثر أى من هذا فينا . لقد صار أضعف مما نتصور .. عالم ضخم نعم .. ولكنه ضعيف ومُفرغ الآن ..

حدثت هذه التطورات بسرعة شديدة مُثيرة للجنون والغثيان فى ذات الوقت ، لذا أغمضتُ عينى بقوة ، و تركت كيانى يلتقط كيانهم ، لنكافح معًا من أجل الخروج من هذا العالم ، ومن أجل الحرية .

بدا الأمر كأنما نحاول تحريك الكرة الأرضية من مكانها . ولكننا تحاملنا على أنفسنا ، ودفعنا أكثر وأكثر .. لا أدرى هل كلمة دفعنا مُرادفة للمعنى الذى أقصد أم لا ؟!

اتحاد ، دفع ، ومثابرة من جانبنا ــ تصدع ، تشقق ، وسقوط من جانبه .

ثُم انهيار ، وصمت من الجانبين .

Looloo
www.dvd4arab.com

(5)

هه .. هل أنا على ما يُرام ؟!

تحت جفنين متثقلتين بالإرهاق ، دارت عيناى فى حيرة مهمومة ، بينما ألتقط أنفاسى ومعها أفكارى . لقد صار عقلى كمائدة مبعثرة من آثار الأحداث السابقة .

لذا رحتُ أُرتب كل شىء بأقصى ما مُنحتُ مــن هدوء . هل أفتح عينى الآن ؟ لا .. فلنؤجل هذا لفترة قصيرة .. إننى أحتاج بشدة لترتيب نفسى أو .

إذا وضعنا كل شىء فى موضعه الصحيح ، تتضح الصورة الــ ... القاتمة للغاية : لقد عبثوا بنا .. وكذبوا علينا .. لقد غشونا تمامًا .. و علينا بوسيلة ما أو بحيلة ما إيقاف كل هذا .. لقد صرنا جزءًا من الصورة شئنا أم أبينا .

ارتجفت نفسى من كل هذه التطورات الأخيرة . هذه أمور يستحيل أن تُصدق .. فما بالك بأن تُعاش ؟

هُناك كوابيس نحيا فيها فتحيا فينا .. وهُناك كوابيس تحيا فينا فنحيا فيها . تُرى أيهما هو كابوسى العزيز ؟!

عقلى مُكبل من التفكير ، ماذا علىَّ فعله ؟!

تداركتُ نفسى عندما مسَّ جفنى ضوء قوى ، فصبغ الرؤية من تحتهما بلون برتقالى شاحب .

علىَّ أن أفتح عينى الآن .

وكما تنفتح الأبواب المُغلقة طويلاً بصرير مزعج ، انفرج جفناى المُلتصقان عن بعضهما بتكة خافتة ..

دقائق طويلة من الآلام الحادة كالخناجر ..

الآن ، بدأت الرؤية تتضح تدريجيًا ..

هذا المكان يشبه غرفة العناية المُركزة فى المشتشفيات . تذكرتُ الآن معالمه التى كُنتُ قد نسيتها . سقف مُرتفع أبيض لامع ، تتوزع فيه الاضاءة بتنسيق دقيق . خفضتُ عينى فوجدت رجُلاً قادمًا نحوى ..

« تم إيقاف البرنامج .. فى انتظار عملية إعادة التحميل .. » ، قالها صوت آلى باللغة الإنجليزية .

إعادة التحميل ؟! لابد ألاَّ أسمح لهم بهذا !

اقترب الرجُل منى وهو يقول بلهجة من يُحدث أخرس :

« أخيرًا استيقظت !.. مرحبًا بك إلى عالمنا مرة أخرى »

Looloo www.dvd4arab.com

تجاهلت عبارته . فتحت فمى بصعوبة ، وقلت له بصوت مختنق أجش بطىء :

« أريد .. أن .. أتحدث .. مع .. أحد المسئولين .. هُنا .. »

بدا على ملامحه التعجب ، ولم يزد شيئًا على كلامى ، ثُم ابتعد مرة أخرى .. يبدوأنه ذهب ليخبر رئيسه بالأمر .

ولمّا كُنتُ أملك كل الوقت ، فقد شرعت فى التلفُت حولى ، مُتجاهـلاً آلام رقبتى . رأيـت جسـدًا آخر راقـدًا على مسافة متوسطة عنى ، وهُناك جسد آخر على جانبى الآخر . إن طريقة ترتيب الأجساد تتخذ زوايا مائلة بطريقة غريبة ..

السرير مُريح للغاية . دفعت ظهرى داخله بقوة أكثر ، بينما لا زلتُ أبحث عن حل لهذه المصيدة الإلكترونية الرهيبة .

كيف سأواجههم ؟! وماذا سأقول لهم ؟

ثُم لماذا لم يستيقظ أصحاب الأجساد بعد ؟! أليسوا هؤلاء هم رفاقى فى عالم الوهم ؟!

توقفت أسئلتى ، عندما عاجلنى قدوم الرجُل السابق .

أسرع الرجُل فى فك مفاتيح خاصة خلف السرير ، فتحرر من الجدار المستند عليه ، و ...

وبآلية تامة ، انفصلت الأقطاب الخاصة المُتصلة بصدرى ، كذلك خرجت أنابيب التغذية من داخل عروقى ، فتأوهت بخفوت فى ألم . ثُم انضغط جلد منطقة الاختراق بواسطة قرص خاص برز من طرف الأنبوب . بعدها ارتفعت الخوذة الضخمة من على رأسى .. هذا عجيب .. فلم أشعر بها إلاّ الآن .

دفع الرجل السرير أمامه ، فتحرك بنعومة ساهمت مع جو المكان فى هز مستنقع التوتر فى وجدانى .. وكأننى مُقبل على جراحة طويلة .

صعدنا على سُلم قصير خاص للمركبات ، فبدا المكان أوضح على الرغم من قصر هذا الارتفاع . لقد كانت القاعة أسطوانية ، فى منتصفها برج إلكترونى مهيب ، تتألق أضواؤه بتقطع ، وبدا كأنه إمبراطور المكان .. أهذا هو إلههم المزعوم ؟!

لقد ساهمت معرفتى بهدفهم الشيطانى فى ترك انطباع سيئ عن هذا البرج الإلكترونى العملاق .. فبدا مهيبًا بطريقة ما .

وكانت أسرّتنا تتصـل بظهورهـا إلى سفح هـذا التل من السليكون وأشباه الموصلات ، بتوزيع يتناسب مع طبيعة المكان الأسطوانية .. يا إلهى ! لقد تذكرت هذا المكان !

Looloo
www.dvd4arab.com

التروس ؟! بالفعل كانت أجسادنا المفرودة أشبه بشفرات ترس عملاق . ترس قوامه آلة وأذرعه بشرية .

نظرتُ بلا وعى بعيدًا عن كل هذا ، فارتطم نظرى بذقن العامل ، وهو لا يزال يدفعنى .. فبدا لى من هذه النظرة السفلية كمارد ضخم فى عالم بارد ..

نظر لى للحظة ، ثُم دفع الباب الذى توقفنا عنده .. ودخلنا .

* * *

لم تكن الغرفة إلاّ مكتبًا .

أوقف العامل السرير جـوار الحائط ، عندها سمعت صوتًا مألوفًا يقول فى هدوء :

« أتركنا وحدنا .. » ، فنفذ العامل بما أُمر ، وأغلق الباب خلفه فى هدوء .

اعتدلتُ فى رقدتى بصعوبة شديدة ، مُتأوهًا بآلام أشد ، وأنا أواجهه .. لقد تذكرته ! إنه (عزت) المشرف على حالتى .

بينما بادر هو بالحديث : .. « نأسف على ما حدث .. لم يكن هذا الخطأ متوقعًا على الإطلاق .. »

لم أفهم ماذا يقصد ، فأردف :

« التقرير المبدئى يُرجح ازدياد الحمل على البرنامج بصورة أو بأخرى .. فصار Over — flooded بلغتنا :

لقد فقد البرنامج السيطرة .. مما أدى إلى انهيار العالم الافتراضى تمامًا .. ولذا اضطررنا إلى إيقاف البرنامج حتى نصلح هذا الخطأ .. »

وابتسم مُطمئنًا :

« لا تقلق .. ستعود إلى البرنامج فى نهاية هذا اليوم على أقصى تقدير .. وبلا مشاكل هذه المرّة .. »

قُلتُ له مُتجاهلاً العبارة الأخيرة بذات الصوت المختنق الأجش :

« كم عامًا مضى ؟!.. » ، فصمت للحظات ، كدتُ أعيد فيها سؤالى ، ولكنه أجاب :

« عام واحد .. »

شعرت بأعماقى تنغمس فى الثلج .. عام كامل مر كالريح ؟! كومضة ضوء ؟!

عندما رأى صدمتى أتم مُستدركًا :

« كما أخبرناك من قبل .. الزمن فى العالم الافتراضى يمر أسرع بكثير من العالم الطبيعى .. »

Looloo
www.dvd4arab.com

ثُم غمز بعينيه :

« وهذه مزية كبيرة كما تعلم .. »

ابتلعت ما تبقى من ريقى عبر حلقى الجاف كجلد تمساح ، وقلت متحفزًا :

« ولكننى لن أُكمل المُدة .. » ، وبينما عقلى يبحث عما سوف أقوله لاحقًا ، فرد علىَّ بدهشة :

« لماذا ؟!.. إن العقد ينصُ ــ .. »

« ومن حقى الرجوع فيه .. » ، هكذا قاطعته هذه المرّة .

رد علىَّ ، بينما الدهشة لازالت تعلو ملامحه :

« ونحن أيضًا لنا حقوقنا متمثلةً فى الشرط الجزائى !.. »

وأضاف بلهجة بائع :

« وبهذا لن تستلم أى مبلغ منـــا .. وستكون قد قضيت عامًا كاملاً هباءً .. »

صُدمت من الإجابة للحظة ، وكأننى نسيت هذا .. سنة كاملة من عمرى انقضت ؟! وبلا ثمن أيضًا ؟!

هاجمنى قول ذلك الرفيق فى العالم الافتراضى :

« لأنهم ــ وبكل جنون ــ يسعون إلى تكوين حاسوب عملاق على دراية كاملة بمكنونات نفوس البشر .. حاسوب عملاق يتعامل أمام كل المواقف المُمكنة مثل إنسان حكيم عمره آلاف السنين .. و ذلك من أجل .. من أجل .. »

« من أجل عبادته !.. »

لاشك أنه لاحظ انتفاضتى ، بينما لازلتُ أحسب الأمر .. ومن قال أننى أريد أموالهم البغيضة ؟!

قطع علىَّ تفكيرى قائلاً :

« اسمح لى يا أستاذ حسن .. »

ــ « ماذا ؟.. »

لقد جئتنا منذ سنة بكامل إرادتك .. عرضنا عليك عرضنا .. ووافقت .. صفقة ممتازة مُتوافقة الأطراف :

أنت تبيع عشر سنوات من عُمرك فى فرصة جديدة بالعالم الافتراضى مُقابل مليون دولار بلا سنتًا ناقصًا .. ما الذى جدَّ فى الموضوع ؟! خاصةً وأنت تعلم أن الهدف من هذا العالم هدفًا شريفًا ونزيهًا .. مُساعدة المُتأخرين عقليًا .. عن طريق استخدام تفاعلاتك الحياتية والعقلية فى العالم الافتراضى لبرمجة أنسجة

www.dvd4arab.com

خاصة يتم زرعها فى أمخاخهم .. فتعينهم على تطوير قدراتهم فى التعاملات الاجتماعيـــة والمهنيّة .. وبالتـــالى تُعالج التأخر العقلى بصورة جذريّة ..

لذا اسمح لى أن أسأل : ما الجديد فى الأمر ؟!.. »

هل أجازف بإخباره ، أم ...

— « إذن أسمح لى أنا بأن أجيبك .. لقد كذبتم علينا علنًا .. وأحبُ أن أحييكم على هذا .. فلقد فعلتموها بجراءة وبوجهٍ مكشوف .. مما أزال كل آثار الشك فى نفوسنا .. و... »

لم أشعر بنفسى . فقد انفتح فمى كخرطوم مياه متدفقة ، يسكب الكلمات فى كل اتجاه . ولكنه قاطعنى فى حدة :

« مهلاً .. مهلاً .. ما الذى تقوله يا أستاذ حسن ؟! وأيّة كذبة هذه التى تتحدث عنها ؟!.. »

لقد دفعنى هذا الوغد إلى خارج حدود عقلى بالفعل .

انطلقت أرد عليه بغضب كاسح :

« هل لازال لديك الجراءة فى الاستمرار على هذه الكذبة ؟!.. هل تستطيع أن تفسر لى الهدف الحقيقى وراء مشروعكم هذا ؟!.. لا تقل لى من فضلك مُساعدة المتأخرين وهذا الهراء !.. أكاذيبكم

حقيرة وأهدافكم أحقر !.. ماذا تُريدون منّا حقًا ؟! إله إلكترونى حقير مثلكم !.. و.. ونحن ندفع أعمارنا قرابين لسيادته !!.. »

بدا كتمثال آدمى للذهول . ولم أستطع فى الحقيقة تمييز ما إذا كان ذهوله بريئًا أم خبيثًا ..

« أريد أن أخرج من هُنا .. فورًا !.. » ، قلتها ، وأنا أتحرك بالفعل ، فجاوبنى جسدى بآلام عنيفة من طول الرقود .

قال مُستفيقًا :

« أستاذ حسن .. هل تعى حقًا ما تقول ؟!

لقد حافظنا جيدًا على جسدك طوال الفترة السابقة .. من برامج تأهيلية مكثفة لحماية العضلات والحواس من الضمور .. إلى تمريض فائق لحماية جسدك من قرح الفراش .. إلى تغذية أنبوبية مثالية .. إلى جو مُعقم مُحكم .. ثُم تأتى الآن وتتهمنا بهذا الاتهام الخطير ؟! لقد كانت حياتك بين يدينا هل تدرك ذلك ؟!

إنك تتهمنا بممارسة شعائر ديانة مجهولة ؟!.. ماذا يعنى هذا ؟!.. لحظة كى نستوضح الأمر معًا قبل أيّة تعسفات .. إن هدفنا واضح كما قُلتُ لك .. وليس لدينا ما نخشاه على الإطلاق .. فما تقوله ليس له أى أساس من الصحة !.. من قال لك هذا ؟!.. »

فاجأتنى كلماته المتعقلة ، ولكنها لن تخدعنى .

Looloo
www.dvd4arab.com

على أننى تماسكت ، وقلت متنهدًا :

« سأخبرك بكل شىء .. »

وبدأتُ أروى له ما حدث .

* * *

كان ذلك الصباح كئيبًا .

فكرت بذلك ، وأنا أتطلع إلى السماء العكرة المزاج ، فقد كتمت السحب مرحها وعنفوانها .

كُنتُ جالسًا فى مقهى (سيد) فى الشارع المجاور لمسكنى ، أشرب الشاى الأسود فى مزاج بنفس لون الشاى ، وأنا أفكر بما سوف أفعل . إنها عادتى المُعتادة كل يوم منذ تخرجى .

ومثل كل يوم ، لم يكن هناك جديدًا . فكرت بنفس حلول اليوم السابق ، تمحصت فيهـا شاردًا ، ثُم فى النهـاية أدركت أنها مستحيلة ، فلعنتها ، و لعنت الدنيا كلها .. مثل كل يوم أيضًا .

« سلام عليكم .. » ، كان (عبود) .

ــ « وعليكم السـلام ورحمـه الله !.. » ، ردت عليـه كل الحناجر المختنقـة بالمقهى ، وكأنه النشيد الصباحى . كُل هذا

وسط أجواء الشاى والشيشة .. ورائحة الجدران الأسمنتية التى تشربت الرطوبة .

اقترب منى (عبود) ، وجلس أمامى قائلاً :

« صباح الخير .. » ، ووضع الجريدة اليومية على الطاولة .

أجبته بروتينية :

« صباح الخير يا عبود .. كيف الأحوال ؟!.. »

ــ « الحمد لله .. » .

ــ « وما أخبار الأهل ؟!.. »

ــ « عادى .. هل وجدت أيّة وظيفة بعد ؟!.. »

أجبته فى مرارة ساخرة ، وأنا أختطف الجريدة :

« هذا سؤال ؟!.. »

قلّبت صفحاتها فى سرعة ، فأنا لستُ فى مزاج جيّد للأخبار الثقيلة فى بداية يوم كهذا ، وماذا ستفيدنى أخبار الدنيا ؟! هل ستسد جوعى ؟! هل ستدفع لى إيجار الكوخ الذى أسكنه ؟!

فتحت صفحة الوظائف ، وأخذت أبحث بعينىَ .

فرصة لكل شاب مُتعلّم ، وظيفة مرموقة بدخل محترم ..

Looloo

شروط الوظيفة : شهادة جامعيّة :

تجارة ــ زراعة .

أو شهادة معهد :

لغات ــ حاسبات ــ تعاون .

* يحضر المُتقدمون فى تمام الساعة الثانية عشر ظهرًا من أجل المقابلة .

العنوان :..... .

أثلج هذا الإعلان صدرى ، فلم أُركز فيما يقول (عبود) ، وبدا لى حديثه كهمهمات غير مفسرة .

« أنت معى يا أبوعلى ؟!.. »

نظرت له بنصف وعى مُبتسمًا :

« جعلتنى أبًا بهذه السرعة ؟!.. آسف لم أركز فى حديثك .. فهناك إعلان عن وظيفة جيّدة .. وعلىّ أن أستعد لها .. ادع لى .. »

قال مُبتسمًا هو الآخر :

« يا رب .. بالتوفيق ... »

دفعت حساب الشاى ، وصعدت إلى غرفتى ؛ لاستعد للمُقابلة .

* * *

بعد أسبوعين من المُقابلة الأولى ، كُنتُ أدلف إلى مبنى قصير حديث مُكوّن من طابقين . التقيت أمامه بالحارس ، الذى أرشدنى إلى المصعد .

دلف معى إلى المصعد ، ثُم فوجئت به يضغط زرًا خاصًا تحت غطاء حديدى خفى بلون الجدار .

عندئذ ، اكتشفت أنه مهبط وليس المصعد . فالإزاحة الخفيّة إلى أعلى ، والتى شعرتُ بها ، تدُل على أننا ننخفض ، لا نرتفع ، مما أثار توجسات خاصة لدىّ .

انفتح باب (المصعد) على ممر واسع ، وفى نهايته باب عملاق .

تحركنا معًا على الموكيت الأحمر بطول الممر ، تحفنا رائحة خليط من عطر ، ورائحة دهان الأبنية الحديثة .

توقف الحارس أمام الباب العملاق ، بينما فُتح أحد الأبواب على طول الممر خلفنا ، وخرج منه (عزت البدراوى) .. الرجل الذى أجرى معى المقابلة فى المرّة الأولى .

قال لى ، ويتجه نحوى :

« مرحبًا .. كيف حالك يا أستاذ حسن ؟.. .. »

اجبته بينما عبرت ملامحى عن دهشتى بهذا المكان :

www.dvd4arab.com

« حمدًا لله على كل شيء .. أهلاً أستاذ عزت .. »

عند تلك النقطة ، تركنا الحارس . بينما صافحنى (عزت) ، وفتح الباب العملاق بواسطة كارت خاص أخرجه من جيبه .

قُلتُ له ونحن ندلف :

« أستاذ عزت .. هل لى ... »

لم يُقاطعنى الرجُل ، ولكن المشهد الذى أمامى هو ما قطع حديثى . كُنتُ أرى القاعة الأسطوانية لأول مرّة .

* * *

ربما فهمته خطأ .

« أعد ما قلته مرة أخرى يا أستاذ عزت ... » ، قلتها له مُقنعًا نفسى بأننى لم أفهم جيدًا ما يقصد .

فقال لى مُبتسمًا بهدوء :

« كما قُلتُ لك يا أستاذ (حسن) .. لقد اخترناك من بين مئات المُتقدمين .. وكما تذكر فى المقابلة السابقة .. لقد سألناك عن كُل شيء تقريبًا فى حياتك .. طموحاتك .. أحلامك .. أفكارك .. مخاوفك .. عيوبك .. كُل شيء .. »

ثُم أتم كلامه :

« كان هدفنا من كُل هذا هو تحديد طراز شخصيتك .. أمن المُمكن أن توافق أم لا ؟!.. »

هُنا أُضيف التوتر إلى قائمة الأحاسيس المتناقضة التى شعرت بها . وللحظة شعرتُ أنه اخترق صدرى ، وأنه يعلم ميقات وقوة كل ضربة لقلبى .

« إن عرضنا واضح للغاية يا أستاذ حسن .. » ، وضربنى بنظره فى العينين ، قائلاً ببطء بدا لى وقتها مُخيفًا :

« ونحن نعلم أنك ستوافق .. »

توترت شفتى العليا ، بينما أنظر إلى ملامحه الهادئة ، و التى تخترق كيانى .. كالسكين فى قطعة الزُبد .. أوهكذا بدا لى .

ثُم ابتعد بنظره عنى ، وأخذ يطالع ملفًا أمامه على المكتب . وقال :

« مهلتك حتى مساء الغد .. »

وأضاف بصوته المحايد :

« سأنتظرك ... »

* * *

« سأنتظرك .. »

« سأنتظرك .. »

« سأنتظرك .. »

Looloo
www.dvd4arab.com

ليلتها لم يغمض لى جفن . وظل جسدى هامدًا على السرير ، وأنا أفكر فى شرود كالمحموم . بينما تتأرجح الكلمة فى عقلى كالبندول .. إنه ينتظر .

عبثًا ، حاولتُ رسم المُخطط الذى يجب أن تسير عليه حياتى دون هذه الفكرة . ماذا سأفعل غدًا إن استبعدتِ الفكره ؟ هل سأظل أبحث عن عمل طوال حياتى ؟ ماذا عن الغد ؟ هل هذه هى حياتى الأبديّة ؟!

ووجدتُ الفكرة تسحبنى مرّة أخرى ، إلى أعماق خيالية مثيرة خلاّبة ..

إذا وافقتُ ، ستمر السنوات العشر كالريح ، أجد بعدها نفسى مستيقظًا ، وأنا مازلتُ فى النصف الأول من الثلاثينيات ، ومعى مليون دولار ! ألم يقل (عزت) هذا ؟!

ماذا لو كافحت واجتهدت وثابرت فى حياتى هذه ؟! هل يُمكننى تحقيق واحد على ألف من هذا المبلغ حتى خلال عُمرى كله ؟!

وفى أعمق أعماق خيالى ، انتصب صرح عملاق لمقر مؤسسة (عطا الله) للإلكترونيات ــ شركتى بعد عشْرَة خمسة عشر عامًا من الآن .

لقاءات .. اجتماعات .. صفقات .. أموال ..

وحسدتُ نفسى على هذا الموقف . فمن بين مئات البشر جاءتنى هذه الفرصة . فرصـــة مشروعة ، وهدفها شريف ونزيه .. ما الذى يجعلنى أُفكر فى الأمر حتى ؟!

شعرت للحظتها كمن يعدو فى ماراثونٍ طويل ، ثُم فجأة يمنحونه استراحة جانبيّة خارج السباق و ــ لحظه السعيد ــ لن تؤثر هذه الاستراحة على تقدمه .. بل ستدفعه إلى الأمام على رأس السباق !

أن تنظر إلى البشر فى عدوهم المُنهك الطويل للحاق بالركب ، بينما تستمع بالراحة التى مُنيت بها فى هدوء خارج كل هذا ، لهو قمة ما يطمح إليه إنسان .

لذا ــ وبعد ليلة مُرهقة من الأحلام المُصطرعة مع الكوابيس ــ وجدتُ نفسى أمام (عزت البدراوى) قائلاً :

« موافق ... »

فابتسم بسرعة قائلاً :

« خيار حكيم ... »

وعلى الرغم من ابتسامتى الظاهريّة ، إلاّ أن جزءًا منى كان يكره هذا الوغـد . لقد استطاع إجبارى بطريقة ما على هذا ، والأدهى أنه أقنعنى أن الخيار خيارى فى الأساس !

Looloo
www.dvd4arab.com

ثُم أخرج ورقتين من أحد أدراج مكتبه ، وهو يقول :

« هذه نسخة العقد الخاصة بنا .. وهذه هى الخاصة بك .. أمامك اليوم فقط لترتيب حالك .. احفظ نسختك فى مكان أمين .. فهذا هو ضمانك ... »

أعطانى الورقتين ، فأخذتهما مُتطلعًا إلى بنود العقد بعناية .

همم .. هممم .. همم ..

شرط جزائى ؟!

« ينص الشرط الجزائى على عـدم تلقى العميل أى مبلغ ، إذا لم يوافق ــ تحت أى سبب ــ على استكمال التجربة إلى نهاية المدة المتفق عليها ... »

لا يوجد بهذا ما يُثير الريبة على ما أعتقد .. أليس كذلك ؟!.. لابد من شرط جزائى يحميهم .. هذا حقهم .

أم أننى سأتراجع فى قرارى ؟!

قاطع أفكارى قائلاً :

« هل هناك شىء غير واضح فى البنود ؟!.. »

هززت رأسى مُتطلعًا إلى البنود فى الورقتين للمرة الأخيرة ، وقلت :

« لا .. كل شىء واضح للغاية ... » ، فأضاف مُعطيًا إياى قلمًا :

« جيد .. يجب أن تمضى على العقدين .. نعم هُنا .. وهُنا ... »

خططت إمضائى . وقُلته له بينمـا أسلمه أحدهمـا ، وأثنى الآخر واضعًا إياه فى جيب قميصى :

« ولكن ألا ترى معى أنه ليس ضمانًا كافيًا ؟!.. » ، فأجابنى بلهجة بها غير رسميّة واضحة :

« يُمكنك إعطاؤه إلى أحد معارفك .. مصحوبًا بالقصة كاملة بخط يدك .. على أن يُسلمها للشرطة إذا أخلفنا بوعدنا .. »

حاولت إقناع نفسى بكلامه وأنا أنهض ، بينما أضاف هو :

« سوف يتم إمضاء الشيك الخاص بك .. قبل دخولك التجربة .. ولكن لن تستطيع صرفه إلاّ إتمامها .. »

ولكن هذا لم يمنع كيانى من القشعريرة ، عندما أتى ذكر التجربة .

Looloo
www.dvd4arab.com

(6)

هُنا انتهيت من السرد ، بينما لا تزال أذنى تُردد كلمات (عبود) الأخيرة :

ــ سأشتاق إليك يا أبوعلى ..

ــ لا تنس يا (عبود) .. لابد أن تُسلم هذا المظروف فى الوقت الذى حددتهُ لك .. وغير مسموح لك أن تفتحه .. أسمعتنى ؟!.. لا تفتحه إلاّ بعد انقضاء عشر سنوات من الآن .. إذا لم أتصل بك وقتها .. سلمه إلى الشرطة ..

ــ أنا لا أرتاح لهذا الموضوع يا (حسن) .. هل أنت مُتأكد أنك لست متورطًا فى شىء غير قانونى ؟!

ــ لا يا (عبود) .. لستُ من هذا النوع .. الأمر أبسط من هذا بكثير .. ولكن على قدر بساطته إلاّ أنه يحتاج بشدة إلى هذه الخطوة المهمة .. إنها مُجرد خطة احتياطية .. وعلى الأرجح لن تُنفذ .. لا تنسنى يا (عبود) ..

ــ لا تقلق .. سأحفظها فى صدرى يا صديقى .. كما سأحفظك ..

« وهل صدقتُ هذا ؟!.. »

صاح بالعبارة فى استنكار ذاهل ، فأفقتُ قائلاً :

« أتستطع تفسير الأمر لى ؟!.. »

تنبهت فى هذه اللحظة أن صـوتى بدأ يستعيد نبرته الأصليّة وأن ذهنى بدأ يصفو أكثر فأكثر . بينما أجاب (عزت) مندهشًا :

« الأمر لا يحتـاج إلى تفسـيرات عبقريّة !.. إن هذا كله لا يحمل أدنى أمارة على الصحة .. إنه خطأ البرنامج .. بسبب هذا الخطأ فقد البرنامج واقعيّته ومصداقيّته فى معالجة العالم الافتراضى .. كما فقد سيطرته التى تحجب ذكرياتك مع التجربة .. مما أدى إلى حدوث انتكاسة لعقلك الباطن وذاكرتك فى صورة هذا الرجل الذى تحدثت عنه .. ولأنك فى الأساس كُنت متوجسًا من الفكرة .. مثلك مثل المُرشحين الآخرين .. اختلق عقلك هذا الهدف البديل .. كنوع من معاقبة الذات على دخول هذا المشروع .. أو كنوع من تجريمه .. حتى تعود إلى وعيك وترفض دخول العالم الافتراضى مرة أخرى !.. هذا ما أراه منطقيًا !.. »

ألجمنى تفسيره . فقد كان منطقيًا بصورة مدهشة . ولكن ماذا عن التفسير الآخر ؟! أليس منطقيًا ؟! ما الذى يعيبه ؟! نقلت أفكارى على لسانى :

« إذن .. هل تستطع أن توضح لى .. ما هى نقاط الضعف فى قصتى هذه ؟!.. »

Looloo
www.dvd4arab.com

فكر لوهلة ثُم قال بلهجة أخف ، ملوحًا بيده :

« كُل ما فيها خطأ .. وغير منطقى بالمرّة .. أبسط شىء .. هل كُنت تتصور أننا سوف نوقظك بعد عشر السنوات .. لنطلق سراحك فتفضح سرنا .. إن كان هذا هو هدفنا ؟!

تذكر أننى كُنتُ صاحب فكرة تأمين نفسك بالشرطة .. فهل من المنطقى أن أُخبرك بوسيلة للضغط علينا ؟!.. ثُم ماذا عن فكرة (الإله من الآلة) هذه ؟! إنها تُناقض نفسها بصورة واضحة .. فلو افترضنا صحة قولك .. هل من المنطقى أن نأتى بأشخاص من خارجنا لنُخضعهم كقرابين لهذه الآلة ؟! ألم يكن من الأولى أن نستخدم أنفسنا لذلك .. ونحن المؤمنون بها ــ حاشا لله ــ ؟! ثُم ماذا عن الشخص الذى أخبرك بكل هذا ؟!.. هل يمكنك تعرُّف وجهه ؟.. »

لم ينتظر إجابتى ، بل قرن قوله بأن أخرج مجموعة من الملفات من درج مكتبه ، وفتحها أمامى .

تحرك من جلسته ، وقطع المسافة بين المكتب والسرير بخطوات طويلة رخيمة حاملاً الملفات إلى . ثُم وضع عشرة ملفات أمامى على السرير ، وعلى كل ملف صورة صاحبه . فنظرت إليها بعينين آملتين .. ولكن ..

على الرغم من أننى لا أذكر شكل هذا الزائر ، إلاّ أننى أشعر أنه ليس أى شخص من هؤلاء فى الصور ..

سحب كرسيًا من أمام مكتبه ، ووضعه على مقربة منى ، ثُم جلس ، وهو يُتم حديثه :

« كما أن الكلام يحمل الكثير من المُغالطات المختلطة بمواقف غريبة أشبه بالخيال العلمى .. كلامه لا يُمكنه صنع قصة متماسكة أبدًا .. أما عن الحقيقة الواحدة التى أقر بها وسط كل هذا .. هو موضوع الفئة (أ) والفئة (ب) .. وهذه مُجرد تفاصيل تقنية لا تهمك فى شىء .. لأنها كانت ستصعب علينا شرح فكرة التجربة للمُرشحين ... »

أمسكتُ بك أيها الوغد !

وسألته بدهشة :

« إذن كيف أخبرنى بموضوع الفئات هذا .. على الرغم من جهلى به ؟!.. »

بدا لى للحظة وكأنه صُعق من السؤال ، ولكنه أجاب بسلاسة فى اللحظة التالية :

Looloo
www.dvd4arab.com

« لابد أن للخطأ البرمجى دور فى ذلك ، فسرَّب معلومات عن خريطة التشغيل . أو أنها انكشـفت لك بسبب فقدان البرنامج سيطرته على نفسه .. عمومًا .. خبراؤنا يعملون على قدم وساق من أجل تحديد أبعاد الخطأ بالضبط .. ومعالجته فى أسرع وقت مُمكن .. »

صمت بعد هذا ، ليتركنى أهضم كلامه ، وأقتنع .

على الرغم من منطقيّة إجاباته ، إلاّ أنه يُمكن الالتفاف حولها بوسيلة أو بأخرى .. بل يُمكن مُجابهتها بأجوبة مُقنعة إلى حد كبير .. ولكن ما هى الأجوبة المقنعة المُمكنة ؟!

إن ذهنى المشوش من آثار التجربة لا يسعفنى للتفكير السليم.

الغريب أننى مازلتُ أميل إلى قصة الوثنيّة على رغم مما بها من ثغرات . تذكرتُ شيئًا ما ..

« وماذا عن الزملاء الآخرين ؟! هل استيقظوا ؟!.. »

قال بهدوء :

« لحظة .. » ، وقام إلى مكتبـه مرة أخرى ، ثُم أخذ يُجرى بعض الاتصالات الداخليـة عبـر كمبيوتر مكتبه ، مُتطلعًا إلى ما تعرضه الشاشة من معلومات . أخذ يلتهم المعلومات بعينيه

فى نهم ، بينما ينعكس إشعاع الشاشة على وجهـه مما أعطاه سمت التماثيل الجامدة .

بعد دقيقتين عاد إلى الكرسى جوارى . وتراجع بظهره إلى الخلف مُركزًا بصره علىَّ قائلاً :

« نعم .. لقد استيقظوا .. وهُم حاليا فى نفس حالتك الآن .. وعلى وشك أن يقتنعوا .. »

نظرت له بنظرة من فضح شيئًا ، بينما أبتلع ريقى بصعوبة . ثُم قلت :

« تقصد موضوع الوثنيّة هذا .. ورفض العالم الافتراضى ؟!.. »

أجاب بوجوم :

« نعم .. »

سألته بسرعة : « .. وماذا عن أفراد الفئة (أ) ؟ هل تعاملوا مع الشخص الذى قابلنى من قبل على حسب ما قال لى ؟.. »

رفع حاجبيه مع كتفيه بحيرة بليدة ، وقال :

« قالوا إن هناك شخصًا زارهم بنفس الطريقة فى روايتك .. وأخبرهم بالموضوع كله كمـا أخبـرك .. اقتنعـوا بحديثه .. وفعلوا مثلما قال ..

Looloo
www.dvd4arab.com

الغريب أن أحدًا لا يذكر ملامحه بالضبط .. مثلك تمامًا ... »

ثُم أضاف بلهجة من يدافع عن نفسه :

« ولا تقل لى أن هذا يؤكد كلامك .. لقد اخترنا قوالبكم النفسيّة بعناية شديدة .. ونعلم جيدًا شعوركم .. كلكم غير راضين بصورة كاملة عمّا فعلتم .. وهذا طبيعى منكم .. لذا فمن المنطقى أن تكون قصتكم الخيالية واحدة .. أعتقد أن هذا الشخص هو الجزء الرافض منكم للعالم الافتراضى .. وقد زار كل فرد فى التجربة بسبب فقدان البرنامج السيطرة على نفسه .. وتحرر ذاكرتكم من سيطرته ..

ولا تنس أنكم جميعًا خضتم التجربة معًا .. وببرنامج واحد .. وفى عالم افتراضى واحد .. هذا يجعل الخطأ شائعًا .. بل لابد أن يكون شائعًا فى هذه الحالة .. »

اللعنة ! هذا الوغد خبيث حقًا . ولكن نبرة صوته هذه المرة لا تُريحنى على الإطلاق .

لكن ما الذى يمنع أن ما يقوله صحيح بالفعل ؟! فهو لم يكن يحتاج إلى إخبارى بأمر الزملاء . فقط كان عليه أن يكذب ويقول إن كُل هذا وهم فى خيالى وحده .. أليس كذلك ؟!

كان عقلى قد وصل إلى أقصى مراحل الإجهاد ، وبدأ الصداع يغزوه فى شراسة .

علىَّ أن أفاضل بين قصتين مختلفتين . بين قصة رُويت فى عالم وهمى ، وبين قصة رُويت فى عالم واقعى . ولكل منهما ثغراته .. تُرى أى القصتين ثغراتها أكثر تقبلاً للرتق بإجابات منطقيّة ؟!

من البديهى أن أصدق قصة العالم الواقعى بلا أدنى تردد ، ولكننى مازلت حائرًا ، وعاجزًا عن اتخاذ أى قرار .

هُنا قال (عزت) بلهْجة الحسم ــ وكأنما قد أدرك حيرتى ــ :

« قرارك يا أستاذ حسن .. إما الموافقة على استكمال التجربة .. وحصولك على حقك كاملاً .. أو رفض استكمالها .. وفى هذه الحالة سوف نُطلق سراحك .. مع العلم بأنك لن تحصل على شىء فى هذه الحالة ... »

قرارك يا أستاذ حسن ؟!

لقد كُنتُ طوال حياتى أبحث بين صفحات الواقع السوداء على سطر واحد من أعماق الخيال ، وهكذا وافقتُ على هذا المشروع . لقد بعت ما فى يدى بالفعل بشىء بعيد تمامًا ، ولكنه بدا لى فى ذلك الوقت قريبًا .. قريبًا للغاية .

Looloo
www.dvd4arab.com

أتُراى أجرمتُ فى هذا ؟!

ثُم وبينما أنا غارق فى سطر الخيال هذا ، لم يهدأ عقلى . بل تماديتُ ، وتعمقتُ فى بحثى أكثر إلى ما بين الجمل فى هذا السطر . لقد بحثتُ عن خيال أكثر خيالاً ، فقادنى ــ ولدهشتى ــ إلى الواقع مرّة أخرى !

هل هذا يعنى أن خيال الخيال ما هو إلاّ الواقع ، على غرار قاعدة نفى النفى إثبات ؟!

أتُراى أخطأتُ فى المرة الأولى فقط ؟ تلك التى استجبتُ فيها لخيالى .

أتُراى قُمت بالصواب بشكل عفوى ، عندما تماديت فى الخيال ، وتعمقت إلى مستوى أعمق وأخطر ، قادنى إلى الواقع الذى يجب أن أحياه ؟!

أم أننى أجرمتُ فى المرتين ؟! و أن علىّ التوقف عن الخيال إلى أجل غير مسمى ، حتى لا تطحننى تروس الحياة الحقيقيّة . و ليست التروس البشرية التى صنعنا بها عالمنا الوهمىّ .

هل صارت حياتى قرباناً أدفعه عن رضا تام لـ ... للخيال ؟! أم هُم بالفعل يدفعون بى كقربان لإله مزيف من الآلة ؟!

زاد التفكير من شدة الصداع ، والذى صار كسيف حاد من الألم يشق رأسى من الخلف ، بينما تنهدتُ فى قوة .. ربما أعمق تنهيدة فى حياتى كلها ..

قرارك يا أستاذ حسن ؟!

هُناك كوابيس تحيا فيها فتحيا فينا .. وهُناك كوابيس تحيا فينا فنحيا فيها . تُرى أيهما هو كابوسى العزيز ؟!

تمت بحمد الله ، وتوفيقه

أحمد محمد فريد الشربينى

المركز الثانى

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

تحت الرمال

الرمال ممتدة إلى ما لانهاية بامتداد الأفق ؛ يمتزج صفارها الباهت بانعكاس أشعة الشمس عليها وبوجهه المصفر الشاحب فى مزيج جنونى رهيب يصنع لوحة سريالية قاحلة .. كان هو يحدق فى الرمال بعينين متسعتين ؛ لا يستطيع أن يحولهما ؛ كأن هناك مغناطيسية غريبة تنبعث من تلك الرمال الذهبية .. القافلة تسير ببطء متقدمة للأمام نحو هدف لا تدركه ؛ فقط من آن لآخر يتبادل الدليل ورفيقـــه نظرات متسائلة دون أن ينطق أحدهما بكلمة .. هى الأخرى لم يكن يروقها الأمر ؛ حرارة الشمس القاحلة أحرقت بشرتها البيضاء ، وحلقها أصبح جافًا تمامًا كالأرض القاحلة الممتدة أمامها ؛ السوائل تتبخر من جسدها بسرعة مذهلة ؛ فى شكل قطرات من العرق تحاول ملاحقتها بمنديلها دون جدوى .. أخيرًا زفرت فى حرارة والتفتت إليه قائلة :

ـ « إلى متى سنظل سائرين هكذا ؟.. »

أجابها دون أن يحول عينيه من على الرمال :

ـ « لا تقلقى .. لقد اقتربنا .. »

ـ « اقتربنا !!.. اقتربنا من ماذا ؟.. من سراب .. »

ـ « ليس سرابًا .. إنها هنا فى مكان ما حولنا .. »

ردت فى عصبية أشد :

ـ « حقًا فى مكان ما حولنا .. ولكن .. أين ؟.. حتى لو جبنا الربع الخالى كله فلن نجدها .. أتعرف لماذا ؟.. »

ردد فى برود ثلجى :

ـ « لماذا ؟.. »

ـ « لأن هذه الرمال المتحركة ستبتلع أى دليل على وجودها .. أفق من وهمك هذا .. »

ـ « ليس وهمًا .. »

ـ « طبعًا .. ليس وهمًا .. ما دام أتى بنا إلى هنا إذن فهوليس وهما .. أتحسب أننى لا أعرف لمَ أتيت بنا إلى هنا .. إنها أصولك العربية اللعينة .. ولكن إن كنت تحسب أننى سأقدر على العيش معك هنا لمدة أطول إذن ... »

ـ « من فضلك .. لم أطلب منك المجىء .. يمكنك أن تعودى لو أردت .. »

Looloo
www.dvd4arab.com

برغم أن ملامحها أنبأت باستمرار ثورتها إلا أنها تمالكت أعصابها فى اللحظة الأخيرة ، واغتصبت نصف ابتسامة قائلة :

ـ « آسفة .. إنه الحر الشديد فقط هوما أهاج أعصابى .. »

لم يبد عليه أى اهتمام باشتعال ثورتها أو انطفائها .. كان منشغلاً بشىء آخر تمامًا ؛ ذلك الشعور المبهم الذى ينمو بداخله أكثر فأكثر ؛ بأنه اقترب .. أخيرًا سيلقى ذلك العبء عن كتفيه على الرمال ، ويترك لها وحدها كشف سر مجيئه إلى هنا ..

قاربت الشمس على المغيب ، وهم لا يزالون سائرين فى رحلتهم التى بدت وكأن لا نهاية لها .. اختفت النظرات المتسائلة من على الوجوه ، وحلت محلها نظرات التعب والإرهاق والرغبة فى العودة ، وفجأة ـ دون أن يتوقع أحد ـ صاح هو :

ـ « هنا .. توقفوا .. »

لم يكن هناك شىء مميز فى البقعة التى طلب منه التوقف عندها .. حتى هو لم يعرف لمَ طلب منهم التوقف هنا بالذات :

ـ « سنعسكر هنا الليلة .. »

قالها بصوت شعر أنه لم يعد صوته ؛ كأن شخصًا آخر يتحدث من خلاله وإنه لم يعد سوى دمية فى يد هذا المجهول يحركها كيفما يشاء ..

بدا التذمر على وجه الدليل ورفيق ؛ لكنه لوح بزيادة الأجر فقبلوا على مضض .. تركهم يخرجون الزاد ، ويحددون مكانًا صالحًا للمبيت ، وظل هو واقفًا يحدق فى لاشىء ؛ مشاعر منتشية غريبة تتراقص بداخله ، ورعشة باردة تجتاح جسده كأنها صدى لتلك الرقصة المحمومة .. وقفت هى بعيدًا تراقبه بمزيج من القلق والإشفاق ثم اقتربت مترددة :

ـ « أما زلت غاضبا منى ؟.. »

ـ « أوه .. كلا .. لقد نسيت كل شىء عن الأمر .. »

صمتت قليلا وهى تتفرس فى وجهه قبل أن تهمس :

ـ « أخبرنى الحق .. لمَ توقفت هنا بالذات ؟.. »

ـ « لا أعرف .. صدقينى لا أعرف .. »

* * *

لم يستطع النوم فى تلك الليلة ؛ زوجته نامت والدليلان ؛ حتى الليل بدا وكأنه نعس على أجفان الصحراء .. فقط هو لم ينم ؛ برغم التعب والإرهاق .. بالرغم من أن كل عضلة فى جسده كانت تصرخ مطالبة بحقها فى الراحة ؛ بالرغم من كل شىء لم يستطع النوم ؛ ربما لأنه صار يخشى النوم بعد هذه الأيام ..

Looloo
www.dvd4arab.com

يخشاه أكثر من أى شىء آخر ؛ يخشى أن ينام فيطارده ذلك الحلم ثانية .. كان يرى نفسه يسير وحيدًا هائمًا على وجهه فى صحراء مظلمة ممتدة إلى ما لا نهاية .. يصرخ مناديًا فلا يجيبه سوى عواء الذئاب البعيدة .. خطواته تثقل وشفاهه المشققة تتوق للماء .. وفى النهاية يسقط على ركبتيه فى يأس .. وفجأة يسمع ذلك الصفير يعلو ويعلو .. يلتفت وراءه فيراها .. إنها الريح الطوفانية آتية تتلوى وتعوى فى وحشية حاملة الغبار والموت .. يركض ويسقط .. يسقط ويركض .. ولكن عبثًا إنها ستلحق به مهما حـاول .. لا ملجأ حوله مـن العاصفة سوى العاصفة نفسها .. وفجأة يصطدم بذلك الجسد .. يرفع رأسه ليرى وجهًا مألوفًا .. من هو ؟ ومن أين أتى ؟.. لكن لا وقت للأسئلة .. فستبتلعهما العاصفة الآن .. ولكن الرجل يبتسم فى هدوء فاردًا ويضمه أسفل عباءته .. يسمع صفير الريح تمر بجوارهما بعيدة .. بعيدة .. ثم يظلم كل شىء ..

ومنذ بدأ ذلك الحلم وبدأت بداخله تلك الرغبة المحمومة فى المجىء إلى هنا .. والآن فى وسط هذه الصحراء المظلمة الحقيقية يبدو الحلم قابلاً جدًا للتحقيق .. لكن النجاة لا تبدو ممكنة أبدًا .. إذ كيف سيحتمى من الرحيل فى عباءة رجل لا وجود له .. ولكن أين رأى هذا الرجل من قبل ؟.. أين ؟.. إنه

يشعر أنه يعرفه جيدا بل شىء أكبر من حدود المعرفة العادية .. إنه يشعر وكأن بينهما رابطة دم ؛ كأنه ينتمى إليه .. آه من تلك الأفكار اللعينة التى لا تكف عن مطاردته ؛ إنه يكاد يجن .. قرر النهوض ليشعل لفافة تبغ فى الخلاء لعله يفرغ فى أنفاسها غيظه .. كان الجو باردًا بحق ؛ إنه ليل الصحراء القاسى كنهارها .. أحكم معطفه أكثر حول جسده وهو ينفث دخان سيجارته فى الهواء .. سرعان ما ألقى بالسيجارة على الأرض وسحقها بقدمه .. لقد قرر أن يتوقف عن التدخين منذ فترة .. ولكن لمَ أتى بعلبة السجائر معه من الأصل ؟.. تبًا لكل تلك المتناقضات التى بداخله ..

شعر برغبة فى السير قليلاً بعيدًا عن المعسكر ؛ ربما ليس بعيدًا جدًا ؛ إنه ما زال يذكر تحذيرات الدليل من .... وفى تلك اللحظة شعر بقدميه تغوصان فى الرمال .. لم يتصور قط أن يحدث له هذا .. صحيح أن صدى كلمات الدليل ما زال فى أذنيه ولكن.... .أقطع كل هذه المسافة من أجل أن يموت هنا ؟.. أكان الموت هو ما يناديه كى يجىء إلى هذه الصحراء .. والخطط التى كان يضعها لحياته ؛ كل هـذا بدا عبثيًا ولا معنى له فى تلك اللحظة .. صرخ محاولاً الاستنجاد بأحد منهم .. ولكن لم يبد أن أحدًا قد سمعه ؛ تبعثرت كلماته فى الهواء قبل أن تصلهم ..

Looloo
www.dvd4arab.com

الرمال تبتلعه فى هدوء قاتل فى حد ذاته والجميع نائمون كالجثث من تعب النهـــار .. لا أحد يسمع .. لا أحد يرد .. فجأة توقف عن النداء وانتابه تناغم شعرى غريب مع قدره .. أخذ يردد آيات قرآنية وأدعية كان يحفظها ؛ هذه هى اللحظة التى يبدو فيها هذا فقط هو الشىء الحقيقى وكل ما عاده كان سرابًا أو حلما .. وصلت الرمال إلى أكتافه ، وبين لحظة وأخرى لن يعود قادرًا على التنفس .. لحظة واحدة ويعبر الحاجز ويعرف الحقيقة كاملة .. إنه يختنق .. الآن يختنق .. ولم يعد يشعر بشىء ...

* * *

استيقظ على لسع الشمس .. صدمته الإضاءة الباهرة فأغلق عينيه ثانية ثم فتحهما لتصدمان بالأعين المحدقة .. من هؤلاء ؟.. وأين هو ؟.. استغرق وقتا فى تذكر ما حدث .. ألم يمت بعد ؟.. غريب هذا .. ربما هو ميت بالفعل .. مد يده فى سذاجة وقرص ذراعه فشعر بالألم .. إنه حى بالتأكيد .. هل أنقذه الدليلان فى آخر لحظة ؟.. لكنه لا يرى أى وجه يعرفه بين هذه الوجوه .. أتبدو قاماتهم أطول من اللازم أم أنه يتخيل ؟.. إنه لم يستعد تركيزه بالكامل .. كانوا قد انتحوا جانبًا قريبًا منه يختلسون إليه

النظرات من آن لآخر .. وأخيرًا بدا أنهم لاحظوا إفاقته فاقترب أحدهم منه .. غريب أن الرجل كان يبدو عجوزًا .. عجوزًا جدًا كأن عمره ألف عـــام .. كان الرجـــل يتحدث ملوحًا بذراعيه بإشارات غير مفهومة .. حدق هوفى وجه الرجل محاولاً أن يتبين ما الذى يقوله لكنه لم يفهم شيئًا .. لم يفهم شيئًا على الإطلاق ؛ صحيح أنه لم يستعد تركيزه ولكن ليس إلى هذا الحد .. جاهد لاستجماع شتات عقله والرجل يواصل كلامه دون أن يفهم شيئًا على الإطلاق .. هذا الرجل ببساطة يتحدث لغة لم يعرفها هومن قبل .. ولكن أى لغة هذه ؟.. صمت الرجل أخيرًا بعدما لمح ملامح عدم الفهم على وجهه وعاد إلى رفاقه ليتبادل معهم همسات بذات اللغة الغريبة .. ثم رجع إليه ثانية ومعه رجل آخر ، تحدث إليه الرجل الآخر قائلاً شيئًا ما .. من جديد لم يستطع هو أن يفهم شيئًا .. هل تختلف تلك اللغة قليلا عن اللغة الأخرى .. ربما نعم .. ربما لا .. أى جنون ألقى به إلى هذا المكان الغريب ؟.. بعد أن يئس الرجلان منه ؛ أشار الأول له بيده إشارة فهم منها أنه يطلب منه النهوض .. نهض مترنحًا وكاد يسقط على وجهه فمد يده متعلقًا بعباءة الرجل .. الآن فقط عندما وقف أدرك أن الرجل أطول منه بكثير .. إنه يكاد أن يكون قزما بالنسبة له ؛ قزمًا كاريكاتيريًا مضحكًا ؛ ليس بالنسبة لهذا

www.dvd4arab.com

الرجل فقط بل كل الرجال الواقفين كانوا طوال القامة بصورة مذهلة ؛ ووجوههم .. وجوههم رمادية متغضنة عجوز .. التفوا حوله فحجبوا ضوء الشمس وبدأ يشعر بالبرودة والخوف .. تبًا .. فقط لو يفهم أين هـو ؟.. فهـم من نظراتهم وإشاراتهم أنهم يطلبون منه التحرك إلى الأمام .. نفذ على الفور فمثل هؤلاء لا يجب معارضتهم إطلاقًا فإن أصغرهم قادر على سحقه بضربة واحدة .. تحرك فى وسط دائرة منهم .. لم يستطع أن يرى شيئًا مما حوله بسبب أجسادهم التى حجبت عنه كل شىء حتى الهواء لكنه لاحظ أن الأرض التى يسير عليها عشبية ندية ؛ إذن فهوليس فى الصحراء أو ربما فى واحة قريبة .. لكن الربع الخالى لا يحتوى على أية واحات ؛ إنه ميت تقريبًا بسبب تلك المساحات الشاسعة من الرمال المتحركة .. أما هنا فهذا العشب الطرى الطويل الذى تكاد قدميه تغوصان فيه .. وهذه الرائحة العطرية الجذابة التى تعبق الهواء ؛ هذا مرج حى بكل ما تحمله الكلمة من معنى ..

شعر بنظراتهم الفضولية تخترقه ممتزجة بضجر خفى ؛ ربما بسبب بطئه الشديد فبخطواته القصيرة تلك مقارنة بخطواتهم بدا وكأنه سلحفاة عجوز تسير وسط مجموعة من الأرانب الشابة .. ولكن إلى أين يذهبون به ؟.. لا يبدو مريحًا جدًا أن يسير معهم

هكذا كشاة مقادة إلى الذبيح دون أن تعلم .. فقط لو يفهم .. توقفوا فجأة وفكوا الحصار الذى صـنعوه حوله متيحين له مساحة يرى منها .. اتجـه اثنان منهم نحومن بدوا كحراس للمبنى واشتبكوا معهم فى حوار ما تتخلله إشارات إليه .. أما هو فاستغل الفرصة كى يدير عينيه متأملاً المكان ؛ كانوا فى تلك اللحظة أمام مبنى أبيض هائل الضخامة فى مثل ارتفاع ناطحة سحاب .. تصميمه ونقوشه بها مزيج غير مريح من الجمال والغرابة .. يستطيع أن يقسم أنه لم يشاهد مثله من قبل .. شعر برهبة شديدة من الوقوف فى حضرة هذا البناء الحى الذى يحدق فيه بأعين خفية .. لم يكن أمامه المزيد من الوقت للتأمل لأن الرجلين عادا فى تلك اللحظة ودفعاه أمامهما إلى الداخل ..

لم يبد المبنى مريحًا كذلك من الداخل .. كان شديد الاتساع لا يضيئه سوى ضوء النهار الباهت عبر نوافذ ضيقة .. فبدت هناك الكثير من المساحات المظلمة الشاسعة تتحرك فيها الظلال الغامضة بحرية .. تركهم باقى الجمع عند البوابة ولم يبق معه سوى الرجل الذى حاول محادثته فى البداية وانضم إليه أحد الحراس .. اتجهوا إلى غرفة ضيقة دلف إليها هو أولا مدفوعا بلمسة من يد الحارس .. أتراه سجنا ؟.. لكن سرعان ما انضم إليه الحارس والرجل فى الحجرة وبدأ يشعر أنهم صاعدون إلى

Looloo
www.dvd4arab.com

أعلى ؛ هذا مصعد .. يا لغبائه ؟.. ولكن يا له من مصعد غريب الشكل .. لا توجد أزرار بالداخل أو أى شىء يدل على كيفية عمله .. انتابته الحيرة أكثر .. توقف المصعد أخيرًا .. سارا به حتى توقفا أمام أحد الحجرات .. وقبل أن يفهم أى شىء كان الحارس قد دفعه إلى الداخل وأغلق الباب .

* * *

كانت الغرفة مظلمة تمامًا ، جعلها هذا تبدو عميقة كأن لا نهاية لها .. خاف أن يتحرك من مكانه كى لا يضيع فى غورها السحيق .. ظل رابضا بجوار الباب وقد توترت حواسه كلها مع عجز البصر عن الرؤية .. ما الذى يرقد فى تلك المساحة المظلمة المترامية الأطراف ؟.. ألقى بجسده على الأرض مسندًا ظهره إلى الباب وتنهد .. فقط لو يستطيع أن يفهم أى شىء .. أين هو ؟.. ومن هم ؟.. ولم أتوا به إلى هذه الحجرة المظلمة ؟.. ألم يكن من الممكن حجزه فى حجرة بها أى بصيص من النور ؟.. لا يعرف لماذا تذكر ما قرأه عن حجرات الإعدام بالغاز .. كلا إنه لم يفعل شيئًا كما ..... بتر أفكاره سماع صوت حركة فى مكان ما من الحجرة .. دار بعينيه فى الحجرة عبثًا محاولاً اختراق حجب الظلام .. ما الذى يتحرك

هناك ؟.. لا يستطيع أن يرى شيئًا .. تبًا .. لو ظل هنا لساعة أخرى فسيصاب بالجنون حتمًا .. ربما هذا ما يريدوه .. وفى تلك اللحظة شعر بالباب يدفع من خلفه ، وظهر من خلفه وجه الحارس .. بدا له فى تلك اللحظة كأجمل وجه فى العالم ، وانقاد على الفور مع اليد التى جذبته خارج الحجرة .. أوقفه الرجل فى الممر قبل أن يخرج عصابة ويغطى بها عينيه .. ومن جديد ساد الظلام أمام عينيه .. لماذا يصرون على تعميته بأية وسيلة ؟.. شعر بالرجل يسحبه مخترقًا به ممرات وهمية يراها هو فقط بخياله .. لم يكن الأمر مريحًا على الإطلاق وكان يشعر فى كل لحظة بأنه سينكفئ على وجهه وأنه على وشك أن يصطدم بحائط غير منظور .. أخيرًا توقف الرجل دون أن ينزع العصابة عن عينيه .. من جديد اجتاحه التوتر .. لماذا توقف الرجل ؟.. ولم تركه فى الظلام .. أتراه سيعدم ؟.. ربما شنقًا هذه المرة .. شعر بالرجل يجلسه وبشىء بارد يلمس جبهته .. ثم ذاب كل شىء .. طوفان من الذكريات .. أفكار تتابع بسرعة مذهلة لا يستطيع السيطرة عليها .. آلاف الأصوات تصرخ وتضحك فى ذهنه .. رأسه يكاد ينفجر .. وهدأ كل شىء فجأة كما بدأ وأظلمت الرؤية أمام عينيه .. فعليًا هذه المرة ..

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

تسلل الوعى إلى رأسه بطيئًا ثقيلاً .. عضلاته مخدرة تقريبًا ؛ غير قادر على تحريكها .. تذكر ومضات باهتة مما حدث .. يا له من حلم ثقيل .. لقد رأى أنه .... وفى تلك اللحظة اخترق حاجز خواطره المبعثرة صوت يقول :

ـ « هل أنت على ما يرام ؟.. »

كاد يرد .. لكن الكلمات احتبست فى حلقه عندما تنبه إلى شىء بسيط ؛ الجملة التى قالها الرجل وفهمها هو على الفور كانت بلغة لم يعرفها قط قبل الآن .. فتح عينيه على اتساعهما محدقًا فى المكان من حوله .. لم يكن يحلم إذن .. هذا المكان ، وهذه النقوش الغريبة على الجدران .. إنه ما زال هنا .. كان الرجل يقف معطيًا إياه ظهره يفعل شيئًا ما على منضدة حجرية ملتحمة بالجدار .. ومن جديد وصله الصوت الهادئ عبر مساحة الحجرة الخاوية :

ـ « أعتقد أنك ما زلت تشعر ببعض الصداع الخفيف .. »

ودون أن ينتظر إجابته أردف :

ـ « لا تقلق سيزول بعد قليل .. »

كان وقع الكلمات على سمعه له رنين غريب .. دعك من صوت الرجل المجوف العميق كأنه يأتى من بعيد .. من بعيد جدًا .. وتابع الرجل دون أن يلتفت :

ـ « لقد مررت بتجربة نقل المعرفة .. وهى مرهقة بعض الشىء .. لكنك ستكون بعد قليل قادرًا على التحدث بلغتنا .. »

التقط هو العبارة الأخيرة وبدأ يحاول تحريك شفتيه .. هل يمكنه التحدث فعلاً بهذه اللغة ، وخرجت الكلمات من شفتيه دون أن يعى كيف :

ـ « أين أنا ؟.. »

بدت الجملة غريبة كأن شخصًا آخر هومن قالها .. جاءه الرد مغلفا بغلالة من الغموض :

ـ « أنت فى المبنى الرئيسى لمصانع الخلود .. »

ثم صمت الرجل برهة قبل أن يتابع :

ـ « أعلم أن الأمر رهيب .. ولكننى سأجد حلاً .. لابد وأن يتوقف هذا .. لابد .. »

لا يعرف لماذا تكلم الرجل معه بهذه البساطة كأنه يعرفه منذ زمن والغريب إنه بدأ يشعر أن الصوت مألوف كذلك .. أين سمعه من قبل ؟.. لكنه لم يفهم شيئًا مع ذلك .. فعاد يقول فى بطء :

ـ « ما هى مصانع الخلود ؟.. أنا لا أفهم أى شىء .. »

Loolaa www.dvd4arab.com

لم يبد على الرجل أنه سمع عبارته فقد التفت فجأة قائلاً بسرعة :

ـ « لحظة واحدة .. سأعود حالاً .. »

ثم اتجه خارجًا من الحجرة ، وتجمد هو فى الثانية التى التفت فيها الرجل .. فلقد عرفه على الفور ..

* * *

الوجه .. الوجه الذى رآه فى الحلم .. الملامح القوية الحنون .. الملامح المألوفة .. القريبة البعيدة .. إنه هو ولكن كيف ؟.. كيف ؟.. أى جنون هذا .. فعلاً لابد وإنه قد جن ؛ هذا هو التفسير الوحيد لكل ما يحدث .. قطع تفكيره فتح الباب ودخول رجلين .. كان أحدهما الحارس الذى قاده فى المرة الأولى ورجل آخر أشار إليه باشمئزاز قائلاً للحارس :

ـ « أطعمه وأبدل ثيابه ثم أتنى به .. »

لسبب ما شعر كأن الرجل يسبه بتلك الكلمات .. ربما لطريقته التى توحى بأنه يتحدث عن أحد حيواناته الأليفة أكثر من كونه يتحدث عن إنسان يقف أمامه .. تركهما الرجل وخرج فجذبه الحارس بخشونة قائلاً :

ـ « تعال معى .. »

سار معه إلى الحجرة المجاورة ودفعه إلى الداخل .. كان جل ما يخشاه أن تكون الحجرة مظلمة تمامًا كالسابقة لكنها كانت مضاءة هذه المرة عبر كوة صغيرة ضيقة .. أشار الحارس إلى طبق وثياب مكومة على الأرض قائلاً له :

ـ « كل وغير ملا بسك .. هل تعرف كيف تفعل ؟!!.. »

هز هو رأسه فى بطء فقال الحارس بعنف غير مبرر :

ـ « هذا أفضل .. »

ثم تركه وخرج .. جلس هو على الأرض مرهق الجسد والروح .. أى دوامة ألقى بنفسه فيها .. وهؤلاء يعاملونه كأنه يفهم كل شىء وكأنهم كذلك يعرفون كل شىء عنه .. غريب فعلا إنهم لم يسألوه عن أية تفاصيل ؛ من أين أتى ؟.. أومن هو أو أى شىء إطلاقًا .. وكيف جعلوه يتعلم لغتهم مباشرة هكذا دون دروس أو كتب .. ولمَ علموه اللغة أصلا ما داموا لم يسألوه عن أى شىء .. ربما فقط لتسهيل التعامل معه .. ثمة شىء مقلق فى هذا الأمر .. يستطيع أن يشعر به لكنه لا يستطيع أن يراه أو يمسك به .. شىء يشعر انه رهيب .. رهيب جدًا .. وعندما

www.dvd4arab.com

جاء الحارس ليصطحبه كان عقله يترنح من القلق .. إلى أين سيذهب به بالضبط ؟

* * *

الممر بارد ومعتم .. هدوء رهيب يخيم على المكان .. لا أحد سواهما والظلال المرتعشة على الجدران .. هواء بارد يتسرب مـــن مكان خفى ويجعله يرتجف .. ثمة تواجد ثقيل فى تلك المدينة .. منذ دخلها وهو لا يشعر بالراحة كأن هناك شبح ما يجثم عليها ؛ شبح يحجب عنها الطمأنينة والدفء ..

سار صامتًا أمام الحارس بينما أفكاره لا تكف عن الصراخ .. الأسئلة ذاتها من جديد ؛ من أين ؟.. إلى أين ؟.. كيف ؟.. ولماذا ؟.. وتظل الأسئلة معلقة بلا إجابة .. فكر فى الهروب من الحارس ولكنه تلقائيًا يجد نفسه يتساءل إلى أين ؟.. إنه لا يعرف حتى أين هو أو سيعرف إلى أين يهرب .. فقط وجود ذلك الرجل الذى رآه فى الحلم يطمئنه بعض الشىء .. فى الحقيقة يطمئنه ويقلقه فى الوقت نفسه .. أومن الممكن أن يتحقق الحلم نفسه ؟.. أفاق على وقوف الحارس أمام أحد الأبواب ، فتحه بهدوء ، وأدخله ثم خرج تاركًا إياه دون أى توضيح .. كان المكان عبارة عن حجرتين متصلتين عبر باب نصف موارب ، ومن خلف الباب أتاه

صوت نقاش عصبى .. اقترب من الباب دون صوت واستطاع أن يلمح عبر فتحته وجه رجل الحلم الغريب يتحدث مع شخص آخر قائلاً بعصبية :

ـ « ليس هو أيضًا .. »

ـ « لا أعرف ما الذى حدث لك .. لقد كنت تفعل هذا دائمًا .. »

ـ « لم أكن أعرف .. لقد كنت أحسبهم موتى من البداية .. لم أكن أعرف أننا نقتلهم من أجل .... .. »

ـ « قلها .. من أجلنا ... من أجل أن نعيش نحن حياة أطول وأصح .. ألا ترى أن الأمر عادل تمامًا .. »

ـ « عادل كيف ؟.. »

ـ « نحن الأفضل والأقوى .. أنظر إلى هذا الرجل الذى وجدوه .. إنه فى نصف طولنا تقريبًا .. مشكلتك أنك تنظر إليهم على أنهم بشر .. »

ـ « وماذا يكونون إذن ؟!! !.. »

ـ « دجاج .. دواب .. سُخّروا لنا.... »

ـ « ولكن .... »

Looloo
www.dvd4arab.com

بتر عبارته عندما لاحظ تلصصه عبر فتحة الباب .. والتفت إلى الآخر قائلاً :

ـ « سنكمل كلامنا فيما بعد .. »

لأول مرة التفت الآخر إلى وجوده .. رمقه بنظرة لا مبالية ثم قال :

ـ « هل ستفحصه أنت أم .... ؟.. »

ـ « لا تقلق سأتولى أنا الأمر .. »

ـ « هل أنت متأكد ؟.. »

ـ « آه .. طبعا .. طبعا .. »

ـ « وماذا عن حديثنا ؟.. »

ـ « كما أخبرتك .. سنكمله فيما بعد .. فيما بعد .. »

ـ « حسنًا لقد كنت أرغب فى العودة إلى البيت .. لا أعرف لماذا أشعر بالبرد اليوم .. ربما بسبب تلك الرياح .. يبدو أنها ستمطر .. »

ردد الأول فى خفوت :

ـ « الريـــاح .. »

عبر الآخر الباب ومر من أمامه مغادرا الغرفة .. استطاع هو أن يلمح وجهه لقد كان ذلك الرجل الذى طلب إحضاره إلى هنا .. لم يحبه قط أو يرتاح إليه لكنه تمنى لو بقى كى لا يبقى هو وحده فى مواجهة هذا الرجل .. رجل الحلم المهيب .. وجده يلتفت إليه قائلاً :

ـ « أعتقد أنك سمعت ما كنا نتحدث عنه .. »

هز هو رأسه فى وهن .. كل هذا الجنون ألجم لسانه وأرهقه ، وسبب آخر كذلك ؛ أنه شعر بعدم قدرته على النطق فى حضرة هذا الرجل بوجوده الطاغى .. كان يريد أن يخبره أنه حلم به .. كان يريد أن يحكى له كل ما حدث من البداية .. كان يريد أن يقول الكثير والكثير .. لكنه لم يستطع سوى أن يعبر حدود الرهبة بعبارة باهتة :

ـ « لكنى لم أفهم .. »

تعجب لصوته كيف خرج ضعيفا ضارعا كأنه يرجوه أو يشتكى له .. صمت الرجل لحظات ناظرا للأرض قبل أن يقول :

ـ « ربما من الأفضـل ألا تفهـم .. ولكن .. حسنًا .. لا أعرف كيف أقول هذا .. آ .. أنت لا تعرف ما هى مصانع الخلود أليس كذلك ؟.. حسنًا .. إنها .. يا إلهى .. كيف أخبرك .. »

ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ « لا بأس .. بدأ الأمر منذ بضع سنوات .. بعدما أصبحت مملكتنا الأقوى بين كل الممالك المجاورة .. بدأت فى الإغارة على بعضها .. كان هناك الكثير من القتلى فى الحروب .. وكان لابد من دفنهم أو تركهم فى العراء ومن هنا جاءت الفكرة .. لماذا لا نستخدمهم كبديل لأعضائنا التالفة .. فمن يموت يتم أخذ أعضائه المهمة واستخدامها للمرضى الأحياء .. لعلك لاحظت أن هناك عجائز أكثر من اللازم هنا .. ربما لم تلاحظ .. ليس مهما .. المهم أنه بمرور الوقت لم يعد الأمر قاصرا على الموتى أو قتلى الحرب .. إنما انتقل إلى الأحياء من القبائل الأضعف .. يتم انتقاء الأصحاء منهم وجلبهم إلى هنا .. ثم قتلهم .. والاستفادة بأجزائهم .. وهذا ما عرفته أنا متأخرًا .. متأخرًا جدًا للأسف .. أعتقد أنك فهمت الآن كل شىء .. ولكن هذا لن يستمر .. لن يستمر لسبب بسيط لقد بدأت تباشير الريح و .... »

كان هو مغيبًا تمامًا .. ما هذا الذى يتحدث عنه الرجل .. ودون وعى وجد نفسه يقاطعه :

ـ « لحظة واحدة .. أريد أن أعرف أين أنا بالضبط .. »

وبكل بساطة أجاب الآخر :

ـ « لا تقل لى أنك لا تعرف بكونك فى مدينة إرم العظيمة ذات العماد .. »

* * *

الرياح تعـوى .. من بعيد تعوى كأنها آلاف الذئاب تستعد لنهش جثث حية .. كان هو يرتجف فى ملابسه القضفاضة كأنه يعيش ذلك الحلم بتفاصيله لكنه لا يحلم هذه المرة .. فالرجل يسير بجواره والريح تعوى من ورائهما .. لقد أخبره الرجل أن الليلة هى الليلة الموعودة وأنه سيهرب خلف نبى الله وأنه سيأخذه معه .. وتسللا معًا فى الليل .. أحقًا يحدث له كل هذا .. شعر بدوار وأنه غير قادر على المشى .. ترنح وسقط على ركبتيه على الأرض .. واقترب منه الرجل ومال عليه محتضنا إياه تحت عباءته وهو يقول :

ـ « لا تخف .. سننجو بإذن الله يا بنى لأن الله معنا .. »

شعر هو بالراحة والدفء وابتسم ابتسامة خافتة قبل أن يذوب كل شىء أمامه فى ظلام العباءة ..

* * *

من جيد فتح عينيه لتصدما بأشعة الشمس القاسية فأغلقهما بسرعة ، وخاف أن يفتحهما ثانية .. أين هو الآن .. هذه المرة الألف التى يفقد فيها وعيه ولا يعرف أين هو .. فتحهما ثانية فى حذر فوجد وجها مألوفًا يبتسم ويقول :

ـ « أخيرًا أفقت لقد أفزعتنا .. »

Looloo
www.dvd4arab.com

كانت زوجته تقف هناك .. يلمع شعرها الذهبى تحت ضوء الشمس .. هل حقًا ما زالت زوجته موجودة .. لقد ظن أن هذا العالم الذى كان يعيش فيه لم يكن أكثر من حلم وأن حياته الحقيقية كانت هناك تحت الرمال فى مدينة إرم ذات العماد .. فى وجوده فيها وهروبه منها فى جنح الليل .. وسمع صوته زوجته يأتى من ذلك العالم الآخر قائلاً :

ـ « لقد خفت كثيرا عليك .. »

كان لا يزال يحدق بها فى ذهول كأنها تتحدث إلى شخص آخر غيره .. أجزاء جسمه محطمة وروحه محلقة فى عالم آخر .. لكنه تجاوز عن هذا وحاول أن ينهض قائلاً :

ـ « هيا لا داعى للانتظار .. يجب أن نعود اليوم .. »

من جدى شعر أن شخصًا آخر يتكلم بدلا عنه .. يعود .. إلى أين ؟.. وهو يشعر أن هنا مكانه .. سمع زوجته تقول :

ـ « ما بك .. لماذا قررت العودة بهذه السرعة ؟.. ألن تكمل بحثك .. لو كنت تفعل هذا من أجلى فـ .... »

هذه المرة قاطعها هو قائلاً :

ـ « بالمناسبة .. أنا لن أعود ثانية إلى إنجلترا .. »

ـ « ماذا تقول ؟.. »

ـ « لو أردت أن تعود أنت فهذا حقك .. لن أجبرك على شىء .. »

صمتت هى لحظات قبل أن تقول :

ـ « سأبقى .. سأبقى معك .. »

وشعر هو أنه من يقول هـذه العبارة لشخص آخر تمامًا .. متواجد فى مكان ما حـوله .. روحه تحلم قريبًا من مدينته المدفونة تحت الرمال ..

تمت بحمد الله

هبة الله محمد حسن السيد

المركز الثالث

* * *

أطيب تهانئى للفائزين ، وتمنياتى لمن لم يشأ له قدره الفوز هذه المرة ، وأملى أن تكونوا جميعًا نواة المسابقة ..

ونواة المستقبل .

د. نبيل فاروق

www.dvd4arab.com

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

فى هذا الكتاب

صفحة

- فلسفة الخيال 5
- مسابقة د. نبيل فاروق لأدب الخيال العلمي للشباب
- وللتخابر أيضا ... تاريخ (دراسة) 18
- جريمة رقمية (قصة العدد) 81
  1. الزائر 82
  2. مسألة رقمية 100
  3. الشهود 117
  4. المفاجأة 134
  5. دراكيولا 153
  6. الشريك 171
  7. ختام 190
- مجلتنا 199
  - يوجينيا 202
  - وثنية .... (رواية قصيرة) 232
  - تحت الرمال 312

الثمن فى مصر 500 ق
وما يعادله بالدولار الامريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية

مطابع